عبد اللطيف بن عبد الغني جسُّوس

نجمٌ مِنْ أعلامِ عُلماءِ السَّلَفِ في عُلماءِ الخَلَفِ

في ترجمةِ مُحدِّثِ المغرب فضيلة الشيخ الحافظ
السيد عبدِ العزيزِ بنِ محمدِ بنِ الصِّدِّيق
(1338 ـ 1418) (1920 ـ 1998)

اِعتنى به وقدَّم له :
د. عبد المنعم بن عبد العزيز بن الصدِّيق

نجمٌ مِنْ أعلام عُلماءِ السَّلَفِ
في عُلماءِ الخَلَفِ

في

ترجمةِ مُحدِّثِ المغرب فضيلة الشيخ العلاّمة
السيد عبدِ العزيزِ بنِ محمدِ بنِ الصِّدِّيق
1338 ـ 1418
1920 ـ 1997

تأليف :
عبد اللطيف بن عبد الغني جسُّوس

إِعتنى به وقدَّم له :
د. عبد المنعم بن عبد العزيز بن الصدِّيق

الكتاب : نجـمٌ مِنْ أَعـلامِ عُـلماءِ السَّلَفِ في عُـلماء الخَلَـفِ
تأليف : عبد اللطيف بن عبد الغـني جسُّوس
تقديم : عبد المنعم بن عبد العزيز بن الصدِّيق
مطبعة : سليكي أخوين - طنجة
الهاتف : 05.39.32.31.80 - 06.61.17.08.78
الحقوق : محفوظة
الطبعة : الأولى - يوليوز 2014
الإيداع القانوني : 2014MO2196
الترقيم الدولي : 978-9954-636-00-8

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفَى، وصلَّى الله وسلَّمَ على الحبيبِ المُصطفَى وآلِه أهلِ الصِّدقِ والوفا، ورضِيَ الله عن صحابتِه ومَنْ بِهم اِقْتفَى.

وبعد:

فقد طلب منِّي فضيلة الأستاذ النبيه الألمعِيّ، الدَّاعية الصُّوفي الذَّاكر، السيد عبد اللطيف جسّوس، لطَف الله تعالى به، أنْ أكتبَ له مقدِّمةً لِكِتابِه: "نجم مِن أعلامِ عُلماء السَّلفِ في عُلماءِ الخلَف"، الذي ترجَمَ فيه لأحدِ الأعلامِ المشاهير وهو شيخُه العلَّامة الكبير، المجتهد، والمحدِّث الضَّليع الناقد، المحقِّق المفيد، العارف بالله الزاهد، الدَّاعي إلى الله تعالى بِحالِه ومقالِه، السيِّد عبدُ العزيز بنُ محمدِ بنِ الصدِّيق، الحسني، رضي الله عنه.

فرَحَّبتُ بِطلبِه، راجياً أنْ أُسهِمَ بما سأكتبه في الوفاء بحقِّ وليِّ نِعمتي مولايَ الوالد -المترجَم له في هذه الترجمة- رحمه الله تعالى، وأنْ أقضيَ حقَّ النعمةِ بِحمدِ حُسنِ الصنيعةِ فيما قدَّمه لي مِنْ حُسنِ تربيةٍ وتوجيهٍ، ونَحلَنِيه مِنْ أدبٍ وتعليمٍ؛ فجزاه الله عنِّي خيرَ ما جزَى أباً عن اِبنِه، وجمعني معه في دارِ كرامتِه مع المُنعَمِ عليهم، ممن لا خوفٌ عليهم ولا هُم يَحزنون.

وجزَى الله تعالى المؤلِّفَ خيراً على ما اِضطلَعَ بِذِمام التَّلْمذةِ والـمُعارفَةِ وأدَّى مُفترَضَ الآلاءِ، بالتعريف بحقِّ شيخِه وبثِّ مناقِبه وإذاعةِ فَضلِه، فكان بهذا غيرَ جاحدٍ ولا كَنودٍ لِلإحسان الروحيِّ الذي خصَّه به شيخُه، والمتمثِّل في توجيههِ وتعليمه، وتلقينِه التربية الإسلامية القويمة، ﴿وَهَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ﴾، وما زاده على ما كان عليه مِنْ حبٍّ جمٍّ للدِّين وغيرةٍ على حرمتِه، وتحبيبِه في الإقبال علَى ذِكر الله تعالى والعناية به وبحضور حِلَقه في الزاوية الصدِّيقية.

فجاءت هذه الترجمةُ حافلةً بالفوائد وبما يَشحذُ العزائمَ ويُربِّي النفسَ، ويُسهِّلُ طريقَ أخذِ العِلمِ لِطلبتِه، ويُرشِد العلماءَ لِلعمل بِما يُكسِبهم الفقاهةَ والملَكةَ العلميةَ ويَنتشلهم مِن براثِن التقليد والجمود.

حيث اِستطاع المؤلِّف بتأليفِه هذا أَنْ يقدِّم لأهلِ الإسلام عامةً المَثلَ الحسَنَ بِشيخه رحمه الله لِما يَنبغي أنْ يكونَ عليه العلماءُ مِنْ سُموٍّ في الأخلاق، وهِمَّةٍ عاليةٍ تَرفعهم عن الخوض فيما يخوض فيه العامَّة مِنْ سفاسِفِ الأمور، وتَكفُّهم عن الانخداع ببهرجةِ الدنيا الكاذبة، وأنْ لا يكونَ همُّهم الاشتغالَ بما يجرُّ عليهم دَناياها والانكبابَ على ملذَّاتها، والتسابقَ مع أهلها عليها، والسعيَ لِنَيلِ حظوظِهم النَّفسِيَةِ مِنْ حبِّ الظهور والشهرة والتصدُّرِ في المجالس والافتخارِ بالألقاب والنُّعوث والتَّحْليات؛ وإنما يجب عليهم السعيَ في العمل الذي يُكْسِبهم رِضَى الله تعالى، مع القيام بمسؤولياتهم كاملة في التعليم والإرشاد والتبليغ، وهدايةِ الحيَارَى إلى طريق الهداية والحقِّ، ولو بِبذلِ التضحيات والصبر على المكاره، وأنْ لا يتوانوا في نشرِ العِلم والدِّفاع عن حرمة الشريعة الغراء، يَنفون عنها تحريفَ الغالِّين وانتحالَ المُبْطِلين وتأويلَ الجاهِلين؛ وأنْ لا يكونوا ممن يتلونون في الحقِّ والمبدإ حسب ما يقتضيه الوقتُ والمصلحةُ.

وحقيقٌ لهذه الترجمة أنْ تكونَ كذلك.. فَهي لِعَلَمٍ شامخٍ مِنْ أهلِ الاجتهاد والتحقيق العلميِّ، وطودٍ عالٍ في المعرفةِ والعِلمِ والولايةِ، والأخلاقِ المحمدية.

نجمٌ مِنْ علماء السلف سطع نورُهُ في سماءِ الخَلَف، تُشبه أخبارُه وأحواله العلمية والعرفانية وأخلاقه السنية، ما نقرأه في كُتب تراجم علماء السلف الصالح وأخبارهم وأحوالهم.

لقد ضمَّت هذه الترجمة مع رصدِ سنواتِ الأحداث في حياة المترجَم، ورحلتِه لِطلب العلمِ، وثناء أهلِ العِلم -ومنهم شيوخه- على مؤلَّفاتِه وأبحاثِه، ذِكرَ جَنباتٍ مُشرقةٍ في تاريخٍ فسيحٍ للمترجَم له، حافلٍ بالعطاءِ العِلميِّ المتميِّز والمَبنيِّ على الاجتهاد وعدمِ التسليم لِلأقوال المجردَةِ عن أدلَّتها إلَّا بعد إعمال القواعد العلمية المعتبَرة في كلِّ فنٍّ؛ وهذا هو العِلمُ الذي يَنأَى بِصاحِبه أنْ يَكونَ مجردَ مقلِّدٍ حصَرَ عِلمَه في ترديد صدَى السابقين وأوقفَ حياتَه على تقليدِ آثارهم والسيرِ علَى ما ساروا عليه؛ فَمَبنَى العِلم هو علَى البحث والتحقيق لا علَى النقل والتقليد.

وإنَّ المقامَ لا يسمح بذكر أمثلةٍ مِن اِجتهاداتِه وتحقيقاته العلمية، وتدقيقِه في تنزيل المصطلحات العلمية في محلِّها، مع عدم التقليد لأحدٍ في ذلك، ومخالفتِه لِمن جَنحوا إلى التقليد في آرائهم وأحكامهم التي أطلقوها على جُملةٍ منَ الأحكام الفقهية، أو الأحاديث الشريفة، لكونهم سقطوا فيما يسقط فيه المقلِّدة دائماً مِنْ أخطاء وأوهام، في العَزوِ أو التصحيح والتضعيف تبعاً للسابق ولو كان على خطإٍ، وبهذا يتسلسل الخطأ وينتشر، ولا ينجو منه إلا المجتهد المحقِّق الذي لا يعتمد على أحدٍ إلا على مقدرته وإِتقانِه للفنون العلمية، كما هو حال صاحب الترجمة رحمه الله تعالى.

ومِنْ سَردِ المؤلِّف حفظه الله تعالى في هذه الترجمة لِمؤلفاتِ المترجَم له، ولِنصيبٍ لا بأس به مِن اِختياراتِه الفقهيةِ، وما اِنتقَاه بعنايةٍ مِنْ عددٍ كبيرٍ مِنْ مقالاتِه والفتاوى التي أفتَى بها ولقيتْ صدىً واسعاً في مختلف الأوساط العلمية والثقافية وحتَّى السياسية، محلِّياً وعالمياً، قلتُ: مِن هذا السرد وذلك الانتقاء يَبرز هذا العطاءُ الفكريُّ المتميزُ والضخم، مُجسِّداً للأجيال المعاصرةِ للمترجَم واللاحقة

له، شخصيةً علميةً فذَّةً في اِطِّلاعها الـمَعرفِيِّ الكبير وتحقيقِها العِلميِّ الدقيق، ومشاركتها الفعَّالة في ميادين العلم والفكر والإصلاح وحتى السياسة.

عطاءٌ علميٌّ ذاع شرقاً وغرباً، ساهمَ به المترجَمُ وبتأثيرٍ كبير في ميدان العلوم الإسلامية، وأثرى به الخزانة العلمية للأمَّة، فكان محلَّ عناية العلماء واهتمامهم. فقد اِعتنَى أهلُ العِلم -مِنَ الموافقين والمخالفين له- في مختلف الأمصار، وإلَى يومِنا هذا، بِمؤلَّفاته -كما الشأن في مؤلفاتِ أشقائِه- فأقبلوا عليها بالدراسة والتحقيق يستفيدون منها، ويَمْتحون منها كلٌّ حسبَ مشربِه وبُغيتِه، معارضاً كان أو موافقاً، ومنهم مَنْ يُعيد نشْرَها مِنْ جديدٍ للفائدة التي تحويها، ولكونِ بعضها لم يسبقها تأليفٌ في بابها بِمِثل بيان وتحقيق المترجَم له رحمه الله؛ مِمما يُنبِيءُ على وجود حياة علميةٍ دائمةٍ في هذه المؤلَّفات، لما فيها من تحقيقٍ باهرٍ واِجتهادٍ كبير وثراءٍ بالقواعد العلمية في الحديث والأصول والفقه؛ فليست هي ككثيرٍ مِنَ الكتب التي تُطبع وتُملأ بها رفوف المكاتب ولا تُجنَى منها فائدة.

هذا بالإضافة إلى الأطروحات والأبحاث الجامعية التي أُعِدَّت في مختلف الجامعات المغربية وغيرها عن أخبارِ حياتِه وإنتاجه العلميِّ، مِنْ مؤلَّفاتٍ وفتاوى ومقالات، ومحاضرات، وخُطبٍ وما أكثر عددها.. وعن مراسلاتِه الكثيرة مع العلماء في المشرق والمغرب والتي تضمُّ أجوبةً علميةً عظيمةَ الإفادة في مختلف الفنون العلمية مِن تفسير وحديث وفقه وتاريخ وتصوف.. إلخ.

ومِنْ هنا تبرز الأهمية العظيمة لِكُتب التراجم وأخبار العلماء والصالحين، إذْ مِنْ مزايا الاطلاع عليها إبراز المكانة العلمية المستحقة لِكلِّ عالمٍ مترجَمٍ له، فيُنزَل المنزلَ الذي يستحقُّه، فلا يُقَصَّر بالعالي في الجلالة والمعرفة والاطلاع عن منزلتِه ودرجتِه، ولا يُرفع غيره ممن يكتفي بالتقليد والنقل إلى مصافِّ المجتهدين والمحقِّقين، إلى غير هذا من المزايا والفوائد التي تختص بها، والمبيَّنة في محلِّها كما سيأتي.

هذا وقد دأبَ أهلُ العِلم والفضلِ -قديماً وحديثاً- علَى التأليف في ذِكر أخبارِهم وتَراجِمِهم، يُدوِّنون فيها ما أفاض الله تعالى عليهم مِنْ آلاءٍ ومِننٍ ويَذكرون ما فتحَ به عليهم مِنْ علومٍ ومواهبَ، شكراً للهِ تعالى المنعِمِ عليهم بِما فَتح ووهَب وأفاضَ؛ وكما وردَ في الحديثِ الشريف، قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «التَّحدثُ بِالنِّعمِ شكرٌ».

فقد كان أهلُ العلمِ يُدوِّنون أخبارهم وأحوالهم إمَّا في كتبٍ مفردةٍ لهم؛ أو يضمِّنونها ضِمن مؤلفاتٍ لهم في التاريخ، أو في طبقاتِ العلماء.

فَمِمَّن جمَعَ أخبارَهُ في كتابٍ مفردٍ: الإمامُ أبُو الفتحِ المِزِّي، المتوفَّى 906هـ، وهو مِنْ شيوخِ الشمسِ اِبْنِ طُولُون، وبَعْده تلميذُه: الشمسُ اِبنُ طُولُون الصَّالحي الدِّمشقيُّ المتوفَّى 953 هـ، وسمَّى كِتابه: "الفُلْك المَشحون في أحوالِ اِبنِ طُولُون"، وهو مفيدٌ في هذا البابِ.

كذلك جمَعَ العارفُ بالله جدِّي أَبُو العباسِ أحمدُ بنُ عَجِيبة رضي الله عنه ــ توفيَّ 1224هـ ــ فهرسةً في أحوالِه وأخبارِه، مِنَ النشأةِ إلى قُبيل الوفاةِ بسنَتين؛ وفيها فوائد وهي مطبوعة، وقد طُبعت مِن قَبلُ مترجمةً بالفرنسية.

وترجمَ لنفسه أيضاً شيخُنا الإمام، العلَّامة المحدِّث، الأصولي المحقِّق، عمِّي السيد عبدُ الله بنُ الصدِّيق، المتوفَّى سنة 1413هـ، وسمَّى ترجمتَه "سبيل التَّوفيق في ترجمة عبدِ الله بنِ الصدِّيق"؛ ووالِدِي وشيخي العلَّامة المحدِّث الناقد المُفيد السيد عبد العزيز بن الصدِّيق المتوفَّى 1418هـ، رحمهما الله تعالى، وسمَّى ترجمتَه: "تعريف المُؤتَسِي بأحوالِ نَفسِي"، وسيُصدر قريباً؛ وقد ضمَّنه ترجمةَ والدِه القطب الشهير العارفِ بالله سيدي محمدِ بنِ الصدِّيق رضي الله عنه، المتوفى 1354هـ، وترجمةَ والدتِه، وبعضِ شيوخِه، وفي مقدِّمتِهم شقيقه الأكبر حافظ العصر السيد أحمد بن الصديق المتوفَّى 1380هـ، وغيرهم.

وأمَّا مَنْ دوَّنَ أخباره ضِمن مُـؤَلَّـفِه في التراجم فجمعٌ لا يحصَى، قال اِبنُ طُولُون في مقدمة كتابه "الفُلك المشحون": "ثم إنَّ الترجمةَ تارةً يُـفـردها صاحِبُها بِمؤلَّفٍ، كما فعل شيخُنا أَبُو الفتحِ المِزِّي وتبعتُه هُنا. وتارةً يُـفردها غيرُه له وهو أحسن، كما فعل الحافظُ شمسُ الدِّينِ السخاوي في مؤلَّـفِه: "الجواهر والدُّرر في ترجمة شيخِ مشايِخ الإسلام اِبْنِ حَجَر". وتبِعه شيخُنا المؤرِّخُ مُحْيِ الدِّينِ النعيمِي في إفراده لترجمة شيخِه وشيخِنا المحدِّثُ بُرهانُ الدِّينِ النَّاجِي.

وتارةً لا تُـفرَد بل تكون في ضِمن مؤلَّفٍ لِصاحِبِها، كما فعل شيخُنا العلَّامة جَلالُ الدِّينِ السيوطي في ذِكْرِهِ لِنفسه في "طبقات النُّحاةِ الوُسْطَى" له، وقال فيها: «وقد أردتُ أَنْ يكونَ لِاسْمِي ذِكْرٌ في هذا الكتاب تَبَـركاً واِقـتداءً بِصنيعِ السَّلفِ مِمَّن ذَكَر اِسْمَه في تآليفِه مِنَ التاريخ، كالإمامِ عبدِ الغافِرِ في "السِّياق"، وياقُوت الحَموي في "مُعجم الأدباء"؛ واِبنِ الخَطِيبِ في "تاريخ غرناطة"، والتَّقِيِّ الفاسِيِّ في "تاريخ مكة" وأَطالَا في ترجمتهما جدًّا، واِبنِ حَجَر في "قُضاة مِصر"، وجماعة لا يُحْصون.

ثم منهم مَنْ ذَكَر اِسمَه في حَـرفِه كالفاسِيِّ واِبنِ حَجَر، وقد تبِعتُهما في ذلك. ومِنهم مَنْ يذكره في آخرِ الكتاب، ووقعَتْ في ذلك مناسبةٌ لطيفةٌ لِياقُوت لأَنَّ اِسمَه في حَرفِ الياء.. اهـ».

قال اِبنُ طُولون: وهذه المناسبةُ اِتَّفقت أيضاً لشيخِنا المحدِّثِ جَمالِ الدِّينِ يُوسفَ بنِ عبدِ الهادِي، حيث ذكر نفسَه في طبقات الحنابلة المُدْرَجةِ في مناقب الإمام أحمدَ بنِ حنبل مِنْ تأليفه، وأطال في ترجمته وسمعْتُها مِنْ لفظه، وذَكَر لي حينئِذٍ ما ذَكَره الحافظُ أَبُو عبدِ اللهِ البُخاري في صحيحه، قال ربيعَة: لا يَنبغي لأَحدٍ عنده شيءٌ مِنَ العِلم أَنْ يُضَيِّعَ نفسَه.." اهـ.

وقد ذكر الحافظُ جلالُ الدِّين السيوطي -المتوفى 911هـ- رحمه الله أخباره في كـتابه "حُسن الـمُحاضَرة في أخبارِ مِصرَ والقاهرة"، قال رحمه الله (1/155-161): «وإنما ذكرتُ ترجمتي في هذا الكتاب اِقتداءً بِالمحدِّثين قَبلي، فقلَّ أنْ أَلَّفَ أحدٌ منهم تاريخاً إِلَّا وذكر ترجمتَه في هذا الكتاب..»، ثم ذكر مع أخباره مَسرداً لِمصنَّفاتِه مرتبةً حسب الفنون والعلوم.

وقد سلك هذا المسلَكَ شقيق المترجَم الأكبرُ، الحافظُ أحمدُ بنُ الصدِّيق، حيث أَلَّف في ترجمةِ والدِه الإمامِ القطبِ العارفِ بالله سيدي محمدِ بنِ الصدِّيق رضي الله عنه مصنَّفاً ضخماً حافلاً سمَّاه: "سُبحة العَقِيق بِذِكر مناقب الشيخ سيدي محمد بنِ الصِّديق"، وهو مخطوطٌ بالخزانة العامة بالرباط، جمع فيه مع ترجمة والده ترجمةَ والدته رضي الله عنهما، وترجمةَ بعضِ أجدادِه، وشيوخِ والده وترجمة شيخه الذي تلقَّى عنه الطريقة الشاذلية ولقَّنه وِردَها مع ذِكر أخبار شيوخ شيخه في الطريق؛ وضمَّ مع هذه التراجم ترجمةً لِنفسِه ولشقيقِه العلَّامة المحدِّث سيدي عبد الله رحمهما الله. وقد اِختصره مقتصراً على ترجمة والده وأخبار بعض شيوخه في "التَّصور والتَّصديق بأخبار الشيخ سيدي محمد بنِ الصدِّيق"، وهو مطبوعٌ ومتداولٌ.

كما أفرد أيضاً ترجمةً لجدِّه الإمام الـمُتقن لِعلم القِراءات، أعجوبة عصره في العلم والمعرفة وهداية الخلق، العارف الكبير، القطب الشهير، الحاج أحمد بن عبد المومن، المتوفى سنة 1262هـ، سمَّاها "المؤذن بأخبار ومناقب سيدي الحاج أحمد بن عبد المؤمن"؛ وهي مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط.

كما ترجم لنفسه رحمه الله تعالى في فهرسته "البحر العميق في فهرسة اِبن الصدِّيق"، وقد طُبعت في مجلدين. وفي "العقد الفاخر فيما لأحمد بن الصديق من المفاخر"، وهو مخطوط.

وله في التراجم مؤلفاتٌ أخرى قيِّمةٌ في بابها ككتابه: "الاستِئْناس بتراجم فضلاء فاس"، و"مَجمَع فضلاء البشر مِن أهلِ القرن الثالث عشر"، وهما ما أعملُ على إخراجهما لِعالَـم الـمطبوعات قريباً.

ومِنْ هنا نلحظ مدَى إسهام أعلام الأسرة الصديقيَّة المذكورين آنفاً في هذا النوع مِنَ التأليف، سواء في إفرادهم لأخبارهم وأحوالهم تراجمَ مفردَة، أو لغيرهم في كتبٍ مفردةٍ أو ضمن تراجم طبقات العلماء والفضلاء والصلحاء لهم.

ولا يخفَى علَى ذي نباهةٍ وعِلمٍ ما في هذا النوع من التأليف مِن فوائد تعود على قارئها ومتتبِّعها وعارفها بالخير العميم، إذ تدفعه إلى الاقتداء بِسِير الصالحين وأهلِ العِلم والفضلِ، فيستعين بقراءة تراجمهم وأخبارهم على السير على منوالهم واِقتفاء آثارهم، وتزيده اِجتهاداً وإقبالاً على العلمِ، ويجد فيها ما يُرشده في حلِّ مشكلاتٍ كانت مُثبِّطةً له عن طلبِ العلمِ، أو تدلُّه على ما يحصل به التمكن مِنْ فنٍّ مِنَ الفنون العلمية.. كما ستَجدُ مثالَه في هذه الترجمة.

لهذا لم يغفل السابقون عن ذِكر ما لكتب هذا الفنِّ مِنْ فوائد كثيرة لا غنىً عنها للعالمِ ولطالب العلمِ، بيَّنوها في مقدِّمات مصنفاتهم في التراجم، أو زيَّنوا بها تراجم الأعلام المترجَم لهم فيها. وقد أفاض مولاي الوالد رحمه الله تعالى في ذِكرها بِتوسُّعٍ في ترجمته "تعريف المؤتسي بأحوال نفسي". فالاعتناء بتراجم العلماء والاطلاع على أخبارهم خير معينٍ في الاقتداء بهم والاستفادة من تجاربهم، قال مولاي الوالد قدَّس الله سره في مقدِّمة "تعريف المؤتسي" بعد ذِكره لبعض فوائد قراءة تراجم العلماء والأولياء: «..**إنما أشرتُ لهذا لِيعلمَ الطالبُ أَنَّ قراءتَه لِترجمةِ عالمٍ أو وليٍّ ليس الغرضُ منها معرفةَ خَبرِهِ والاطِّلاعَ على حالِه فحسبُ، بل الغرض الأكبر مِنْ ذلك هو الاقتداء به والاهتداء بِهديه واِتِّباعُ طريقتِه والعملُ على التَّخلقِ بما كان عليه مِنْ جميل الأخلاق وحسنِ الأفعال. وهكذا الحال في قراءة تراجم فَسَقةِ العلماء وجبابرة الملوك والأمراء، فإنَّ الغرضَ منها أنْ يَحذرَ مِنَ الوقوعِ في**

مثل تلك الأفعال الخبيثةِ التي أوجبَتْ لهم قبيحَ الأحدوثةِ وتعرَّضتْ لهم أقلامُ المؤرخين بِسببها بالتنقيص والوقيعة..».

وقد ذكر العلَّامة أبو الحسن عليُّ اليُوسِي في كتابه "المحاضَرات" مِنْ أمثلة الاعتناء بتراجم العلماء والصالحين وأخبارهم ما كان مِنْ دأبِ الشيخ أَبِي عبدِ الله سيِّدِي مُحمد العَربي بنِ أَبِي المَحاسِنِ سيدي يُوسفَ الفاسي أَنَّه كان متى لقِيَ إنساناً يَسألُه مِنْ أَيِّ بلدٍ هو ؟ فإذا أخبره قال: مَنْ عندكم مِنْ أهل العِلم ؟ مَنْ عِندكم مِنْ أهلِ الصَّلاح ومِنَ الأعيان ؟ فإذا أخبره بشيءٍ مِنْ ذلكَ كلِّه سجَّلَه. قال اليُوسِي: «وهذا الاعتناء بالأخبار والوقائع والمساند ضعيفٌ جدًّا في المغاربة، فغلَبَ عليهم في باب العلم الاعتِناءُ بالدِّراية دون الرِّواية، وفِيما سِوَى ذلك لا هِمَّةَ لهم به. وكان أَبُو عبدِ الله المذكور يَذْكر في كتابه "مِرْآة المَحاسِن" أَنَّه كَمْ في المغرب مِنْ فاضِلٍ قد ضاع مِنْ قِلَّةِ اِعتنائهم؛ وهو كذلك..».

قال والدي رحمه الله مذيِّلاً كلامَ اليوسي: «والأمرُ كما قال. فإِنَّ المغاربةَ أضاعوا بعدم اِهتمامهم بتقييد أخبار الرجال فوائدَ جمَّة وعلوماً كثيرةً، وكم مِنْ إمامٍ يُرْحل إليه لا تَجِدُ له في كتب التراجم خبراً يُذكر، وإذا وجدتَه فإنما تجد إشاراتٍ لا تليق بمكانه ولا تُناسِبُ ما كان عليه في وقتِه وزمان حياتِه مِنَ الشهرة في العِلم والدِّين والسُّمعةِ العظيمةِ في الولاية والمعرفة. وهذا القُطب الأكبر والإمامُ الذي ذاع صِيتُه واِنتشر، مولانا عبدُ السلامِ بنُ مَشِيش رضي الله عنه وعَنَى به ونفعنا ببركاته وأعاد علينا فَيْضَ أنفاسِه، لا تَجِدُ له ترجمةً مفصَّلَةً مناسبةً لِمقامه في كتابٍ مِنْ كُتب التراجم. والسبب في ذلك هو إِهمالُ المغاربة وعدمُ اِعتنائهم بهذا العِلم، ولو كان مولانا عبدُ السلام رضي الله عنه في الشَّرقِ لرأيتَ في أحواله وأخباره المجلَّداتِ، كما هي عادتُهم مع أمثاله، بل يَفعلون ذلك مع مَنْ لَمْ يَبلغ عُشْرَ مَقام اِبنِ مَشِيشٍ رضي الله عنه..».

ولهذا كان عدمُ تَقيِيد أهلِ العلمِ لأخبارهم وأحوالهم سبباً في ضياع عِلمٍ كثيرٍ وفوائد لا يمكن اِستدراكها بسهولةٍ، حيثُ أَنَّ الذين جاؤوا بعدهم لم يستطيعوا أنْ يجمعوا عُشُرَ ما كانوا عليه مِنْ علوِّ المكانة وسُموِّ المنزلة في العِلمِ والدِّين، وكم مِنْ عَلَمٍ تجد اِسمَه على صفحات الكتب ولا ترجمة له تُعرِّف حاله، ولو بكلماتٍ تَكشف لنا جهالته، وينال بها منا مرتبتَه التي يستحق بين أقرانه، ومنزلته التي يجب له بدونِ تهويل في التفخيم ولا إجحافٍ وتقصيرٍ في تقديره، فعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «**أمَرَنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم أنْ نُنْزِلَ الناسَ مَنازلَهم**».

وهذا الكتاب الذي بين يديك أخي القارىء، والذي ترجمَ فيه المؤلفُ لشيخه، اِستاق جُلَّ مواضِيعه مِنْ ترجمة الوالدِ لِنفسه في "تعريف المؤتسي بأحوال نفسي"، حيث كان مولايَ الوالد رحمه الله تعالى يُملِي منه على المؤلِّف للإجابة عن أسئلتِه التي كان يطرحها عليه حين تصنيفِه لهذه الترجمةً. بالإضافة إلى ما اِستفاده المؤلف بحكم المخالطة والمصاحبة له رحمه الله في الحضَرِ والسفرِ.

وبما أنَّ أوانَ الفراغ مِنْ هذه الترجمة تَلَته أمورٌ وأحداثٌ كثيرةٌ عرفتْها الأمةُ الإسلاميّةُ كانَ السيِّدُ الوالدُ رحمه الله تعالى قد قام فيها بإدلاء رأيه وتبيين حكم الشريعة فيها، فقد اِستدرك المؤلِّف ذِكرَ أهمِّ الأحداث في مُلحقٍ بآخرِ الكِتاب، أرَّخ فيه لِبعضِ هذه الأحداثِ ومواقف المترجَم منها، كحرب الخليجِ والفتوَى الصادرة مِنْ بعض العلماء في السعودية ومصر وغيرهما، والتي تُجيزُ الاستعانةَ بجيوش الكفار. وتطرَّق في ملحقه أيضاً لبعض مقالاته، ولِلردِّ العِلميِّ الشهير الذي أفحمَ به المترجَمُ له وزيرَ الأوقاف المغربي الدكتور عبد الكبير العلوي، في موضوع حديث: «**السُّلطان ظِلُّ اللهِ في الأرضِ**»، الذي اِستشهد به الوزير وبنَى عليه موضوعَ درسِه الرمضانيِّ؛ والحديث موضوعٌ لا يجوزُ ذِكره إلا مع بيان حالِه كما هو مقررٌ. وقد اِكتفى المؤلف حفظه الله بذكر هذا التعقيب فقط علَى الوزير لِشهرته واِنتشاره

في مختلف الأوساط العلمية والسياسية، وطنياً ودولياً، إلَّا أنَّ هناك تعقيباتٍ وردوداً أخرى ردَّ بها مولاي الوالد رحمه الله تعالى على وزير الأوقاف المذكور في أخطاء علمية وفقهية صدرَتْ عن هذا الأخير في دروسه الرمضانية التي تُلقى في حضرةِ الملِكِ، سنعملُ على إخراجها مع مقالاته لِتعمَّ بها الفائدة.

غير أنَّه مما لم يُذكر في هذه الترجمة مِنْ أخبار المترجَمِ له هو عملُه السياسي والوطني، ومشاركتُه بعد اِستقلال المغرب في العمل الحزبي، وخدمة مصالح المحتاجين والمعوزين مِنْ أبناء مدينتِه، بعد نجاحه الساحق في الانتخابات البلدية الأولى. فَعدمُ ذِكر هذا الجانب مِنْ حياة المترجَمِ له لم يكن سهواً أو إغفالاً مِنَ المؤلِّف، لأنَّه أدرَى بما للمترجَم له مِنْ حميدِ المآثر في هذا الجانب، وإنما تأسَّى به، إذْ هو نفسه رحمه الله لم يَذكر في كتابه "تعريف المؤتسي" شيئاً عن جهاده ضد الاستعمار الأجنبيِّ لبلده المغرب، لأنه مؤمن أنَّ ما قامَ به هو واجبٌ دينيٌّ، يُحتسب ثوابه عند الله تعالى.

فمِمَّا لا يعلمه الكثيرون عن صاحب الترجمة مولاي الوالد رحمه الله تعالى، أنَّه كان يساهم بل يُباشر مباشرةً فعليةً مع شقيقه الأكبر السيد أحمد بن الصديق في جُلِّ الحركاتِ الجهادية والنِّضالية التي كانت تقوم بها الزاوية الصدِّيقية ضد الاستعمار الفرنسي والإسباني. فلقد كان هو المنظِّم لِلمسيرات الشعبية التي تعبِّئها وتُؤطرها الزاوية الصديقية في طنجة مِنْ أجلِ الاستنكار والتنديد بسياسة المستعمر الوحشية التي يُعَاملُ بِها أبناء بلدِه؛ كالمسيرة التي كانت عقبَ أحداث الدار البيضاء الأليمة سنة 1947، وأخرى إثر نفيِ المستعمِر للملك محمد الخامس رحمه الله. فكان صاحبُ الترجمة رحمه الله يخرج مع المريدين والمشاركين مِنْ أبناء المدينة ومِنَ المناطق المجاورة في مسيرة حاشدةٍ، يُهَيِّأ هُوَ لها مِن قبل مع بعض الوجهاء وأهل العِلمِ مِنَ مريدي الزاوية. وكانت كلُّ مسيرةٍ تنطلق دائماً مِنْ باب الزاوية الصدِّيقية وتنتهي عندها، فيُلقي رحمه الله تعالى في الحشود خطبةً تُبيِّن للمشاركين ولِعامَّة

الناس الواجبَ الشرعيَّ عليهم والمتمثل في القيام بالجهاد والنضال والكفاحِ لِدحر المستعمِرِ وردِّ كفره وشرِّه عن البلاد والعباد، ثم يتوجه مع أعضاءٍ من المسيرة الحاشدة لتسليم خطابِ التنديد والاستنكار للقائم بأعمال المستعمِرِ ولِسلطات المخزن..

وأخبرني رحمه الله تعالى عن مباشرتِه مع شقيقِه الأكبرِ السيّد أحمد في تنظيم الحركة المسلَّحة التي قام بها الأخير ضدَّ الاحتلال. فأخبرني عن نفسه أنَّه سهَّل لشقيقه كثيراً مِنَ (الأمور) تتعلق بسير الحركة. ولَمَّا وقع بعضُ المسلَّحِين في قبضة المستعمِر وأُخِذَ بالقوة دلَّهم على صاحب الحركة وهو السيد أحمد بن الصديق. فأخبرني الوالد رحمه الله أنه عندئذ أراد المخزن تفتيشَ منزلِهم لأجل العثور على دليلٍ قويٍّ يُدينون به شقيقَه، فقام بنفسه وبمعيَّةِ بعضِهم ليلاً وأخفوْا بعض قطع السلاح المتبقيَّةِ مِنَ السلاح الذي اِشتراه السيد أحمد للمجاهدين بإحكامٍ داخل البيت، وفي مكانٍ آخر، فلم يستطع رجال المخزن الذين أتوا صباحاً أنْ يعثروا على شيءٍ، وذلك بفضل الطريقة الذكية التي خُبِّئَ بها السلاح.

وقد أشار رحمه الله تعالى إلى قصة اِعتقال شقيقِه الأكبر بتفصيلٍ في "تعريف المؤتسي". وقُبيل اِستقلال المغرب، وفي فجره، عانى المترجَم له مِنْ جبروت وطغيان بعض الطِّغام مِنْ أتباع الحزب السائد والوحيد أنذاك، فهدِّد بالتصفية مراراً، ولكن الله تعالى لطَفَ وسلَّم. كما نالت سهامُ إذايتهم الخبيثة مِنْ شقيقه الأكبر السيد أحمد بن الصديق وبعض أفراد أسرته، عندما لم يستطيعوا الوصول إليهم لتصفيتهم، على غرار كثيرٍ من الشرفاء مِنْ أبناء المغرب الذين قُتلوا ظلماً وعدواناً على يدِ هؤلاء الحِزبيِّين الآثمين. وما ربك بغافلٍ عما يعمل الظالمون.

وبعد اِستقلال المغرب، وبَدْء بناء مغربٍ جديدٍ، أُجْرِيَت أوَّلُ انتخابات بلديةٍ عرفتها البلاد، فشارك صاحبُ الترجمة رحمه الله، وهو العالمُ المحدِّث الكبير، في أوَّلِ اِنتخاباتٍ بلديةٍ عرفتها البلاد، وكانت مشاركتُه تحت مِظلة حزب الاتحاد

الوطني للقوات الشعبية، بمعيَّة ثلَّةٍ مِنْ خِيرة أبناء المدينة ووجهائها المناضلين في سبيل تحقيق الإصلاح، ففاز فيها فوزاً ساحقاً.

وفي هذا الجانب أيضاً، قدَّم صاحبُ الترجمة رحمه الله مثالاً آخر مشرِّفاً للمسؤولين والمنتخَبين، لما ينبغي أنْ يكون عليه المسؤول الذي اِختاره المواطنون للدفاع عن مصالحهم وحوائجهم مِنَ الوفاء والنزاهة والإخلاص والتفاني في أداء الواجب المفروض. إذ تحمَّل رحمه الله هذه المسؤولية بكفاءةٍ كبيرةٍ، فكان لا يكتفي بحضور الاجتماعات وإدلاء الرأي والمشورة في عمله في المجلس البلدي، بل كان رحمه الله تعالى يخرج بنفسه لمراقبة سَير الأوضاع في المرافق العامة، في مستشفَى المدينة الرئيسي مَثلاً، أو في الملجإ الخيري، يعاين جودة الخدمات الصحية والإنسانية المقدَّمةِ لِلمرضَى ولأهل الملجإ، فيَدخل بنفسه للمطبخ وللغرف ويقف على التجاوزات والانتهاكات، ويصلحها، ولا يغضُّ الطرفَ أبداً عن مصلحةِ ضعيفٍ حتى تُقضى.. فكان رحمه الله تعالى يجعل عملَه في هذا الجانب عبادةً يتقرب بها إلى الله تعالى.. ومع ذلك، لم يكن هذا الجانب من حياته عائقاً عن اِستمرار نشاطه العلمي في الكتابة والتأليف والخطابة..

وأيضاً كان له دور يقوم به كغيره من المنخرطين داخل الحزب، فلم يكتفِ بالحضور في الاجتماعات فقط، بل كان يساهم بإلقاء محاضراتٍ علمية في مقرِّ الحزبِ، حسبَ المناسبات والمواسم... وبعد سنواتٍ من العمل السياسي الحزبي المنظَّم، آثرَ الاعتزالَ لأسبابٍ خاصةٍ. ولكنه حافظ على علاقةِ الودِّ والصداقة المتينة والاحترام والتقدير التي بادله بها أصحابه ومحبُّوه داخل الحزبِ في مدينة طنجة وغيرها، فكان يجلس إليهم ويتابع من خلالهم أوضاعَ السياسة في البلاد وخارجها، كما أنهم لم يتوقفوا أبداً عن زيارته في المنزل، في الأعياد والمناسبات وغيرها، فيكون معهم في البيت وهو يدلي برأيه في قضية سياسية، وطنية أو دولية، كأنه سياسيٌّ محنَّكٌ مزاولٌ لأمور السياسة، وذلك لدقَّةِ التحليل الذي يقدِّمه للزائرين

في القضية المطروحة للنقاش.

وله رحمه الله تعالى مقالاتٍ سياسيةٍ إصلاحيةٍ فريدة، اِنتقد فيها مسؤولين سياسيين اِنتقاداتٍ لا يقدِّمها إلا السياسيُّ الخبير، لقيت هذه المقالات رواجاً في مختلف الأوساط السياسية والثقافية، وقد جُمع بعضها في كتاب "الطغيان.. على العالم الإسلامي".

كلُّ هذه الجوانب المشرقة في حياة صاحب الترجمة كانت متوازنة، فلم يطغ جانب منها على آخر.. فهو العالمُ المحدِّث المتمكِّن، وهو المؤرخُ بما كتب في التاريخ، وهو المناضل والمجاهدُ بِخُطَبِه ومقالاته وأعماله، والسياسيُّ، والقائم في الدعوة إلى الله، والخطيب، والشيخ المدرسُ... إضافة إلى ذلك فهو الصوفيُّ الزاهد الذَّاكر المربِّي.. مجلسُه مع المريدين وأهل التصوف في الزاوية أو في المنزل يُنبئك عن عالمٍ فرَّغ نفسَه للتصوف وعِلمهِ وتراجم رجالِه وأهله، إذْ كان بحراً في التصوف بِشِقَّيه، تصوف الإرشاد والعمل والسلوك، وتصوف العِلم بالله وأهل الفناء في وحدة الوجود. له مؤلفاتٌ عظيمة في التصوف والكلام عن دقائق إشارات القوم وشرح اِصطلاحاتهم، وتفسير وحدة الوجود، تخبرك عن علوِّ كعبه في هذا العلم وأنه لا يُتقن غيره. وانبرى في بعضها للدفاع عن التصوف وأهله والردِّ على المنكرين الذين طمسَ الله بصيرتهم وأعمَى قلوبهم عن الاعتراف بالطريق وسلوك سبيلها المؤيَّد بالكتاب والسنة بغياً مِنْ عند أنفسهم وكِبراً في صدورهم، وميلاً للمصلحة الدنيوية.

كما ردَّ عن حياض التصوف الطاهرة ما يلصقه به بعضُ مَنْ يدعي التصوفَ جهلاً، مما يفتح باب الانتقاد مِنَ المنكرين على الطريق، وأغلب هؤلاء مِنَ المدَّعين، والمتاجرين المترزِّقين بالطريق، الذين يحبون الظهور والاشتهار.. بل لصفاقتهم جعلوا حفلاتِ المجونِ تصوفاً !!! والأمر لله. فلا أبغض لصاحب الترجمة مِنَ المدَّعين المتاجرين بالدِّين، والتصوف هو مِنَ الدين الإسلامي كما هو معلومٌ. وله رحمه الله كلام نفيس في هذا الباب.

لِمولاي الوالد رحمه الله أبياتٌ شعريةٌ في مدح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأخرى في المناجاة والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى، وهي ليست بأسلوبِ الشعراء المفْلِقين وإنما شعرٌ بأسلوب العلماء، وله أبيات شعرية أخرى كان يراسل بها شيخه وشقيقه الأكبر السيد أحمد بن الصديق رضي الله تعالى عنهما. وأختم بهذه الأبيات له في مدح الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام والتوسل به؛ قال رحمه الله:

يَا سَيِّدَ الأبْرَارِ أنْتَ شَفِيعُنا
وَإلَيْكَ يَأْوِي المُوجَعُ الحَيْرانُ

دَارِكْ بِبِرٍّ مِنْكَ مَنْ لا يَرْتَجِي
بَشَراً سِوَاكَ إذا جَفَا الخِلاَّنُ

يا خاتِمَ الرُّسلِ الكِرامِ وصاحِبَ
الآيِ العِظامِ ومَنْ لهُ البُرهانُ

يا خَيرَ مَنْ وطِىءَ الثَّرَى وأجَلّ مَنْ
فَاضَتْ له بالْمَكْرُماتِ بَنانُ

صلَّى عَلَيْكَ اللهُ مَا هَطَلَ الْحَيَا
وَسَرَى النسيمُ ومالَتِ الأغْصانُ

حياةٌ حافلةٌ بالعطاء وخدمة الدين الإسلامي، والحنوِّ على خلقِ الله بما وهبه الله تعالى من قلبٍ حنونٍ عطوفٍ، يَبذل الإحسان بذلاً، فمَنْ أتَى بابه نال ما قصد، حتى اِشتهر أمرُه بالكرم والإحسان. يحجُّ بيتَه كل يومٍ العددُ الكثير مِنَ الزوار، رجالا ونساءً، شباباً وشيوخاً، منهم المستفتي، ومنهم الباحث الذي يبحث عن المعرفة ليتزود بها، ومنهم صاحب الحاجة من الضعفاء الذي يطلب المساعدة لِقضاء مآربه ومآرب أسرته، ومنهم.. ومنهم..

أصيبَ رحمه الله تعالى بمرضٍ لازَمه سنةً ونيِّف، أقعده عن الحركة وجمَّد نشاطه. وإستصحب المرضَ في أيامه الأخيرة داءُ البطن، فتوفيَ رحمه الله مصاباً

به. وقد بشَّر مولانا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم المبطونَ بمقامِ الشهادةِ. فشاء الله تعالى أَنْ يكرمه بهذا المقام رفعاً لدرجتِه ومقامه.

وقد لبَّى نداء ربِّه رحمه الله قُبيل عصر يوم الجمعة السادس مِن شهر رجب 1418هـ، -7 نونبر 1997م- وما إنْ ذاع الخبر حتى قصد منزلَه المريدون والمحبون وتلامذتُه لِوداعِه الوداعَ الأخير. وقد صلِّيَ عليه بعد ظهر اليوم التالي في المسجد الأعظم في حشدٍ كبيرٍ أتى مِنْ مختلف المدن المغربية. فلم تشهد مدينة طنجة جنازةً كبيرة مهيبةً مثلها، اللهم ما أُخْبِرنا به وما قرأناه عن جنازة والده الإمام القطب سيدي محمد بن الصديق رضي الله عنه في ترجمتِه. فقد شُوهِد التأثير والبكاء على المشيِّعين، ورأيتُ بعضَ الأجانب مِنَ النصارى والرهبان والراهبات الذين كانوا بالكنيسة المتواجدة قرب المسجد الأعظم أو في الطريق، أثناء مرور موكب الجنازة في ذهولٍ وبكاءٍ، ووجوم. وصدَى ذِكرُ الله تعالى الخارج مِنْ أفواه المشيعين يَفْتق صمتَ الفضاء ويملأ الآذان، ويُرغم الواقف والـمُطِلَّ والمراقبَ أنْ يشارك المشيعين في ذكر الله تعالى بهيبةٍ وحضورٍ. فلا تسمع صوتاً يعلو على صدى: لا إله إلا الله المتردِّد من حناجر المشيِّعين. وشُيِّع جثمانُه الطاهر لِيُدفن بجوار والديه رضوان الله تعالى عليهم جميعاً. وصلِّي عليه صلاة الغائب في كثيرٍ مِنَ البلاد العربية والإسلامية. فجزاه الله تعالى عن الإسلام والمسلمين خيراً وأثابه عما قدَّمه مِنْ خدمةٍ للعلم الشريف الثواب الأوفى.

وختاماً، أسأل الله العليَّ العظيمَ أنْ ينفع بهذه الترجمة قارئها، وأَنْ تكونَ كما أرادها المؤلفُ تذكرةً بشيخِه للعلماء الربانيين، وسبيلاً واضحاً للمقتفي مِنْ طلبة العلم والهداية والخير والإحسان. وأنْ يجزيَ عنِّي والديَّ خير الجزاء، ويثيبَ المؤلفَ على هذا الجهد العلميِّ الجليلِ، ومَنْ سعَى في نشرِه؛ ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ، رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

وكتبه: د. عبد المنعم بن عبد العزيز بن الصديق.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين المُنعِمِ بقوله سبحانه وتعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾، وقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾، وقولِه تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقولِه سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، وقولِه تَعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ﴾، وقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾.

والصلاةُ والسلامُ على قدوتِنا سيِّدِنا محمدٍ خاتمِ النبيئين وإمامِ المرسلِينَ، وعلى آله وصحبه أجمعين، وكلِّ مَنْ دَعا بدعوة الإسلام الشاملة المتكاملة إلى يومِ الدِّينِ؛ المُبَيِّنِ والمُخْبِرِ عن الله تعالى بِقولِه صلَّى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَيُلْهِمْهُ رُشدَهُ»، وقولِه صلى الله عليه وآله وسلم: «اَلْعُلماءُ وَرَثَةُ الأنبياءِ، إِنَّ الأَنبياءَ لَمْ يُورِثوا ديناراً ولا درهماً، وإنَّما وَرَّثُوا العِلمَ، فَمَنْ أَخَذه أَخَذَ بحظٍّ وافِرٍ»، وقولِه عليه الصلاة والسلام: «صِنْفانِ مِنْ أُمَّتِي إذا صَلَحَا صَلَحَ الناسُ، وإِذَا فَسَدَا فَسَدَ الناسُ: الأُمراءُ والفقهاءُ»، وقولِه عليه الصلاةُ والسلامُ:

«فَضْلُ العالِمِ علَى العابِدِ كَفَضلِي على أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحابِي»، وقولِه صلَّى الله عليه وآله وسلم: «يَحْمِلُ هذَا الدِّينَ مِنْ كلِّ خَلَفٍ عُدُولُه، يَنْفونَ عَنْه تَحريفَ الغَالِّينَ وَانْتِحالَ المُبْطِلِينَ وتأويلَ الجاهِلِينَ». ((رواه الطبراني والبَزَّار، وابنُ عبدِ البَرِّ في "كتاب العِلْم"، وله طُرقٌ كثيرةٌ تقصَّاها صاحِبُ "الرَّوض الباسِم في الذَّبِّ عن سُنَّةِ أَبِي القاسِم")).

تمهيد

إنَّ مِنْ خير ما يُـربِّي ويُـثقِّفُ الخَلَفَ، الـتَّدبرَ والتَّبصُّـر في سلوك ودراسة أحوال السلف الذين كانـوا في عملهم وسلوكهم رضي الله عنهم يَسِيرون في اِنضباطٍ مُحْكَمٍ دقيقٍ، وفَـهْمٍ واسعٍ عميقٍ وِفْق كتاب الله الكريـم وسنَّة نـبيِّـه ورسولِه صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد قضى الله سبحانه وتعالى اللطيفُ الخبيرُ بِسابِقِ عنايته ورحـمتِه بأُمَّةِ سيدِنا محمدٍ صلَّى الله عليه وآله وسلم أَنْ يُـبقِـي دائماً في خَلَفِها علَى مرِّ الدهور وتطوُّرِ العصور مَنْ يَعْمل دائماً ويَعْكِفُ علَى إحياءِ سنَّةِ نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، فَيُجدِّد لها بذلك أَمْرَ دِينِها، ويَجمعُ شَمْلَ وشَتاتَ الطائفةِ المؤمنةِ الملتزمةِ بتَعاليمِ دِينِها، التي تتميز بِبقائِها ظاهرة على الحقِّ إلى قيام الساعة تحقيقاً للحديثِ النبويِّ الشَّريفِ المتواتِرِ الذي يقولُ فيه قُدوتُنا مولانا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«لَا تَزالُ طائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرين علَى الحقِّ حتَّى تَـقُوم السَّاعة»**.

ومِنْ هؤلاء الذين سَبَقتْ عنايةُ الله بِهم في الأزل، واِجْتَباهُم اللَّطيفُ الخبيرُ ويَسَّرهُم لِيكونوا في معرفتِهِم بكتابه الكريم وذَبِّهِم عن سنَّةِ رسولِه الصَّادِقِ الأمين عليه الصلاةُ والسلامُ مَضْرِبَ المَثلِ: فضيلةُ العَلَّامةِ الكبيرِ الحافظِ، المُحدِّثِ

المُحقِّق، المُجتهدِ النَّاقِدِ، التَّقِيِّ المُجاهِدِ، الورِعِ الزاهِدِ، مُحْيِي السُّنةِ، والسَّيف البَتَّار علَى كلِّ بدعةٍ، مُحدِّث المغرب الشيخ سَيِّدي عبدِ العزيزِ بنِ محمدِ بنِ الصِّدِّيق.

إنَّني عندما أُترجمُ بِتواضعٍ لشيخِنا الجليلِ، أَكُونُ قد اِستجبْتُ لِرغبةٍ كثيراً ما أَلَحَّتْ عليَّ، مستهدِفاً مِنْ خلالها خِدمةَ الصَّالِحِ العامِّ، ومبتغِياً مِنْ ورائِها رِضا اللهِ في تَعْرِيفِ جَيْلِنَا بِمكانةِ هذا النَّجمِ مِنْ علماء السَّلف الذي شاء اللهُ أَنْ يُذكِّرَ به عُلماءَ الخَلَفِ، ويَجعله فيهم كوكباً لامعاً مُضيئًا، يُجدِّدُ لهم علومَ الدِّينِ، فَيَهتدي به العلماءُ الذين أَخْلَصوا دِينَهم لله، وتَحرَّرُوا مِنْ عبوديتِهم لِغيرِ الله، صابراً ومحتسِباً كل ما ينتج عن الجهر ببيانِ حُكْمِ الله، والصَّدعِ بإِحياءِ سنَّةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، في وَسَطٍ لم يَعُدْ أغلبُه يَرَى في الإسلام سِوَى الاقتصار علَى النطقِ بالشهادة مع حركاتٍ تقليديةٍ في الصلاة مثلاً، والحجِّ، دون الالتزام والتَّقيد بحقوق شهادة لا إلهَ إلَّا الله محمدٌ رسولُ الله، ودون الانضباط مع ما لِلصلاة وغيرِها مِنْ أبعادٍ.. وثَمراتٍ.. التِي مِنْ أجلِها فَرَضَ اللهُ العبادات لِيَنعكس مفعولُها في أعمالٍ حركيةٍ إيجابيةٍ لِتُغطِّي المجتمَعَ في كلِّ مستوياتِه: الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والتعليمية، وغيرها.

مع أَنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم أَخْبَرنا أَنَّ مُجرَّدَ النُّطقِ بالشهادة دُونَ الالتزام بِحقوقِها وإيثار هذه الحقوق على مَا سِواها، لَا يُنْجي مِنْ سخطِ الله، والعياذ بالله.

فمِنْ ذلك ما رواه البَزَّارُ بسنَدٍ حسَنٍ مِنْ حديث أَنَسِ بنِ مالِكٍ قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تَمْنَعُ مِنْ سَخَطِ اللهِ مَا لَمْ يُؤْثِرُوا صَفْقَةَ دُنْياهُمْ علَى دِينِهِم، فإِذَا فَعَلُوا ذلك ثُمَّ قالُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قالَ اللهُ: كَذَبْتُمْ**». وكَمَا روَى الطبراني في «الأوسط» مِنْ حديثِ عائِشَةَ رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لَا تَزالُ أُمَّةُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ بِخَيْرٍ**

مَا بَالوا ما إِنْتَقَص مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ فِي أَمْرِ دُنْياهُم، فَإِذَا لَمْ يُبالُوا مَا إِنْتقَصَ مِنْ أَمْرِ دِينِهِم فِي فَلَاحِ دُنْياهُم رُدَّتْ عَلَيْهِم، وَقِيلَ لَهُم: لَسْتُمْ بِصادِقِين».

إِنَّ مِنَ الدَّواعي التي حملَتْنِي على الخوض في هذه الترجمة، التعريف بِجَهلِ مَنْ يُنكِرُ فضلَ اللهِ ومِنَّته وعَطاءَه، فيُنكِرُ أَنْ يوجَدَ في هذا العصر مَنْ يتَّصِفُ بِصِفاتِ رجالِ السلف في الجهر بالحقِّ والصَّدعِ بِما أمر الله، وعدمِ ملاحظةِ مصلحةٍ ذاتيةٍ، ورغبةٍ دنيويةٍ، وأَنَّ الأمرَ لا زال كما قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**يَدُ اللهِ سَحَّاء لا تَغِيضُ الليل والنَّهار**».

فكَما مَنَّ الله سبحانه وتعالى على مَنْ سلَفَ بوجود مَنْ يُنيرُ لهم الطريقَ ويَسِيرُ بِهم على المَحجَّةِ البيضاء التي تركهم رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم عليها، والتي لا يزيغ عنها إِلَّا هالِكٌ كما قال عليه الصلاةُ والسلامُ؛ أَقُول: فكما مَنَّ الله على السلف بهؤلاء الكواكبِ الهُداةِ، كذلك مَنَّ سبحانه وتعالى على الخَلَفِ بوجود مَنْ تقوم المَحجَّةُ علَى يديه في التعريف بِدينِ الله خالِصاً مِنْ كلِّ تحريفٍ، وتشويهٍ، ومداهنةٍ.

ومِنَ الدَّواعِي المُلِحَّة كذلك، التي حمَلَتني على هذه الترجمة، هو ما نَصَّ عليه العلماءُ مِنَ الفوائد الجَمَّةِ التي تَزخر بها مجموعة التراجم، والتي مِنْ شأنها أَنْ تَفتحَ البابَ أمام الراغبين للقيام بِما يَجِبُ عليهم مِنَ العمل لأجل دِينِ اللهِ تبارك وتعالى، وذلك بِإِنهاض هِمَمِهم وشحْذِ عزائمهم للخوض في هذا الميدان بدون نظرٍ إلى رغبةٍ دنيويةٍ ولا رهبةٍ مِنْ أَحدٍ، وإِنَّما خدمة للإسلام والمسلمين، تقرباً إلى الله الحليم الكريم، بدون ملاحظة مدْحِ مادحٍ أو لومةِ لائمٍ؛ ثم لِخُلُوِّ المكتبة الإسلامية وفَقْرِها مِنَ الكتب النزيهة القيِّمةِ التي لا تلاحظ ولا تراقب إِلَّا اللهَ في تعريفها بِمثل هذا النوع مِنَ العلماء المخلصين الزاهدين، الذين وَهَبوا حياتهم وكلَّ ما إِستأمنهم اللهُ عليه مِنْ عِلمِهم بكتابه الكريم وسنَّةِ رسولِهِ الأمين صلى الله عليه وآله وسلم، ليوظِّفوا كلَّ ذلك في خدمة الإسلام وبَنِيه، وإنتصاراً للحقِّ وذوِيه.

خاصةً في هذا الزمان الذي وقع فيه شِبهُ اليأس، وضاق الصَّدرُ، وكادت تُسدُّ الأبوابُ في وجهِ الراجين لوجود مَنْ يَخوض معركةَ الحقِّ في هذا البحر اللُّجِّيِّ مِنَ الفساد، والضلال والإلحاد، والغواية والانحراف.

فنكون بحول الله وقُوَّته مِنْ خلال هذا التأليف قد ساهمنا في إزالة هذا اليأس مِنَ النفوس، وفتحنا البابَ بعد أَنْ كاد يَنْسدُّ، وعرَّفْنا الراغبين وذَكَّرناهم بِأَنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لا يُخْلِف وعدَه بِإيجادِ دائماً مَنْ يَحفظ إرثَ منهج علماء السلف الصادقين في تبليغ الدعوة مِنْ غير مُداهنَةٍ ولا مُوَارَاةٍ ولا مُبالاةٍ.

وبِذِكْرِ السبب الذي تَعَرفتُ به على صاحِبِ الترجمة، يَلْمس القارئُ في الجملة ما أخبرتُ به في هذا التمهيد. ذلك أَنَّه كان قد حصل لي اليأسُ مِنْ أئمة المساجد لِصَمتِهِم المُشين عمَّا يعانيه المجتمعُ الإسلاميُّ مِنْ نَكَباتٍ مُتلاحقةٍ، وما يتعرض له مِنْ ضَرَباتٍ متتابعةٍ لِانْسِلاخِه عمَّا يقتضيه الإيمانُ بالله، وما تَلْزمه شهادةُ أَنَّ محمداً رسولُ الله؛ حتى كنتُ هَممْتُ بِتركِ الجمعة، لِأَنَّ كلَّ مسجدٍ قصدتُه صغيراً كان أو كبيراً، وجدتُ خطيبَه ومرشدَه عبارة عن رجلٍ يُبَلِّغ مَا لاَ يوافِقُ دينَ الله في التعريف بِما يجب أَنْ يَعرفَه المسلمُ مِنْ أحوالِ هذا الوقت، وما حِيكَ ويُحاكُ للمسلمين مِنْ تخطيطاتٍ ومكرِ الأعداء، وتدليس العملاء.

ولا أُخفِي عليك إذا قلتُ لك إنني أَشُمُّ مِنْ هؤلاء الخطباء رائحةَ المداهَنَةِ والنِّفاقِ على حساب دين الله.

هذا، وفي صيف عام 1388 الموافق لسنة 1968، وبينما أنا في اِضطرابٍ وترددٍ في شأن تَرْكِ الجمعة: هل أُصلِّي وراء إمامٍ وقلبي غير متفقٍ معه، وصدري غير منشرحٍ للصلاة خلفه، فيكون البَونُ شاسعاً بين إمامتِه ومأمومِيَتِي؟ أو أتركُ الجمعةَ فأقع في بعض الحرجِ ؟؟ فبينما أنا بين هذا التردد والاضطراب المتزايد في نفسي مِنَ الحضور أو عدم الحضور، إِذْ ساقَتْنِي الأقدارُ بِدون سابِقِ تفكيرٍ، وإنما وقتُ صلاة الجمعة كان قد قَرُبَ، لِأَجِد نفسي أمام زاويةٍ صغيرةٍ لا أدري اِسمَها ولا

إلى مَنْ تَنتَسِبُ. وبِما أَنَّ وقتَ الظهر قد أَزِفَ وأنا بالقرب مِنْ هذه الزاويـة، تـوكلتُ على الله وعزمتُ ودخلتُها. فما هي إِلَّا دقائق وقد اِزدحـمَتِ الزاويةُ بالـمُصلِّين في داخِلِها وخارجِها، وعلى سطحِها، ثم إذا بِصاحِبِ الترجمة الذي لم أَكُنْ أَعرفُ صُورتَه قبل هذا ولا اِسمَه، يصعد المنبرَ. فقلتُ في نفسي: الـخَلَفُ على الله في هذه الساعة التي ستمرُّ كسابقتِهَا مِنْ ساعاتِ الـخطابة في صلاة الجمعة؛ فإذا به لم يـمرَّ على كلام الخطيب ثلاث دقائق، إِذِ اِنْحلَّتْ حبـوتي وفَتحتُ فمي مندهشاً، وركَّزتُ بصري وقلبِي عليه، وصِرتُ أقول في نفسي: سبحان الله !! هل لا زال يوجد مِنْ بين الخطباء مِثلُ هذا الداعية الصادقِ، الـمُصلِحِ الناقدِ. لأنِّي سمعتُ منه حفظه الله ما لم يكن يَخطرُ في بالي ولم أتوقعـه بِحال، لِليأس الذي حصل لي وأنا أطوف بين مساجد الـمغرب، التي وجدتُ خطباءَها كلَّهم على وتيرةٍ واحدةٍ في قلْبِ الحقائق، وتبليغِ خلاف ما أَمَرَ اللهُ به مِنَ الصَّـدعِ بالحقِّ في شرْحِ مآسِي الـمسلمين، ووصْـفِ علاجها اِنـطلاقاً مِنْ كتاب الله الكريم وسنَّةِ رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولِأَوَّلِ مرةٍ في حياتي أُحسُّ بِاِنْسِجامي وتفاعُلِي مع الخطيب، ولِأَوَّلِ مرةٍ في حياتي أيضاً أتقدَّمُ لِـمصافحةِ خطيبِ الجمعة، ولم أكتفِ بذلك حتى عانقتُـه بِحرارةٍ مهنِّـئًا فضيلتَه على ما وفَّقـه الله إليه؛ ذلك أَنِّي وجدتُ في حضرتِه بُغيتِي الثمينة، وضالَّتِي الـمنشودة التي كنتُ في شبه يأسٍ مِنَ الحصول عليها.

فاِنـصرفتُ مِنَ الزاوية وأنا بين عجبٍ وإعجابٍ: عجب في وجود مثل هذه الضالـة الـمنشودة في هذا البلـد بين خطباء المغرب، وإعجاب بفضيلـة الخطيب الذي رأيتُ فيـه صورةً ذكَّرتنِي وجسَّدتْ لي الصورةَ التي قرأتُها في التاريخ عن علماء رجال السلفِ الصالحِ رضي الله عنهم.

وتوجهتُ إلى منـزلنا الذي كان بِطريقِ القَصَبَـةِ ولا يَـبْعُدُ كثيراً عن الزاويـة الـمذكورة، فوجدتُ حضرة والدي رحمه الله قد عاد مِنْ صلاة الجمعة، فقلتُ له:

إنِّي رأيتُ اليوم عجباً لم يكن يَخطرُ بِبالي أو أتصوَّرُه في خيالي!! وتحقَّقتْ بذلك بُغيتي، وذلك أنِّي دخلتُ لأداءِ صلاة الجمعة في زاويةٍ صغيرةٍ بجانِبِ "طريق المنصور"؛ فخرج خطيبٌ وسِيمُ الوجهِ، بَهِيُّ الطَّلعةِ، وتَكلَّم بِلهجةٍ صادقةٍ وأسلوبٍ واضحٍ ناقدٍ، غير معروفين في هذا العصر. وهنا عرَّفنِي سيِّدي الوالد رضي الله عنه بِأَنَّ الزاويةَ هي الزاويةُ الحَمْدُوشِيَّةُ، وأَنَّ الخطيبَ هو العلَّامةُ الكبيرُ والمحدِّثُ الشهيرُ سيِّدي عبدُ العزيزِ بنُ محمدِ بنِ الصِّدِّيق. وأَنَّ والدَه هو العارفُ بالله المشهورُ، والقطبُ الرَّبانيُّ المعروفُ الذي هَدَى اللهُ على يده رضي الله عنه جماعاتٍ عديدةً مِنَ المؤمنين، وأَنَّ ضريحَه يقع بالزاوية الصِّدِّيقِيَّةِ الكائنةِ "بِطريق أَمْراحْ" بِطَنْجَة.

فهذا أيُّها القارئ أولُ معرفتي بِصاحِبِ الترجمة، وبعدَ هذا اِتَّصلَتْ بيننا المواصلة، وتمكَّنَتْ بيننا المودَّةُ والصحبةُ في الله، حتى أصبحتُ لا أُطِيقُ التغيُّبَ عنه. وصِرتُ مِنْ أَرْمَقِ تلامذتِه ومِنْ أقربِ مُحبِّيه، أَنْهل مِنْ علومه الواسعة المتقَنَةِ في مختلف الفنون، خاصةً منها: علم مصطلحِ الحديثِ، والأصول، والتصوف، والتاريخ، وأحوال العارفين بالله. وذلك في جلساتٍ خاصَّةٍ وهي الأغلب، ثم في دروسٍ عامةٍ.

وبِاختصارٍ فإنَّ رصيدي الثقافي الإسلامي الأصيل، وتكويني الصوفي -على الطريقة الشاذلية- الصافي مِنْ كلِّ البِدَعِ، كل ذلك كان على يده حفظه الله ورضي عنه وبارك في عمره، آمين. أَجْزلَ الله له العطاء وضاعَفَ له الأجرَ والثواب.

وهكذا بِمرور الأيام وتعاقُبِ الأعوام، توطدت بيننا الصحبةُ في الله، والألفةُ في الله، والمحبة في الله فباركها عالِمُ النوايا، وحفِظَها مِنْ كلِّ مكروهٍ المُطَّلِع على الخفايا، وجعلها سبحانه الكريمُ في اِزديادٍ واِطِّرادٍ لا يَعْرِفُ التوقف، فما كان لله -كما هو معلومٌ- يدوم ويتَّصلُ، وما كان لغير الله ينقطع وينفصل. إذْ مِنْ سنَّةِ الله في خلقِه أَنَّ ما يكون لوجهه الكريم اِبتغاء رِضاه والتقرب إليه سبحانه يَدوم ويستمر ويُثْمِرُ، أمَّا ما يكون لغير الله فيتعثَّرُ وينقطع ويندثر.

وعلاقة بِخُطبه حفظه الله أقول بأنَّها تكون بمثابة درْسِ الفقيهِ المحدِّثِ المحقِّقِ الذي يَنبري للمسألة بعد أَنْ يُلِمَّ بجميع جوانبها، وأوجُهِ خلافها، لأنَّه يَرفُض بشجاعة الصِّدِّيقِينَ الزاهدينَ أَنْ يَجعلَ مِنَ "المِنبر" مجرَّدَ لِقاءٍ أسبوعي تقليدي، لا يَخرجُ عن إطار الوعظ العامِّ البارِدِ الذي عمَّ كلَّ المساجد. وإنَّما اِتَّخذ مِنْ "مِنبر الجمعة" أَنْسَبَ مكانٍ لِتعريفِ المسلمين بدِينِهم الحقِّ، وسنَّةِ نبيِّهِم الصحيحة، تماماً كما كانت الخُطبُ الجُمَعِيَةُ في العهود الزاهرة مِنَ الإسلام: تبليغاً لِرسالاتِ الله وِفْقَ كتابِ الله وسنَّةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، بكلِّ ما تتطلبه الأمانةُ مِنْ إخلاصٍ وشجاعةٍ.

فيأتي حفظه الله بالأحاديث النبوية الصريحة المتناسبة مع ما يَجِدُّ في ساحة المسلمين مِنْ أحداثٍ، لِيَكشفَ مِنْ خلالها وفي ضوئِها كلَّ المُوبِقات، ومَنْ يرتكبها، ومَنْ يتبنَّاها، لِينتهيَ بعدَها في كشف الغطاء عن تخطيطات الأعداء، وتلفيقات العملاء. كلُّ ذلك في أسلوبٍ سهلٍ ممتنعٍ، شيِّقٍ مؤثِّرٍ، يُخلِّله بِضرْبِ الأمثلة البَيانِيةِ الموافِقةِ لِرُوحِ العصر في الشرح والبيان. فتكون خُطَبُه نافعةً على كلِّ المستويات، بحيث ينتفع بِها المثقَّفُ وغيرُ المثقَّفِ، الشبابُ والشيوخُ. مِمَّا جعل كلُّ متعطِّشٍ لِمعرفةِ دينِ الله وأحكامِه أَنْ يَسعَى باكراً يوم الجمعة إلى المسجدِ لِأَخْذِ مكانِه.

فصل

ولأجل بيان هذه الحقائق التي أشرتُ إليها، وضعتُ بين يديك أيُّها القارئُ هذه الترجمةَ، التي لا أُحِبُّ أَنْ أستأثِرَ بِها وحدِي، لِقولِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لَا يُؤْمِنُ أَحدُكُم حتَّى يُحب لِأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ». لأنَّها ستكون لك نبراساً في هذا المجتمع المُظلِم، ودليلاً هادياً إلى الطريقِ الحقِّ القويمِ، بعد أَنِ الْتَبَستْ على الناس الطُّرقُ وضلُّوا السبيلَ، وظنُّوا أَنَّهم مهتدون.

وقد رتَّبتُ هذه الترجمةَ على سِتَّةِ أبوابٍ:

الباب الأول

فصل

وُلد صاحِبُ الترجمة حفظه الله بِـثغرِ مدينة طنجةَ، في شهر جمادى الأولى، سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة وألف 1338هـ، الموافق شهر يناير سنة 1920م. وتوفِّيت السيدةُ والدتُه الفاضلة، الصالحة الزاهدة، سليلة الدَّوحةِ النَّبويَّةِ الشريفة رحمها الله ورضيَ عنها، وهو في الثانية أو الثالثة مِنْ عُمره. وتَـربَّى في كَنَفِ والدِه القُطبِ الأكبرِ والعارفِ الأشهرِ، الحائزِ لِلعِلْمَيْنِ والجامِعِ بين الشَّرَفـيْنِ، الإمامِ أَبِي عبدِ اللهِ محمدِ بنِ الصِّدِّيقِ الحَسَنِي رضي الله تعالى عنه ونفعَنا به، فَنَشأَ في رعايته رضي الله عنه. ودخل لِلمكتب القُرآنيِّ وهو اِبنُ خمسٍ تقريباً، فَقَرأَ القرآنَ الكريمَ على الفقيه السيدِ محمد الأنْدلُسِي، بالزاوية الصدِّيقية، ولم يَقرأ علَى غيره إلى أَنْ فارق المكتب. ثم اِشتغل بدراسة العِلْمِ، وحتَّى في أيام الاشتغال بِحِفظ القرآن كان يقرأ على بعض تلامذة والدِهِ دروساً في "الأَجْرُومِيَّةِ"، ولكن لم ينتفع بذلك تماماً لِتعلُّقِ البالِ بِمهمَّةِ حِفظِ اللَّوح مع عدم الالتفات في وقت الراحة إلى شيءٍ آخر.

وقد كان والدُه رضي الله عنه يتعهَّدُه في أثناء ذلك بالنصائح والإرشادات، والتوجيهات التي كانت تُضيءُ أمامَه الطريقَ، وتَكشف له عن سبيل السَّيرِ في

ما يَنفعه في دينِه، ويُقرِّبه إلى طريق التعلُّمِ والتحصيل.

وقد كان حفظه الله منذ الصِّغر وهو شديد البحث في كلِّ الأمور، صغيرِها وكبيرِها، حتى الأمور التي كان عقلُهُ لا يُدركُها حينئذٍ.

فلم يكن يَمرُّ عليه يومٌ بدون أَنْ يُذاكرَهُ والدُه رضي الله عنه، ويراجعه فيما دَرَسَ وتعلَّمَ، ويَسألُه عن مسائلَ وبحوثٍ في مختلف العلوم وشتَّى الفنون. وكان يعطيه رحمه الله في كلِّ موضوعٍ يسأله عنه قواعدَ عامَّة، وفوائدَ جمَّة تَكفيه وتُغنِيه عن كثيرٍ مِنَ البحثِ والمطالعة، فنفعه ذلك جدًّا. مِمَّا جعل والده رضي الله عنه يُسَرُّ به كثيراً ويحثُّه على الاستزادة مِنَ البحث والمعرفة.

وحُبِّبَ إليه في صغره عِلم الجغرافية، وحصل له به ولَعٌ كبيرٌ واهتمامٌ كثيرٌ، فكان يَقرأ كُتبَه ويعكف عليها. وكان يعسر عليه في بعض الأحيان فهْمُ قواعدِها وإصطلاحاتِها، فلم يكن يَشرحُ له إصطلاحَها وغامِضَها غيره رحمه الله تعالى، وكان يُجيبه عن ذلك بداهةً مِنْ غير مراجعةٍ كما هي عادتُه في كلِّ العلوم.

ولم يَنْهَه يوماً عن مطالعة كُتب هذا العِلم أو حذَّره مِنَ الاشتغال به، لأنَّه كان يحب الاشتغال بالعِلمِ مطلقاً، مِنْ غير نظرٍ إلى ماهيةِ عِلمٍ مِنَ العلوم، لاسيما وعِلمُ الجغرافية عِلمٌ مفيدٌ تتعلق به مصالحُ شرعيةٌ.

ومع كونه كان مشتغلاً بِحِفظِ القرآن الكريم يَصْرِفُ النهارَ كلَّه في المكتب، فقد كان والدُه رحمه الله يأمره بالاشتغال بالكتابة في المسائل العلمية التي لا خبرة له بها حينئذٍ، ويؤكد عليه في ذلك كثيراً، وكلَّما كانت المناسبةُ أَلَحَّ وأكَّد عليه في الكتابة والتأليف. وكان رحمه الله يقول له: "أُكْتُبْ، فإِنَّ فائدةَ الكتابة عظيمةٌ، غير محدودة النَّفع..". وقد إمتثل أَمْرَهُ بذلك، فكان إذا فرغ مِنَ المكتب شرع في الكتابة وجمْعِ المسائل، وهو لازال في العاشرة مِنْ عمره.

هذا وقد أخذتْ تَظهرُ على صاحِبِ الترجمة دلائلُ الطموحِ والنبوغِ، وهو في هذا السِّنِّ الباكر، مع أنه حفظه الله لم يَعكفْ على كتابٍ قطُّ، ولا قرأ علَى شيخٍ،

وإنما جمع كلَّ ما عنده مِنَ المعلومات مِمَّا أخذه عن والده رضي الله عنه ساعةَ المذاكرة والسؤال لا غير. وقد كان ذلك عظيماً حقًّا، أحسن مِنْ مِئاتِ الدروس، لِمَا خصَّه اللهُ تعالى بِه مِنْ علومٍ وفنونٍ، مع حُسنِ البيان.. وجمالِ التعبيرِ.. ودقَّـةِ الشَّرحِ.

وفي بعض الأيام، أتَى صاحبُ الترجمة حفظه الله إلى والدِه رضي الله عنه بِمؤلَّفٍ سمَّاه: "إتْحافُ الإخوانِ بِفَضِيلةِ رَمَضان"، جَمَعَ فيه ما وَرَدَ في الصِّيام مِنَ الآيِ والأخبار. فلمَّا أخذه بيده ورأى اِسمَ صاحِبِ الترجمة عليه كاد يَطير فرحاً وإبتهاجاً وسروراً، وصار يُـثْنِي عليه ويعجب به.

والكتابُ وإنْ كان لا يَستحقُّ كلَّ هذا، لكنه رضي الله عنه صنع ذلك تشجيعاً له علَى المضيِّ في الطريقة المحبوبةِ عنده، والتي طالما رغَّبه فِيها وشَوَّقَه إليها وأمره بالإِشتغال بِها وهي: الكتابة والتأليف.

وزاده رضي الله تعالى عنه فرحاً بهذا الكُتَيِّبِ، أَنَّ بعضَ الناس كَتَب إلى صاحِبِ الترجمة مِنْ مدينةِ أَكادِير بِسُوس، يَسألُه عن الحديث الذي فيه أَنَّ صُحُفَ إبراهيمَ والتوراةَ والزَّبورَ والإنجيلَ والقرآنَ، كلَّها نزلتْ في رمضان، فأجابه بِنصِّ الحديث. وكان ذلك السؤال وقع له مِنْ بعض الناس هناك، فلمَّا قرأ نصَّ الحديث سُرَّ كثيراً وكتب يشكره على ذلك. وكان قد أرسل له كِتابَ الشكر مع كِتابٍ أرسله لِوالده رحمه الله تعالى ورضي عنه. فلمَّا قرأه سأل صاحِبَ الترجمة عمَّن نَقَلَ الحديثَ، فعِندَ ذاك أَخْبَره بِتأليفِه المذكور في فضل رمضان. فلما رآه حصل له مِنَ السرور ما أشرنا إليه.

وهكذا كان رضي الله عنه يَفعل معه في جميع ما أَبْرَزَهُ له مِنْ مِثل هذا، فكان يَفرحُ به كثيراً ويُسَرُّ به جدًّا. وغرضُه بذلك كلِّه، التشجيعُ على المضيِّ في الكتابة والبحث والتأليف، التي تُكسِبُ المرءَ خبرة ومَلَكة وإطِّلاعاً واسعاً. وقد اِنتفع إلى أَبْعدِ الحدود صاحِبُ الترجمة بنصائح وتوجيهات وإرشادات والدِه رضي

الله عنه في الموضوع.

فإنَّه حفظه الله، لَمَّا ثابر على الكتابة ولَزِمَها، حصل له مِنَ العِلم في المدَّةِ القصيرةِ ما لم يَحصل لغيره في السنين الطِّوال، وحصلتْ له مَلَكةٌ في التأليف بحيث يَكتب في الموضوع الذي يُريد الكتابةَ فيه بأيِّ أَدْنَى تكلُّفٍ أو عَنتٍ. وكلُّ ذلك بفضل وصيَّةِ والدِهِ رحمه الله ورضي عنه، وببركة إرشاداتِه.

فصل

ولمَّا أخذ مِنَ القرآن الكريم ما أخذَ، شرع في قراءة "مقدِّمة اِبنِ آجرُّومْ" علَى بعض أصحاب والدِه رحمه الله، بالزاوية الصِّدِّيقية، ولم يتيسر له ختْمُها. وكذلك الكتبُ الأخرى التي قرأها على هؤلاء الأصحابِ: كمَتْنِ اِبنِ عاشِرٍ، ورسالةِ اِبنِ أَبِي زَيْدٍ، وألفيةِ اِبْنِ مالِكٍ.

وكان مِنْ عادتِه أَنَّه كلَّما جاء مِنَ الدرس أَتَى والدَه رحمه الله، فيسألُه عن موضوع الدرس وما كان فيه مِنْ أخذٍ وردٍّ ومراجعةٍ. وربما أشار له صاحِبُ الترجمة في بعض الأحيان إلى صعوبةِ الفنِّ وعدم فهْمِ الدرسِ كما ينبغي، فيقول له والدُه رضي الله عنه: "لا تَشغَلْ بالَكَ بهذا الآن، وإنَّما عليك أَنْ تَسمعَ لا غير، وتُعَوِّدَ نفسَكَ على الأخذ والتحصيل، وعندما يأتي وقتُ الفهم تَجِدُ هذه الأمورَ مرسومةً في ذِهنِكَ، فَيَسهل عليك فهمُها جدًّا..".

وكان غرضُه مِنْ هذا كلِّه أَنْ يُرغِّبه في حضور الدرس وعدم المَلَلِ لِئلَّا تتعوَّد النفسُ البطالةَ والكسلَ، فيَصعب عليها الرجوعُ إلى العمل والتلقِّي والأخذِ. بالإضافة إلى ذلك، فإنَّ الحفظَ يَسهلُ في الصِّغَرِ، بِخلاف الفهم فإنَّه لا يتِمُّ على الوجه الأكمل إلَّا في الكِبَرِ.

كما كان رحمه الله يُوصِي صاحِبَ الترجمة أَلَّا يراجع أثناءَ مطالعةِ الدرسِ حاشيةً مِنَ الحواشي على الكتاب الذي يقرأه، وكثيراً ما كان يقول له: "مَنْ تَبِعَ الحواشِي بقَى بلا شي". كما كان رضي الله عنه لا يحب مِنَ الشيخ الذي يُدَرِّسُ أَنْ يتعرض في درسِهِ لِمباحث الحاشية، لأَنَّ ذلك يُبلبل فِكرَ الطالب ويُتلِفُ ذِهنَه، ويُشَعِّب عليه مسائل الفنِّ وهو لا زالَ في حاجةٍ إلى تربيةِ المَلَكة.

وكان رحمه الله تعالى يقول لصاحب الترجمة: "إذا حَصَلَت المَلَكةُ بالكتاب الصغير في أَيِّ فَنٍّ مِنَ الفنون فقد صار الفنُّ كلُّه بِكُتبِه المُطَولةِ وحواشيها في متناول اليَدِ، يَسهلُ فَهمُها".

ومِنْ اِعتناء والدِ صاحِبِ الترجمة بتوجيهه بالاشتغال بالعِلم والاعتناء بالكتابة في مسائله، أَنَّه في بعض الأيام أعطاه رسالةً صغيرةً تُسمَّى "المقاصد"، تُنسب للإمام النَّوَوِيِّ رضي الله عنه، تشتمل على قواعد الإسلام الخمس وبيانِ فروضِها وسُننِها، وأَمَره بِشرحِها، وَدَلَّه على الكُتب التي يراجعها أثناء الكتابة.

وقد حكَى لي صاحِبُ الترجمة أَنَّه شرع في شرحِها، وكتب في ذلك عِدَّةَ كراريس. وقال لي: "وكنتُ كلَّما فرغتُ مِنْ كُرّاسٍ أُطلِعُه عليه رحمه الله، فَيُسرُّ به ويزيد في هوامشه بِخطِّ يده ما يراه متمِّماً للموضوع".

وأثناء ذلك، توفي والدُه رحمه الله تعالى ورضي عنه، فشغلته مصيبةُ فَقْدِهِ عن المضيِّ فيه، واِتَّصل بذلك سفرُهُ إلى مِصْرَ فلم يُتِمَّه. وقد طلبتُ منه أَنْ يُتِمَّه خاصةً وأَنَّ التأليفَ المذكورَ يُعتبر أَولَ تأليفٍ بإِذْنٍ وتوجيهٍ وإرشادٍ مِنْ والده رحمه الله تعالى. وعبَّرتُ له عن رغبتي في أَنْ يكون كِتابُ "شَرْح المَقاصِد" جاهزاً للطبع قَبْلَ فراغي إن شاء اللهُ مِنْ هذه الترجمة، لِأَجعلَهُ ضِمنَ قائمة تآليفه بِحوْلِ الله. فما كان منه حفظه الله سِوَى الاستجابة والموافقة، شأنُه معي دائماً في كلِّ ما يَرَى فيه خدمةَ العِلم والمتعطِّشين إليه. فجزاه الله خيرَ الجزاء.

هذا وقد اِنتقل والدُه رضي الله عنه إلى جوار ربِّه وصاحبُ الترجمة في الخامسةِ أو السادسةِ عشرة مِنْ عمره. فَفَقَدَ بِموته أباً رحيماً شفيقاً حنوناً، ومعلِّماً ناصحاً، وشيخاً مربِّياً لا يَأْلُو جهدَه في النصح والتوجيه جزاه الله خيرَ الجزاء. وكانت وفاتُه رضي الله تعالى عنه عشيةَ يوم الأربعاء السادس مِنْ شوال سنة أربع وخمسين وثلاثمائة وألف 1354، الموافق لِفاتح يناير سنة سِتٍّ وثلاثين وتسعمائة وألف 1936.

البابُ الثّاني

فصل

وبعد وفاة والده رحمه الله تعالى، سافر إلى مِصْرَ لِطَلبِ العِلم، وكان خروجه مِنْ مدينة طَنْجَةَ يوم الاثنين السابع والعشرين مِنْ ذِي القعدة سنة خمْسٍ وخمسين وثلاثمائة وألف، 1355، الموافق لِسنة سبْعٍ وثلاثين وتسعمائة وألف1937، وكان وصولُه إلى القاهرة بِرفقَةِ شقيقِه العلَّامةِ المحدِّثِ السيدِ عبدِ الحيِّ في الثامن أو التاسع مِنْ ذِي الحجَّة مِنَ السنة نفسِها.

فلمَّا قدِمَ إلى القاهرة اِلْتحقَ بالجامع الأزهر للقراءة على شيوخه، وقد اِختار أولَ الأمر مِنْ غير إشارة أحدٍ قراءةَ فِقْهِ الإمامِ محمدِ بنِ إدريسَ الشَّافِعِي رضي الله عنه، لأَنَّ فِقهَهُ مَمزوجٌ بالسُّنَّةِ، ولا يَخلو كتابٌ مِنْ كُتبه مِنْ ذِكْرِ أدلَّةِ الأقوال وبيان الحُجَّةِ.

قال لي صاحبُ الترجمة: "بِخِلاف كُتبِ المالكية والحنفية فإنَّها فِقهٌ مجردٌ مِنَ الدليل بِالمرَّةِ، لا سيما كُتب المالكية، فإِنَّكَ تَقرأُ الكتابَ في أربعِ مُجلَّداتٍ أو أكثر ولا تَجِدُ فيه دليلاً لِقولٍ ذهبوا إليه. والحنفيةُ وإِنْ كانوا مِثلَهُم لكنَّهم أحسنُ مِنَ المالكية، فبعضُ كتبِهم تتعرض لِلدليل وذِكْرِ الحُجَّةِ، مِثل "فَتْح القَدير" لِلكَمالِ اِبْنِ الهُمَامِ، وغيرِه.

وزاد قائلا: والشافعي رضي الله تعالى عنه خصَّه اللهُ تعالى بتلك المزيَّةِ التي ليستْ بعدَها مزيَّةٌ ولا فضيلةٌ، حتَّى إنَّكَ تَجد الفقيهَ الشافعِيَّ العَارِي عن عِلْمِ الحديثِ، الذي لا خِبرةَ له به ولا درايةَ، يَذكر في كُتبه الأحاديثَ الدَّالَّةَ على الأحكام، مجتهداً في ذلك على قدْرِ جهده في بيان حالِها مِنْ صحَّةٍ، أو حُسنٍ، أو ضعفٍ، معتمداً في كلِّ ذلك على مَنْ سبقه مِنَ الحفَّاظ، ومِنْ هُنا قالوا عن الشافعي رضي الله عنه: ناصِرُ السنَّةِ، وهو كذلك.

فإنَّه لا يُذكرُ له قولٌ في كُتبِ أتباعِه ومقلِّديه مِنْ غير ذِكْرِ دليلِه.. ولِأَجْلِ هذا يقول المُترجَمُ له: اِخترتُ قراءةَ فِقهِه لِما فيه مِنْ هذه الفائدة العظيمة التي تكون مَدْرجاً سهلاً، ومُرتَقىً مُيسّراً للاجتهاد، وسلَّماً للإِطِّلاع على أحاديث الأحكام. وهذا يَعلمه مَنْ يُخابِر تلك الكُتبَ ويَلزمُ قِراءَتها".

وهنا حكَى لي صاحبُ الترجمة، أَنَّ شقيقَه أَبَا الفَيْضِ الحافِظَ المجتهِدَ رحمه الله تعالى وقع له مِثلُ هذا أيضاً، فإِنَّه لَمَّا رحل إلى مِصْرَ لِطلَبِ العِلم مكث مدَّةً يَقرأ كُتبَ المالكيةِ، ثم تركَها واِنتقل إلى مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه لِأَجْلِ هذا المعنَى الذي تقدَّم. وقد قامت عليه قيامةُ مُتعصِّبِي المالكيةِ بِمِصْرَ، ورأوا في اِنتقاله عن مذهب مالِك الذي يَدينُ به المغاربةُ كلُّهم خروجاً عن مذهب الجماعة، وتكلَّموا فيه رحمه الله بسبب ذلك. وما حملهم على ذلك إِلَّا التَّعصب المزري والحمِيَّة الخبيثة، وإِلَّا فمذهبُ المُسلِمِ هو ما قال اللهُ ورسولُه صلى الله عليه وآله وسلم، وما سِوَى هذا فآراءٌ فيها الصوابُ وفيها الخطأُ، كما أشار إلى ذلك الأئمَّةُ الأربعةُ كلُّهم رضي الله تعالى عنهم، حيث قالوا: كلُّ قولٍ يُؤخذُ منه ويُردُّ إِلَّا ما قال اللهُ ورسولُه صلى الله عليه وآله وسلم.

وهنا ذَكَرَ لي صاحبُ الترجمة أَنَّه لَمَّا بلغ إلى مرتبةِ الأخذ مِنَ النصِّ مباشرة تَركَ التقيدَ بالجميع، وصار مذهبُه ما صحَّ لديه، قال لي: "ولم تَطمئنَّ نفسي ويرتَحْ قلبي إِلَّا عند ذلك، فلِلَّهِ الحمدُ حمداً طيِّباً مباركاً فيه".

ووقع لِشقيقِهِ أَبِي الفيض رحمه الله في اِنتقالِهِ إلى مذهب الشافعي أَنْ لَامَهُ في ذلك شيخُه الإمامُ أَبُو عبدِ اللهِ محمدُ بنُ جَعْفر الكِتَّاني رحمه الله، وكان لِشَيخِهِ نوعٌ مِنَ العصبية وميْلٌ إلى المذهب، مع أَنَّه كان يَعمل رحمه الله تعالى بالسُّنةِ في كثيرٍ مِنَ المسائل، لكن بِشرطِ موافقةِ المذهب ولو في بعض الأحوال، وبِشرط أَنْ تكون المسألةُ في الآداب والرقائق، أَيْ ما يتعلَّقُ بالمَواعظ، لا في الحلال والحرام، كما شافَهَ بذلك مراراً شقيقَ صاحِبِ الترجمة أَبَا الفَيْضِ، وذَكَره في كِتابه: "سلُوكُ السَّبِيلِ الواضِحِ في أَنَّ القبضَ في الصلواتِ كلِّها مشهورٌ و رَاجِحٌ".

قال أَبُو الفَيْضِ رحمه الله تعالى في "التَّصور والتَّصديق": «مع أَنَّ الواجبَ سلوكُه تقديم قولِ الله تعالى ورسولِه صلى الله عليه وآله وسلم في كلِّ ما وَرَدَ عنهما، لا فَرْقَ بين سُننٍ وآدابٍ، ولا بين حلالٍ وحرامٍ.. ثم قال: وهو -يَقصد بذلك شيخَه سيدي محمدَ بنَ جعفر الكِتَّاني- في هذه الطريقة مُقلِّدٌ لِغيره، فإِنَّ الموَّاقَ (صاحِبَ شرْحِ خَلِيل) نَقلَ في "سنن المهتدين" عن بعض شيوخه أَنَّه كان يقول: (نحن صُوفِيُّونَ، مُحدِّثُونَ في الرَّقائِقِ والآدابِ، فُقهاءُ في الأحكام والحلال والحرامِ) أو نحو هذه العبارة. وذلك مِنَ الخطإِ البيِّنِ والغَلَطِ الواضِحِ.

قال أبو الفيض رحمه الله: ولَمَّا توجَّه الوالدُ رحمه الله إلى الشَّامِ لزيارة شيخِنا محمدِ بنِ جعفر الكِتَّاني رحمه الله، وكنتُ معه قال له: إِنَّ مَولاي أحمدَ تَركَ مذهبَ مالِكٍ وإِنتقل إلى مذهبِ الشافعي. كأَنَّه يريد مِنَ الشيخ -يعني الوالد- أَنْ يَمنعني مِنْ ذلك. فقال له الوالدُ رحمه الله: هو حرٌّ في نفسه يَختار مِنَ المذاهب ما يشاء، فسَكَتَ».

وهكذا كان حاله دائماً رضي الله تعالى عنه، إِذْ حكَى لي صاحبُ الترجمة أَنَّه كان رحمه الله يدعو إلى التَّحرُّرِ مِنَ القيود المذهبية التي تَربط العقلَ عن الفهمِ الصحيحِ، وإدراكِ الأحكام مِنْ نصوصِها، على حسب القواعد التي أَسَّسها علماءُ

السَّلفِ رضوان الله عليهم، مِنْ غير نظرٍ إلى مَنْ قال، وإِنَّما المقصد الأكبر: هو أَخْذُ الحكمِ مِنَ الكتاب والسُّنة، ولو خالفه مَنْ خالفه. وهذا هو السبب في كون أصحابِه ومُريدِيه رضي الله عنهم كانوا يَنشرون السُّنةَ في العبادات بأفعالِهم دُونَ أَنْ يَقولُوا لِأَحدٍ شيئاً.

فكانت صلاتُهم في المدن والقُرى مُخالِفةً لِمَا عليه الناسُ مِنْ تَركِ سُنَنِها وبعضِ فرائِضِها التي أَبطلَها الفقهاءُ كوضْعِ اليُمنَى على اليُسرَى في الصلاة، وكالتَّعوُّذِ والبَسْملَةِ، وكزيادة: (ورحمةُ اللهِ) في السلام عند الخروج مِنَ الصلاة.

وكلُّ هذا كان يدعو الموفَّقِينَ إلى الإِقتداء بِهم في هذه السُّنن والفرائض تلقائياً.. إلى غير هذا مِنَ المسائل التي أَمَرَ بِها مُريدِيه، والناسُ مُعْرِضُون عنها ولا يلتفتون إليها.

فصل
في وضعِ النُّقط على الحروف

وهنا أريد أَنْ أقولَ لِلمتعصِّبين مِنْ مُقلِّدِي المذاهب مِنْ خلال هذه الترجمة، بِأَنْ ليس مِنَ الدِّين في شيءٍ أَنْ يَطغَى عليهم حُبُّهم لِلمذهب وتقليدُهم له لِدرجةٍ تجعلهم يُؤْثِرونه على ما جاء في كتاب الله الكريم وصَحَّ في سُنَّةِ نبيِّه ورسولِه صلى الله عليه وآله وسلم.

إنَّ أصحابَ المذاهب الأئمَّة رضوانُ الله عليهم، قد أدّوا كلُّهم للإسلام والمسلمين خدماتٍ عظيمةً، وأَغْنَوا المكتبةَ الإسلامية بِثراتٍ عظيمٍ عملاقٍ في الفقه الإسلامي، وكوَّنوا بذلك ثروةً علميةً هائلةً لا نظير لها، ووَهَبُوا حياتَهم كلَّها وأوقفوها على خدمة دِينِ الله، غير أنهم لا يَخرجون بِحكم البشرية وعدم العِصْمَةِ التي لا تكون إلَّا للأنبياء، مِنْ أَنْ يَكونوا تارةً مُصِيبِينَ وأُخرى مُخطِئين، كما شهدوا هم أنفسهم بذلك. وعلى كلِّ حالٍ فالأجرُ ثابتٌ لهم مِنَ الله الكريم في الحالتين، لِقولِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إِذَا أصابَ المُجتَهِدُ فَلَهُ أَجْرانِ، وإِذَا أَخْطَأَ فَلَهُ أَجرٌ واحدٌ**». لأنَّ نِيَّتَهم خالصةٌ في خدمة شريعة الله والاجتهاد في اِستنباط أحكامِها.

وعليه، فالحذَرَ الحذَرَ، لِمن يَحلو لهم تَمطِيطُ الكلامِ وقلْبُ الحقائق، فيزعمون أَنَّ في قولنا هذا تنقيص مِنْ قدْرِ الأئمة أصحابِ المذاهب رضي الله عنهم، أو أَنَّ فيه ما يَخْدِشُ في كرامتهم مع ما أَبلَوْا مِنَ البلاء الحسن وما تعرَّضوا إليه مِنَ المِحَنِ اِنتصاراً لشريعة الله وإعلاءً لكلمة الله. رحمهم الله ورضيَ عنهم

وجزاهم خير الجزاء.

إنَّ الذي أريد تأكيدَه، هو أَنَّ قولَ أَيِّ مذهبٍ مِن المذاهب إذا كان يتناقض مع ما وَرَدَ في كتاب الله الكريم بِنصٍّ واضح، أو في سُنة رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم بحديثٍ ثابتٍ صحيحٍ، يَجب أَنْ يُطرَحَ قولُ المذهب ويُرَدَّ، قاله مَنْ قاله، ولا يكون العملُ إِلَّا بِما قاله اللهُ تعالى أو رسولُه صلى الله عليه وآله وسلم، لا بِما قاله فقهاءُ هذا المذهب أو ذاك.

وهذا ما يدعو إليه دائماً صاحبُ الترجمة حفظه الله، كما أَنَّ الأئمةَ أصحابَ المذاهب كلهم رضي الله عنهم نبَّهوا أصحابَهم وأتباعَهم وحذَّروهم بأَنْ لا يأخذوا مِنْ أقوالِهم وآرائِهم إِلَّا ما وافق الكتابَ والسنَّةَ، أَمَّا ما لم يوافقْ قولَ الله تعالى وقولَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم فيتركوه ويَنبذوه.

قال الإمامُ مالِكٌ رضي الله عنه كما في "أعلام الموقعين" لِابنِ القَيِّم، و"شرْح الأجهوري على مختَصَرِ الشيخِ خَلِيل": "إِنَّما أنا بشَرٌ أُخطِئُ وأُصيبُ، فِانْظُروا في رأيِي، كلَّ ما وافَقَ الكِتابَ والسُنةَ فَخُذُوا به، وما لم يُوافِقْ الكتابَ والسُنةَ فِاتْركُوه"[1].

وقال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه كما رواه عنه البَيْهقي وغيرُه: "أَيُّ أَرضٍ تُقِلُّنِي؟ وأَيُّ سماءٍ تُظِلُّنِي؟ إذا رَوَيْتُ عن رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً ولم أَقُلْ به".

وقال الإمامُ أَحمدُ بنُ حَنْبَل رضي الله عنه كما في "أعلام الموقعين" أيضاً: "الِاتِّباعُ أَنْ يتبع الرجلُ ما جاء عن النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم وعن أصحابه،

---

1 - بحيث إذا اِختار جمْعٌ مِنَ المؤمنين مذهباً مِنَ المذاهب، فواضِعُ هذا المذهب يكونُ إماماً لهم كإمامِ الصلاةِ. وإمامُ الصلاةِ بطبيعة الحال إذا ما نَسِيَ أو أَخطأ فإنَّه يُستفتح عليه ويُنبَّه للصواب، ويكون ذلك واجباً دينياً وأمراً ضرورياً. ولا يُمكن لِمسلمٍ القولُ بوجوب إلزام المأمومين بمتابعة الإمام في خطئِه، بل مِنْ حقِّ المسلمين مراجعتُه وترْكُ مخالفته والتمسك بما أمر به الله ورسولُه صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يُعتبر هذا إطلاقاً مَسًّا بكرامة الإمام أو تنقيصاً مِنْ قدره.

ثم هو مِنْ بَعدُ في التابعين مُخَيَّر". وقال رحمه الله أيضاً: "لا تُقلِّدْني ولا تُقلِّدْ مالِكاً، ولا الثَّوْرِي، ولا الأوزاعِي، وخُذْ مِنْ حيث أَخَذوا".

وقال الإمامُ أَبُو حَنِيفَة رضي الله عنه كما ذَكَره صاحِبُ "الهداية في روضة العلماء" بعد أَنْ قِيلَ له: "إذا قلتَ قولاً وكتابُ الله يُخالفه؟ قال: اِتْركوا قولي بِكتابِ الله. فَقِيلَ له: إذا كان خبرُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم يُخالفه؟ قال: اِتْركوا قولي بِخبَرِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم. فَقِيلَ له: إذا كان قولُ الصحابي يُخالفه؟ قال: اِتْركوا قولي بِقولِ الصحابي".

لكن أرَى الكثيرَ مِنَ الجهلة مِمَّنْ يدَّعون اِتِّباعَ المذاهب قد اِسْتحوذ عليهم الجمودُ والتَّعصبُ المُزري والتقليدُ الأعمَى، فَركِبُوا متْنَ هواهُم وسلكوا غيرَ مسلَكِ الأئمةِ الهُداةِ أصحابِ المذاهب الأربعة رضي الله عنهم، واِقتصروا على أقوال وآراء علماءِ مذهبِهم، سواء منهم المتقدِّمين أو المتأخِّرين، وَلو كانت معارِضةً لقولِ الله سبحانه وتعالى، وقولِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأقوالِ الصحابة رضوان الله عليهم.

وبهذا أقاموا على أنفسِهِم الحُجَّةَ أَنَّهم اِنحرفوا عن منهجِ أصحابِ المذاهبِ رضي الله عنهم، وخرجوا عن القاعدة الأساسِ التي مِنْ مُنْطَلَقِها وفي ضوئِها اِجتهَدُوا ودوَّنُوا أقوالَهم وآراءَهم رحمهم الله في حدودِ عقلِهِم البشريِّ الذي يُصِيبُ ويُخْطِئُ، وأكَّدوا لِأَتباعهم -مُبرِّئِينَ بذلك ذِمَّتَهم أَمامَ الله- بأَنَّ آراءَهم وأقوالَهم يُعمَلُ بها ما لم تكن تتعارض مع القرآن والسُّنةِ وأقوالِ الصحابة رضوان الله عليهم.

والخلاصة التي أستهدفها مِنْ وراء هذا كلِّه تتلخص في أَنَّ كتابَ الله الكريمِ، وسُنةَ رسولِه الصادقِ الوعدِ الأمينِ صلى الله عليه وآله وسلم، هُما المصدرُ الرئيسيُّ الذي لا بدَّ لَنا منه دائماً، ولا غِنىً لنا عنه أبداً في اِلْتزامِه والتَّقيدِ به قبل أَنْ نُصْدِرَ أَيَّ حُكمٍ أو فتْوى. وكلُّ تفريطٍ في هذا المصدر الإلهي بإيثار بعضِ أقوالِ فقهاءِ

المذاهب عليه، حسب رأيهم واجتهادهم، ما هو إلَّا خروجُ الشيءِ عن حقيقتِه وتَنَكُّرُ الفرع لِأَصلِه.

إنَّ المصدر الإلهي المذكور هو وحده الذي له مِنَ الاحترام والتقديس ما يجعله فوق كلِّ مُساءَلَةٍ أو مناقشةٍ، اِنْضباطاً مع قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب:36)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (الحُجُرات:1)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر:7).

فإذا قال الله تعالى أو قال رسولُه صلى الله عليه وآله وسلم، حُسِم النزاعُ وسُدَّ بابُ تَضارُبِ الآراء، واِجْتُثَّ دابِرُ الخلاف واِنتهَى الأمرُ.

وتَحْضُرني هنا قولة الإمام اِبنِ أَبِي زَيْدٍ القَيْروانيِّ صاحِبِ "الرسالة"، رضي الله تعالى عنه، وهو مِنْ أئمة المالكية ويُلقَّب بِمالِكٍ الصغير، قال رحمه الله: "إِذَا قِيلَ لِلرَّجل: قال أَبُو بَكرٍ، وقال عُمَرُ، وعارَضَهُ بِقَولِ مالِكٍ والشَّافعي، يُسْتَتاب".

فما بَالُكَ بِقولِ مَنْ يُعارض قولَ اللهِ سبحانه وتعالى، وقولَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم بِقولِ غيرهما ؟

ومَنْ أراد البيانَ المُطَولَ والشرحَ المُفصلَ في هذا الموضوع، فليَنْظُر: "إِيقاظ هِمَمِ أُولِي الأبصار"، لِلعَلَّامة الفلَّاني، و"جامِع بَيان العِلْمِ" لِابنِ عَبدِ البَرِّ.

فصل

اِبتدأ صاحبُ الترجمة حفظه الله في الفقه الشافعيِّ بِقراءة كتاب "المنهج"، للشيخ زكرياء الأنصاري رحمه الله تعالى، بِشرحِه أيضاً. وهذا الكتاب يُعتبر عند الشافعية كمُختَصَرِ خَلِيل عند المالكية موضوعاً وشكلاً. قرأه على الشيخِ عبدِ المُعْطِي الشّرْشِيمِي أَحَدِ علماء الهيئة بِالأزهر. وليس المراد بالهيئةِ العِلم المعروف، الباحثَ في الأجرام العُلْوية، وإنما المراد به ما اِصطَلَح عليه الأزهريون مِنْ تسمية جماعةٍ مِنْ كبار العلماء الذي ينعقد بهم مجلس إدارة الأزهر ويَرجع إليهم القولُ في أموره بعلماء الهيئة، أَيْ هيئة علماء مجلس الأزهر.

وقد قرأ عليه مِنْ أول الكتاب إلى كتاب الحجِّ. وقرأ آخِرَ "المنهج" بِشرْحِ المصنِّف كذلك على الشيخ المُحقِّقِ محمد عِزَّت.

ومِنْ كُتب الفقه الشافعي التي قرأها "متن التحرير" لِلشيخ زكرياء الأنصاري بشرحِه أيضاً، مِنْ أولِه إلَى ما يَقْرب مِنَ النِّصفِ أو يزيد، علَى الشيخِ عبدِ الوهَّابِ سليم الضَّرير. وقرأ "متن أَبِي شُجَاعٍ" وهو كتابٌ مختصٌّ في فِقه الشافعية بِشرحِ الإمام تَقِيِّ الدِّين الحِصني، وهو شرحٌ لطيفٌ محرَّرٌ مفيدٌ للغاية، على شيخِه العلَّامة المطَّلِع المحقِّق الشيخ عبدِ السَّلامِ غُنَيم الدِّمْياطي، الضَّرير، وختمه عليه. وكان يقرأ عليه في داره لأنَّه كان ملازماً له، وبِه كان جُلُّ اِنتفاعه.

فصل

وأمَّا عِلمُ أصول الفقه، فقرأ "جمْع الجوامِع" مع شرْحِ الجلال المَحلِّي، مِنَ الكتاب الأول إلى آخر الكتاب، علَى شقِيقِه أَبِي اَلْفَضْلِ العلَّامة المُحقِّقِ المحدِّثِ سيِّدي عبدِ الله، بالرِّواقِ العَبَّاسي بالأزهر.

وقرأ "لُبّ الأصول" بِشرح المصنِّف الشيخ زكرياء الأنصاري، على الشيخ العلَّامة المُشارِكِ بالتحقُّق في علومٍ كثيرةٍ، محمود الإمام المَنْصوريِّ، ولم يقرأ عليه سِوَى المقدِّمة.

وهنا حكَى لي صاحبُ الترجمة أَنَّ هذا الشيخَ كانت طريقتُه في القراءة على نَمطٍ غريبٍ وشكلٍ عجيبٍ تُوجِبُ المَلَلَ. لأنَّه كانَ يحبّ التحقيق والبحث إلى درجة لم يَرها في أحدٍ من أهلِ العصر، وكان كل درسٍ يقرأه يطالع عليه عِدَّةَ كُتبٍ مِنْ شروحٍ وحواشي وتقريراتٍ، ويزيد فوق ذلك أَنَّه يكتب تقريراتِه هو الآخر؛ ولهذا يقول المترجَمُ له: "كُنّا نمكث ساعة ونصف الساعة مِنْ غير أَنْ نقرأَ مِنَ المتن شيئًا، لأجْلِ إيراد الاعتراضات والتوجيهات، مع سرْدِ ما كتبه هو. ولذلك كان الطَّلبة يهربون مِنْ دروسه ولا يُحبون الحضورَ عليه". وقد قال الشيخُ مراراً لِصاحِبِ الترجمة: "أنا لا تَسمحُ لي نفسي بقراءة كتابٍ مِنْ غير كتابةٍ عليه وبيانِ صوابِه مِنْ خطئِه، كما أنني لا أحبُّ أَنْ أقرأ على الطَّلبة كلاماً أعرف أَنَّه باطلٌ لا يُوافق الصَّواب". ولأجل ذلك، كان هذا الشيخ يتكلَّف للدرس غايةً، وزاد صاحِبُ الترجمة قائلاً: "وقد مكثْنا نقرأ قولَ الشيخِ زكرياء الأنصاري في "لُبّ الأُصول" التعادلَ والتراجيح مدَّةَ أيامٍ، وكلُّها بحثٌ في قوله التعادل بصيغة المفردِ، والتراجيح بصيغة الجمْعِ. فلِماذا أَفرَدَ الأولَ وجَمَعَ الثاني؟

وهذه الطريقة في القراءة وإنْ كانت نافعة، لكنها لا تَصلُح لِمن يُريد أَنْ يتعلَّم قواعدَ الفنِّ ويَحصل على مقاصده، وإنَّما تَصلُح للمنتهين الذين أدركوا مراميه وعرفوا دقائقه".

وقرأ "لُبَّ الأُصول" أيضاً على الشيخِ محمدِ عبدِ اللطيفِ المالكيِّ، ولم يختمه.

فصل

وأمَّا النَّحو، فقرأ "أَلْفية اِبْنِ مالِكٍ بِشرحِ اِبنِ عَقِيلٍ" على شيخِه العلَّامة عبدِ السلامِ غُنَيم الدِّمْياطيِّ، وخَتَمه؛ وكان يقرأ عليه في منزله. وقرأ "أَلْفِية اِبْنِ مالِكٍ بِشرحِ اَلْأَشْموني" إلَى بابِ المُعْرَبِ والمَبْنِي، على الشيخِ محمودِ الإمامِ المنصوري، بالجامِعِ الأزهر. وقرأها بِشرحِ اِبْنِ عَقِيلٍ أيضاً على بعض الشيوخ إلى باب النَّعتِ بالجامع الأزهر.

فصل

وقرأ "متن إيساغُوجِي" في عِلمِ المنطِقِ، على الشيخ عوَض الصَّعِيدِي، ولم يَقرأْ عليه إلَّا أياماً قليلةً ثم تركه. وحكَى لي السببَ في تركِهِ لهذا العِلم، يعني عِلْمَ المنطق، أَنَّه حصل له أمرٌ أوجب له ترْكه وطَرْحه بالمرَّة وعدم الالتفات إليه.

وذلك أَنَّه بعد أَنْ شرع في قراءة "متن السُّلَّمِ" المعروف في هذا العِلم على شيخه العلَّامة عبدِ السَّلامِ غُنيم بِشرْحِ المصنِّف، ووصل فيه إلى القياس مع مطالعة بعض الكتب الأخرى المُطولة في هذا العلم، حصل له نوعُ ذهولٍ ونسيانٍ لكثيرٍ مِنَ الأمور؛ قال: "حتى أَنِّي صرتُ لا أضبط اليوم الذي أنا فيه، بل بلغ بي الحالُ أَنِّي إذا وضعتُ شيئاً كان في يدي في محلٍّ لا أذكره، وإذا دخلتُ إلى المسجد لأجل

الصلاة ووضعتُ كتاباً يكون معي، أخرجُ وأتركُه. ثم قال: وبقيتُ هكذا مدَّةً، وضاق بي الأمرُ جدًّا إلى أَنْ وفَّقني الله تعالى لِتركِ قراءة عِلْمِ المنطق. فرجع إِليَّ الحالُ الذي كنتُ عليه، وذهب عنِّي ما كنتُ أجد. وعوَّضني اللهُ سبحانه وتعالى عن عِلمِ المنطق بِما هو خيرٌ منه، وهو عِلمُ الحديثِ.

فإِنَّني -يقول صاحبُ الترجمة- بمجرد إعراضي عنه مباشرةً أُلْهِمتُ مطالعة كُتب الحديث، وقراءتها والاشتغال بها. واستمرَّ بي الحالُ على ذلك إلى أَنْ رزقنِي اللهُ تعالى إتقانَ علم الحديث ومعرفتَه، فعلِمتُ أَنَّ اللهَ تعالى جعله لي عوضاً عن المنطق".

ثم قال لي صاحبُ التَّرجمة: "ومِثلُ ما وقع لي أنا في عِلم المنطق وقع للإمام النَّوويِّ رضي الله تعالى عنه في عِلم الطِّبِّ. فقد حكَى الحافظُ السَّخاوي رحمه الله في الجزء الذي جمعه في ترجمة النَّووي عنه، أَنَّه قال: ((.. وخطر لي الاشتغالُ بِعِلم الطِّبِّ، فاشتريتُ "القانون" وعزمتُ على الاشتغال به. فأَظْلَمَ عليَّ قلبي، وبقيتُ أياماً لا أقدر علَى الاشتغال بشيءٍ. ففكَّرتُ في أمري مِنْ أين دخل عليَّ الداخل؟ فأَلْهَمني الله تعالى أَنَّ اشتغالي بالطِّبِّ سببه؛ فبِعتُ في الحال الكتاب المذكور، وأَخرجتُ مِنْ بيتي كلَّ ما يتعلق بالطِّبِّ، فاستنار قلبي، ورجع إليَّ حالي، وعُدتُ لِما كنتُ عليه أولاً..)).

ثم قال لي المترجَم له: ووقع للحافظ السيوطي رحمه الله أيضاً مثل ما وقع لي في عِلم المنطق، كما حكَى ذلك في ترجمته في "حُسن المُحاضَرة" قال: ((.. وقد كنتُ في مبادِئِ الطَّلبِ قرأتُ شيئاً مِنْ عِلم المنطق، ثم ألقَى اللهُ كراهيتَه في قلبي، وسمعتُ أَنَّ ابنَ الصَّلاحِ أَفْتَى بتحريمه، فتركتُه لذلك. فعوَّضنِي الله تعالى عنه عِلم الحديث الذي هو أشرف العلوم..)). قال صاحبُ الترجمة: وَلاَ غرابةَ في هذا، فإِنَّ العلمَ رزقٌ، وكلُّ واحدٍ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له؛ فإذا ذهب مَنْ هيَّأه الله لِشيءٍ إلى شيءٍ لم يجعل اللهُ له نصيباً فيه، فلا شكَّ أَنَّه لا

يجد تيسيراً في البحث فيه، ولا توفيقاً في الاشتغال به.

ثم قال: ومِثلُ هذا وقع لِشقيقِنا أَبِي الفَيْضِ رحمه الله في عِلمِ النَّحوِ، فإِنَّه كلَّما أراد الاشتغالَ به بعد الانتهاء منه ومراجعة كُتبِه أُصيبَ بما يَكره. وقد حكَى رحمه الله أَنَّه لَمَّا شرع في قراءة "الأَجْروميَّةِ" مع الطَّلبةِ توفيت السيدةُ الوالدةُ رضي الله تعالى عنها، ثم ترك ذلك. وبعد وفاتِها بنحو أربعة عشر عاماً أراد أَنْ يُحيِيَ ما دَرَسَ عنده مِنْ مسائل النَّحوِ وغفل عنه، فأَحْضَرَ "التصريح على التوضيح" لِلأزهري، ولم يَلبثْ إِلَّا قليلاً حتى جاءه الخبرُ بوفاة مولانا الوالد رضي الله تعالى عنه؛ قال: وعند ذلك تحققتُ أَنَّه لم يَبقَ لي الإذنُ في الاشتغال بهذا العلم، وعزمتُ على عدم النظر في كُتبِه".

فصل

وأَمَّا التفسيرُ فقرأ على الشيخ محمد عِزَّت الشافعي ما تيسَّرَ مِنْ "تفسير الجَلَالَيْنِ"، وإنتفع بِتقريره في ذلك. وكان يَضمُّ إلى ذلك شيئاً مِنْ حاشية الصَّاوي والجَمل على الجَلالَيْنِ. ولم يقرأ مِنَ التفسير على غيره شيئاً إِلَّا بعض الدُّروس كان يَحضرها في بعض الأحيان على الشيخ عليٍّ سُرور الزَّنكالوني في "الكَشّاف" لِلزمخشري، بالرِّواقِ العَبَّاسِي بالأزهر.

فصل

وأَمَّا عِلم الكلام، فقرأ "الجوهرة" بِشرحِ اللَّقاني على الشيخ عبدِ السلامِ غُنيم الدِّمْياطي في داره. وإنتفاعُه الأعظمُ كان بهذا الشيخ، فإِنَّه لَزِمَه مدَّةَ خمس سنواتٍ، وكان يقرأ عليه في بيتِه. وبدأ القراءة عليه قَبل ذهابِه إلى الأزهر.

قال صاحبُ الترجمة: "وكان يُعجبني تقريرُه وشرحُه، لأنَّه كان ضريراً، وكان يُملِي شرْحَ المتنِ الذي أَقرأه بِما يَظهر له، ثم أقرأ عليه الشرحَ فآخُذُ منه معنَى المتن إجمالاً، ثم يُبيِّنُ ويُفصِّلُ أثناء قراءة الشرح. ولم أنتفع بأَحدٍ كما إِنْتفعتُ به رحمه الله تعالى وجزاه خيراً".

فصل

وأَمَّا عِلمُ الحديث، فقرأ "النُّخبة" علَى شقِيقِه أَبِي الفَيض بِطَنْجَة قَبل سفره إلى مِصْرَ، وذلك في المنزل. ولَمَّا رَحَلَ صاحبُ الترجمة إلى مِصرَ، قرأ علَى شقِيقِه أَبِي الفَضْلِ العلَّامةِ المُحقِّق سيِّدي عبدِ الله، أبواباً مِنْ "أَلْفِيَةِ العِراقي" في المُصطلح بِشرْحِ المُصنِّف، ولم يتيسَّر له ختمُها عليه.

قال صاحبُ الترجمة: "فهذا ما تيسر قراءتُه على الشيوخ مِنَ العلوم والفنون، وهو شيءٌ قليلٌ بالنسبة إلى ما يقرأه الناس. ثم قال: ولكن أعانني مع ذلك على التفوق المثابرةُ على المطالعة والاشتغال والبحثِ، ليلَ نهار. فإِنَّ القراءةَ على الشيوخ وحدَها لا تكفي ولو قرأ الإنسانُ على ألفِ شيخٍ، وإنما هي مفتاحٌ لباب الفهم لا غير. وذلك يحصل بِأدنَى شيءٍ إذا كان عند الرجل ذكاءٌ وهمَّةٌ، ولهذا -زاد قائلاً-: رأينا في مِصرَ مَنْ لازَمَ الطَّلبَ عشرين سنةً أو أكثر، وقرأ على الشيوخ الكُتبَ الكِبارَ وختَمَها، وهو مع ذلك لم يخرج عن دائرة الطَّلبِ، ولا يَستطيع أَنْ يقول بِرأيِه في شيءٍ أصلاً. والسببُ في هذا إِعتمادُهم على ما يَقرؤونه علَى الشيوخ مِنْ غيرِ أَنْ يُوَسِّعوا مداركهم بالبحث والمطالعة في الكُتب التي تُعِينُ علَى تحصيل المَلَكة، وتربيةِ الفَقاهة في النَّفس".

فصل

وكان حفظه الله عند بدْئِ الاشتغال وطلَبِ العِلم، ترك الكتابةَ التي كانت محبَّبةً إليه وعزيزةً عليه، لِأَجْلِ الطَّلبِ، واِقتصر منها علَى يومي الخميس والجمعة، ومكث على هذا الحال مدَّةً مِنَ الزمن؛ قال: "ولَمَّا آنسْتُ مِنْ نفسي الاستغناء عن الشيخ في فهْمِ القضايا والمسائل، رجعتُ إلى الطريقة التي كان يُرغِّبني فيها والدِي رحمه الله، ويُوصِيني بالعناية بها وهي: الكتابة والتأليف. وكان أوَّلُ عملٍ بدأتُ به بعد رجوعي إلى الاشتغال بالكتابة كتابة مقالاتٍ في مواضيعَ مختلفةٍ في مجلَّاتِ: "الإسلام"، و"الشفَق"، و"الخلود"، ثم جريدة "النذير"، وهي جريدةٌ تَصدر عن جماعةِ شبابِ سيِّدِنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم.. وقال: ثم اِقتحمتُ ميدانَ التأليف، فكتبتُ بعضَ الرسائل، منها: "رسالة في الأحاديث الدَّالَّة علَى اِطِّلاعِ الأموات علَى أعمالِ الأحياء"، ورسالة في القيام لِلجنازة سمَّيتُها: "رَفْع الحَزازَةِ في القِيامِ لِلْجنازة"، ولم أُتِمَّها، ورسالة "نَظْم اَللَّآلِ فِيما أخذه الشَّمسُ اِبنُ طُولُون مِنْ كُتبِ الجَلَال"، يعنِي الجَلال السيوطي؛ ثم قال: وفي هذه الأثناء كنتُ مشتغلاً بقراءة "جَمْع الجوامع"، و"ألفِيَة العِراقي" في المصطلح.

ومع كلِّ هذا كنتُ أُحسُّ بالنقص وأقول في نفسي: كلُّ ما اِشتغلتُ به إلى الآن غير مُجْدٍ ولا نافِعٍ ولا مفيدٍ، لأنَّه لا يخلو عن وسائلَ يُتوصَّلُ بها إلى غايةٍ، وطريقٍ يُسلَكُ منها إلى نهايةٍ. وكنتُ أجد نفسي لا أخرج عمَّا يعرفُه كلُّ الناس ويشتغل به جمهورُهم، ففكرتُ فوجدتُ غايةَ تلك العلوم والمرادَ منها أولاً وآخراً هو شيء واحد: وهو فهْمُ كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِه صلى الله عليه وآله وسلم. وما دام الإنسان لم يَخُض في شيءٍ مِنْ ذلك ولم يَسلك سبيلَ ما هناك، فهو يَخبطُ خبْطَ عشواء ويَركبُ متْن عمياء، لا يريد قطْعَ الطريق ولا إنالَةَ وطَرِهِ وإناخَة

راحلَتِه، فهو كالـمُنْبتِّ لا أرضاً قَطَع ولا ظهْراً أبقَى؛ فَمِنْ عِلمٍ إلى عِلمٍ ومِنْ كتابٍ إلى كتابٍ، حتَّى يأتي الأَجَلُ وهو لم يَزل في الطريق يَسيرُ. وذلك علَى مَنْ يريد الرِّبحَ والفوزَ عسيرٌ غيرُ يسيرٍ.

فشمَّرتُ -يقول حفظه الله- عن ساق الجِدِّ والاجتهاد، وشرعتُ في الاشتغال بِعِلمِ الحديث وحدي، معتمداً على الله تَعالَى وحده فِيما يَمنحني فيه مِنْ فُيوضاتٍ ومواهبَ وفتوحاتٍ. إذْ لا يُوجَدُ في مِصْرَ علَى اِتِّساعِها وكثرةِ علمائِها مَنْ يُتقن النظرَ في كِتابٍ مِنْ كُتبِ الحديث، فضلاً عن فهمِه ودراستِه، شأنُهم في ذلك شأن سائر البلاد، لا شُغلَ لهم إلَّا بِما يَنفعهم في دُنياهم ويَجرُّ الأرزاقَ إليهم مِنَ العلوم التي يَجدون لها أسواقاً رائجةً بين سائر الطبقات. وأمَّا ما ينفع في الدِّينِ والأُخْرَى، ويَجرُّ الرِّبحَ الذي لا يَفنَى ولا يَنفَد فهُمْ عنه معرِضُون وبه جاهلونَ ولِأَهلِه مُحارِبون. ولا حول ولا قوة إلَّا بالله".

وقال حفظه الله:

"وقد أَمدَّني اللهُ جلَّ شأنُه بِقوةٍ وأعانني بِفضلِه، ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾، ففتح اللهُ لي أبوابَ هذا العِلمِ علَى مِصراعيها، فدخلتُ منها كلِّها، وأخذتُ مِنْ فنونِه وعلومِه ما أقرَّ اللهُ به عيني وأكرمني به دون أهلِ عصري، فلَهُ الحمدُ والمِنَّةُ والشكرُ علَى ما أعطَى ومَنحَ ووَهبَ. وبلغتُ فيه شأواً رفيعاً وذروَةً عُليَا ومقاماً أسنَى، ونزلتُ فيه منزلاً أسمَى، وحرَّرتُ فيه الكُتبَ الجيادَ والرسائلَ الحِسانَ، بشهادة أهلِ العِلم في الشَّرقِ والغربِ، وذلك فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاء مِنْ عبادِه".

فصل

قال لي صاحبُ الترجمة: "ولِما ذكرتُه لكَ أولاً مِنْ خلُوِّ الدِّيارِ مِنْ عالِمٍ بهذا العِلمِ الشريفِ، يَرجعُ إليه الإنسانُ كما هي العادةُ والسنةُ الجاريةُ في الكون في فهْمِ ما صَعُبَ على الذِّهنِ مِنْ مسائل الفنِّ، حصلَتْ لي في أولِ الأمر صعوبةٌ في اِختيارِ الطريقِ التي أسلُكها لِدراسةِ عِلمِ الحديثِ ومطالعةِ كُتبِه، تكون سهلةَ السلوك لِنَيلِ المراد منه، ففكَّرتُ فوجدتُ أَنِّي إنِ اِقتصرتُ على مطالعة كُتبِ المصطلح يَطولُ الأمرُ علَيَّ جدًّا، لِأَنَّ المرادَ مِنْ كلِّ عِلمٍ تطبيقُ قواعده على أمورٍ تَحدثُ للإنسان وتَعْرضُ له، وكُتبُ المصطلَحِ وحدها مع كونها لَازِمة لمعرفة اِصطلاحاتِ الفنِّ لَا تَفِي بهذا الغرض مطلقاً، لأنِّي قرأتُ شيئًا منه كما تقدَّم، وأخذتُ منه جملةً لا بأس بها، ومع ذلك وجدتُ نفسي بعيداً عن المراد جدًّا، ولم يُمكني مِنْ قراءة ما قرأتُ مِنَ المصطلح أَنْ أُطبِّقَ قاعدةً مِن قواعده علَى مسألةٍ مِنْ مسائل عِلمِ الحديثِ.."

ثم قال: "وهُنا أقف وقلبي مملوء إجلالاً واِعترافاً بِما كان عليه مولانا الوالد رضي الله عنه مِنَ النظرِ الثَّاقبِ والفِراسةِ الصَّادقةِ والكشفِ المؤيَّدِ بِنورِ الله سبحانه وتعالى، وكونه يُحدِّثني بأمورٍ في صغري وأنا غيرُ أهلٍ لها، ولا مِنَ العارفين لِقيمتِها المقدِّرينَ قدرها، لِأنَّها سَتَحدثُ لي في المستقبل، وفي الوقت الذي أكون محتاجاً فيه إلى إرشاداتِه وتوجيهاتِه ولا يكون موجوداً بيننا.

وذلك أَنِّي أذكر ُوأنا في سنِّ الصِّبا لا أعرف معنىً للعِلم مطلقاً فضلاً عن الحديث، أتيتُه بكتاب "اللَّآلي المصنوعة في الأحاديثِ الموضوعة" للحافظ السيوطي رحمه الله، مِنْ عند بعض باعة الكُتبِ لِيشتريَه، فقال لي رحمه الله: ((خُذْهُ أنتَ، فإنَّه نافعٌ جدًّا، وبه فهِمَ فُلانٌ وفُلانٌ الحديثَ فهْماً جيِّداً)).

فأخذتُ منه هذا القولَ في ذلك الحين ولم أحسبْ له حساباً ولا أَقمتُ له وزناً، بل صِرتُ أتعجَّبُ كيف يكون ذلك الكتابُ هو أستاذُ ذلك الرَّجلَين مع ما هُما عليه مِنَ الشهرة في هذا العِلم!!.

ثمَّ مع ذلك كلِّه، لَمَّا فتحتُ "اللَّآلي المصنوعة" لِأَنظرَ فيه لم أفهم اِصطلاحَه مطلقاً، ولا عرفتُ في أيِّ موضوعٍ يتكلم؟ فتركتُ الكتابَ عندي اِمتثالاً لِأَمرِهِ لا غير. وبقيَتْ كلمتُه في كونه كان سبباً لِمعرفةِ الحديثِ لذلك الرجلين في أُذني مرتسمةً محفوظةً، كأنِّي سمعتُها في الحين، إلى أَنْ جاء الوقتُ الذي تنفعني وترشدني في حيرتي وتَسلك بي الطريقَ القريبَ الذي أريد أَنْ أتوصَّلَ به إلى عِلمِ الحديثِ الذي تَعلَّق به قلبِي، وصِرتُ أتحدث به مع نفسي ليلَ نهار.

فما أَنْ رجع ذهني إلَى هذه الكلمة في شأن "اللَّآلي المصنوعة" حتَّى سُرِيَ عنِّي تماماً، وزال عن نفسي الاضطرابُ الذي كنتُ أتخبط فيه، وأُقدِّم مِنْ أجله رِجلاً وأؤخرُ أخرَى في شأن كيفية أخذِهِ والاشتغال به. فمددْتُ يدي إلى الكتاب وكان على مقربةٍ منِّي وشرعتُ في قراءته مِنْ أولِه، ولم أَكَدْ أقرأ منه النصفَ حتَّى شعرتُ بِأَنَّ البابَ لِفهْمِ الحديثِ قد فُتِح، وأَنَّ الطريقَ لِمعرفة الصحيح مِنَ السقيم قد قَصرت، وأَنَّ الغايةَ المرجُوَّةَ قريبةُ المنال قد لاح في الأفق نورُ فجرِها.

ثم قال حفظه الله: فمضيتُ في قراءة الكتاب ومواصلة النظر فيه، وزادني اِنتفاعاً به، أَنَّه تَيسَّرَ لي أثناء مطالعتِه بعضُ الأجزاء الحديثِيَّةِ. فكنتُ أقرأها وأراجِعُ عليها ما علِقَ بذهني مِنْ أحاديثِ "اَللَّآلي"، وأستدركُ منها على السيوطي رحمه الله مالم يَذكرْه وفاتَه الوقوف عليه. فخرجتُ بهذه الطريقة مِنْ قراءتِه لِلمرَّةِ الأُولَى بِعِلمٍ عظيمٍ جمٍّ وفائدةٍ جليلةٍ جدًّا، وأَمكَنَ لي لِأَوَّلِ مرةٍ مِنْ قراءتِه الاستدراكُ والاعتراضُ والتنبيهُ على بعض المسائل المتعلقة بالأحاديث في المتن والإسناد.

وكتبتُ على هامش نسختي مِنْ ذلك ما جرَّدتُه في جزءٍ مستقِلٍّ سمَّيتُه: "الجواهر الغَوالي في تعليقاتِ اللَّآلي"..".

ثم أضاف المترجَمُ له يقول: "وبعد الانتهاء مِنْ قراءة كتابِ اللآلي، وجدتُ نفسي قد أخذتُ مِنْ عِلمِ الحديث ما أخوض به غِمارَه، وأقتحم به سَهلَه وصعبَه. لِأنِّي تعلَّمتُ مِنَ "اَللآلي" أهَمَّ شيءٍ يحتاج إليه المُحدِّثُ بل هو غايةُ كلِّ محدِّثٍ، وهو نقْدُ الرِّجالِ، وسبْرُ الطرقِ، وتمييزُ الصحيحِ مِنَ الضعيف مِنَ الموضوعِ، مِنْ أول نظرةٍ في متن الحديث، مع الاطِّلاع على جملةٍ وافرةٍ مِنْ متون الأحاديث الموضوعة وغير الموضوعة.

ثم شرعتُ بعده في قراءة كُتبِ التخريج، وهي كبيرةُ النفعِ جليلةُ الفائدةِ في الباب، تُقرِّب الأقصى مِنْ عِلمِ الحديث، وتُعِينُ على معرفة القواعد وتطبيقها، وتُسهِّل طريقةَ النَّقدِ، لأنها خلاصةُ أفكار الحُفَّاظ في الحكم على الأحاديث مِنْ تصحيح وتضعيفٍ وبيان دليلِ كلِّ واحدٍ منهم، وزُبدة أقوالهم في نقْدِ الرجال وبيان عِللِ الأحاديث.

ثم أضاف قائلا: وفي كلِّ هذا عِلمٌ عظيمٌ لِمن تَدبَّره وفهمه حقَّ الفهم، زيادة علَى الاطِّلاع علَى طُرقِ الأحاديث، ومعرفةِ المتابَعاتِ والشواهِدِ. ففائدةُ كُتبِ التَّخريجِ لِمَنْ يريد التَّفوقَ في عِلمِ الحديث لَا يُنكرها إلَّا مَنْ لا يُقدِّر قدْرَ هذا العِلم، ولا يعترف بِمزيتِه وخصوصيتِه عموماً..".

فصل

وقد قال لي المترجَمُ له: إنَّ أول كتابٍ قرأه في هذا الباب: تخريج أحاديث مسنَدِ الشِّهاب، لِشقيقِه أَبِي الفَيْضِ رحمه الله، المُسمَّى "مُنْيةُ الطُّلَّاب". وهو وإنْ كان غير محرَّرٍ ولا معتمَدٍ عنده، لِأنَّه أَلَّفه في مبدإِ اِشتغالِه بالفنِّ، إلَّا أنَّه يحتوي على فوائد وفيه نُقولٌ لا بأس بها، فلا يخلو مِنْ فائدةٍ رغم كون مؤلِّفِه كَتَبَ عليه إنَّه غيرُ معتمَدٍ عنده، علَى أنَّه قال: "ربَّما يوجد فيه ما لا يوجدُ في التخريج المُحرَّر"..

وقد علَّق عليه صاحبُ الترجمة قائلا: "وعيبُه الوحيدُ هو أنَّه تبع في عزْوِ بعض الأحاديث مَنْ تقدَّمه كالسَّخاوي في "المقاصد الحسنة"، والسيوطي في "الجامع الصغير"، فلم يقِفْ على الكتب المَعْزوَّةِ إليها تلك الأحاديث بنفسه. فلأجل هذا وقع فيه مِنَ الوهم ما يقع لِمن يعتمد في التخريج على غيره.

ثم قال: وقد اِستدركتُ عليه أثناء قراءته طُرقاً لم يقِفْ عليها أَبُو الفَيضِ، وكتبتُ ذلك على هامش تلك النسخة التي كانت بِخطِّه..".

ثم قرأ حفظه الله بعد كِتاب شقيقِه أَبِي الفيضِ رحمه الله كتابَ "التَّلخيص الحَبير في تخريج أحاديث الشَّرحِ الكبِير" للحافظ اِبنِ حَجَر رحمه الله تعالى، وقال عنه: "وهو كتابٌ في غاية النَّفاسةِ والجودةِ، أَظهَرَ فيه الحافظُ براعةً فائقةً كعادته في جميع مصنَّفاتِه في هذا العِلم، وقد أثنَى على "التلخيص" الحافظُ السيوطي في رسالته "بلوغ المأمول في خدمة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم" بِقوله: ((وفي هذا الكتاب الجليل مِنْ نفائس الصناعة الحديثِيَّةِ ما لا يَعرفُه إلَّا المتبحِّرُ في الفنِّ كمؤلِّفِه..))".

وقرأ أيضاً تخريجَ أحاديث الكَشَّاف لِلحافظ اِبنِ حَجَر، المُسمَّى "الكَافِي الشَّافِ"، وهو مختصَرٌ مِنْ تخريج الزّيلَعِي لِأَحاديثِه. لكنَّ الحافظَ زاد عليه تخريجَ الآثار الموقوفةِ.

ثم قال المترجَمُ له: "وقرأتُ كذلك تخريجَ أحاديث "الإِحياء" للحافظ العِراقي رحمه الله، المسمَّى "المُغْنِي عن حَمْلِ الأسفارِ"، واِستدركتُ عليه فوائدَ مهمةٍ. ومِنْ أَعجَبِ ما وقفتُ عليه فيه إنكار العِراقي رحمه الله لِحديثِ عِمْرانَ بنِ حُصَينٍ في عِيادةِ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم لِفاطِمَةَ عليها السلام وقولِه لها: «إِنَّكِ أَولُ أَهْلِي لُحُوقاً بِي». فقد قال العراقي بعد تخريجِه مِنْ طُرقٍ أُخْرى: ((لا يوجد عن عِمرانَ بْنِ حُصَين)). مع أَنَّه موجودٌ مِنْ حديثِه، رواه الطَّحاوي في "مُشكل الآثار". كما اِستدركتُ عليه مسائلَ أخرى كتبتُها على هامش نسختي".

ثم قال: "وقرأتُ أيضاً مِنْ كُتب التخريج: "نَصْب الرَّاية" لِلحافظِ الزّيلَعِي في تخريج أحاديثِ "الهداية"، لكن لم يُسعدني الحظُّ بقراءته كلِّه، وهو كتابٌ نفيسٌ للغاية، بل مِنْ أنفَسِ ما كُتِب في أدلَّةِ فِقه الحنَفِيَّة. وقرأتُ كُتباً أخرى مثل تخريج أحاديث "الشِّفا" لِلحافظ السيوطي، المسمَّى "مناهل الصَّفا"، وهو مختصَرٌ جدًّا يحتاج إلى تتميمٍ وتكميلٍ. وقرأتُ تخريج أحاديثِ النَّسَفيَّة لِلسيوطي أيضاً.

ثم قال: وقد اِنتفعتُ بقراءة هذه الكتب غايةً، وحصل لي بسببها فتحٌ عظيمٌ ودرايةٌ في عِلمِ الحديث، والحمد لله تعالى".

ثم حكَى لي حفظه الله قائلا: "وبعد ما آنستُ مِنْ نفسي الخبرةَ بهذا الفنِّ، أردتُ أَنْ أمتحنَها لِأَعرفَ الرتبةَ التي بلغتها فيه، فشرعتُ في جمْعِ كتابٍ نقدتُ فيه موضوعات الصَّغاني. لِأَنَّ بالكتابةِ تُعرف فَقاهةُ النفس، وبالجمع والتأليف تُعرف قوةُ المَلَكةِ الحاصلة في الفنِّ، لِما يُحتاج في ذلك مِنَ الإحاطة بالأقوال وتمييزِ صحيحها مِنْ ضعيفِها، ومعرفة سلامةِ دليلِ كلِّ قولٍ مِنَ الضعف والوهن؛ فجاء بحمد الله تعالى كِتاباً قيِّماً مفيداً جامعاً، يدلُّ على خبرةٍ وإتقانٍ، وسُرَّ به مَنْ

رآه مِنْ أهل العِلم، لاسيما مَنْ يشتغل بهذا العِلم، وسمَّيتُه: "بُلوغ الأَماني مِنْ موضوعاتِ الصَّغاني".

ولَمَّا أرسلتُه إلى الشقِيقِ أَبِي الفَيْضِ واطَّلعَ عليه سُرَّ به، وقال لي فِيما كتبه إلَيَّ مِنْ طَنْجَة: ((كانَ ينبغي أَنْ تُسمِّيهِ "هَزِيج الأَغانِي" لإطْرابِه بفوائدِه قارِئَه..)).

لا سِيَما وقد قدَّمتُه بمقدمةٍ في ذِكر الكتب المؤلَّفَةِ في الموضوعات، مع ذِكر مرتبتِها في الفنِّ، وبيان قيمة كلِّ كتابٍ منها، مع ذِكر الأسباب الحاملة لِلوضَّاعين على وضْعِ الحديث، مِمَّا يَقلُّ الوقوف عليه لِلمبتدِئِ مجموعاً في موضوعٍ واحدٍ أو في كتابٍ واحدٍ.

وعند ذاك اِتَّبعتُ الكتابةَ والتأليفَ، ومطالعةَ كُتب الفنِّ صغيرِها وكبيرِها. وقد طالعتُ مِنَ الأجزاء الحديثيَّةِ الصغيرةِ والكتبِ الكبيرةِ في الحديث الشيءَ الذي لم يتيسَّرْ لِمَنْ هو أكبر منِّي الوقوف عليه، والحمدُ لله ربِّ العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيَّ".

وهُنا ذكر لي حفظه الله، أَنَّه مما مَنَّ اللهُ به عليه وأكرمه به دون كثيرٍ مِنَ الناس في هذا العصر، حب الاعتكاف على المطالعة ومواصلة الأيام بِلَياليها في قراءة الكُتب مع عدم المَلَلِ والضَّجرِ، وبذلك تَيسَّر له ولله الحمدُ والمِنَّةُ قراءة عدَّة مجلداتٍ والوقوف على نفائس الفوائد في علم الحديث وغيره مِنَ العلوم الأخرى، كالتاريخ، وعِلمِ الخلاف، وأقوالِ الفقهاء في المذاهب الأربعة وغيرها.. وكان لذلك أعظم الأثر في حصوله حفظه الله على المقام الذي لم يظفر به كثيرٌ مِنَ الناس، مع طُولِ ملازمتِهم للشيوخ وكثرةِ شَدِّ الرِّحال إليهم.

وقد قال لي في الموضوع نفعنا الله بعِلمِه: "وكانت أوقاتي لَمَّا كنتُ بِمِصْرَ دائرةً بين الكتابة والبحث والمطالعة. وكنتُ أتردَّدُ على مكتبةِ دار الكتب المِصرية ومكتبة الأزهر، فتجِدني مرةً في هذه وأخرى في هذه. وتيسَّرَ لي بسبب ذلك قراءة

كُتبٍ نفيسةٍ ما سمع بها غيري، فضلاً عن أَنْ يقرأها، ونسختُ مِنَ المكتبتين ما كُنتُ أستطيع نسْخَه مِنَ الأجزاء الحديثِيَّةِ، وإنتقيتُ مِنَ الكتب الكبيرة ما كنتُ أرَى أنِّي سأحتاج إليه.

وهكذا كانت أيَّامي في مِصْرَ دائرةً بين المطالعة والكتابة، فإذا كنتُ في المنزل إشتغلتُ بالتأليف والمطالعة، وإذا خرجتُ قصدتُ إحدى المكتبتين المذكورتين لِمراجعة ما لا يُمكِنُ مراجعته إلَّا فيهما، فحصلَتْ لي مِنْ ذلك فائدةٌ جليلةٌ وإنتفعتُ أَيَّما إنتفاعٍ.

وفُتح لي بابٌ في عِلمِ الحديث لا يُفتحُ لِكلِّ أحدٍ إلَّا بعد مدةٍ مِنَ القراءة والبحث، وذلك الباب الذي فُتح لي هو معرفة نقْدِ الأقوال في الرجال، وكيفية الوصول إلى الحكم على سند الحديث بالقول السالم مِنْ دسائس أهلِ الأهواء والفِرَقِ الخارجة عن الحقِّ؛ وبعِبارةٍ أخرى إنَّني وصلتُ إلى الاجتهاد في هذا العلم. وقد صِرتُ ولله الحمد أقول قولي في سندِ الحديثِ وأنا مطمئنُّ البال طيِّبُ الخاطِرِ، لا تَشُوب نفسي شائبة الخوف مِنْ أَنْ أكونَ قُلتُ قولاً تَبعتُ فيه غيري مِنْ غير دليلٍ ولا برهانٍ؛ كما وقع لِلكثيرِ مِمَّنْ إشتغل بهذا العِلمِ مِنَ التردُّدِ والاضطرابِ في الكلام على الأسانيد، بحيث لا يُعطيكَ رأيَه أو حُكمَه على سندِ الحديث حتى يَطمئن إلى ذلك قلبُك وترتاح نفسُك. والسببُ في ذلك يَرجع إلى تقليدهم لِمَنْ سبقهم في الحكم وعدم الوقوف مع الدليل والبرهان، وتمحيص أقوال الرجال قَبْلَ أخذِها والعملِ بها.

وتابَعَ يَقول حفظه الله، وقد حصل لهم بسبب هذا أخطاءٌ وأوهامٌ وأغلاطٌ شنيعةٌ، لِأَنَّ الرجال يُعْرفون بالحقِّ لا الحق بالرجالِ.

وفي أثناء هذا نشبت الحربُ العالمية الثانية، وذلك في شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثة مائة وألف، 1358، الموافق لِتِسع وثلاثين وتسعمائة وألف، 1939، وتسبَّبَ عن ذلك أَنْ صارت الدِّيارُ المِصريَّـةُ مسرحاً للمعارك بين الجيوش

- جيوش المِحور: ألمانيا، وإيطاليا، واليابان؛ وجيوش الحلفاء: إنجلترا، وفرنسا، وأمريكا- واتخذوا مدنَها وقُراها هدفاً لغاراتهم بالطائرات. الأمرُ الذي دعا الحكومةَ المصريةَ إلى أَنْ تحتفظَ بالتحف النادرة القيمة في أماكنَ بعيدةٍ آمنةٍ مِنَ القنابل، وكان مِنْ بين الأمور التي شَمِلَها الحِفظُ الكتب الخطِّيَّة الموجودة بِدار الكتب، فصار مِنَ المتعذِّرِ الوقوفُ علَى الكتاب المطلوب إلَّا بصعوبةٍ.

ثم تَبع أَنِ اِستفحل أمرُ الغاراتِ بِشكلٍ فظيعٍ حتى صِرنا لا ننام مِنَ الليل إلَّا ساعةً أو ساعتين، ثم نستيقظ على صفَّارة الإنذار ودَوِيِّ الإنفجارات. وطلَبَتِ الحكومةُ مع ذلك عدم ظهور الضَّوءِ مِنَ النوافذ ليلاً وشدَّدتْ في ذلك، حتى صِرنا نأوي إلى مضاجعِنا في أول الليل. فَتَبلْبَلَ الفِكرُ لأجل ذلك، وضَعُفت الهمَّةُ مِنْ جرَّاءِ تلك الفتن؛ ومع كلِّ هذا وَذاك لم يَمُت النشاط تماماً، ولم تَخُر العزيمةُ بالمرَّةِ، بل كنتُ أغتنم ساعاتِ التَّسلِّي عن تلك الأحزان فأصرفُها في الجمع والتقييد.

وكتبتُ بين دَوِيِّ قنابل الطائرات وقصْفِ المَدافع المُضادة لها رسائلَ ومقالاتٍ، وقرأتُ رسائلَ ومجلَّداتٍ، والحمد لله ربِّ العالمين على مَنِّهِ وفضلِه.

واِستمرَّ الحالُ على هذا الأمر ما يقربُ مِنْ خمسِ سنواتٍ، ثم أخذ يذهب شيئًا فشيئًا إلى أَنِ اِنْجلَى الكربُ تماماً ومَنَّ اللهُ بالفرج، وعادت الأمورُ إلى نظامِها، وعُدتُ إلى ما كنتُ عليه سابقاً مِنَ البحث والمثابرة على المطالعة والكتابة، وكنتُ أمكث في أغلب الأحيان إلى ما يَقربُ مِنْ نصف الليل وأنا أقرأ أو أكتب. وختمتُ قراءةَ عدة كُتبٍ كثيرةٍ، كبيرةٍ وصغيرةٍ، ونسخْتُ بيدي عدةَ أجزاء حديثيَّةٍ، وذلك مِنْ فضلِ الله..".

فصل

قال صاحبُ الترجمة: "ولَـمَّا وضعَتِ الحربُ أوزارَها، وعادت المياهُ إلى مجاريها، وإستقرَّ الأمنُ في البحرِ، قدِمَ علينا شقيقُنا أَبُو الفَيْضِ رحمه الله مِنْ طَنْجَة، وذلك في سنة سِتٍّ وأربعين وتسعمائة وألف، فمَكثَ بِمِصْرَ مدَّةَ ثلاثَةِ أشهرٍ أو أربعة؛ ثم تهيَّأنا للرجوع إلى أرضِ الوطن، وكان رجوعُنا في شهر ربيع النَّبوي سنة ستٍّ وستين وثلاثمائة وألف، وبذلك ختمتُ إقامتي بِمِصْرَ، وإنتهَى ما كُتِبَ مِنَ الإقامة فيها، وكانت هذه الإقامة نحو إثنَيْ عشر عاماً.

وقد إنتفعتُ فيها إنتفاعاً عظيماً، حيث كان البالُ فارغاً ممَّا يَشغلُه، والفكرُ بعيداً عن كلِّ ما يُبلْبِلُه، والهِمَّةُ منصرفةٌ إلى العِلم بالمَرَّة، وإلى الله تُرجَعُ الأُمور.

وإستفدتُ زيادةً على هذا، مِمَّن كنتُ أقابلُه مِنَ الرجال الوافدين عليها، والقاطنين بها مِنَ البلاد الإسلامية، وإستجزْتُ بها جماعةً مِنَ الشيوخ، كما كاتبتُ منها شيوخاً في الحِجازِ، والشَّامِ، وغيرهِما..".

ثم قال المترجَمُ له حفظه الله:

"ومع كون حال مِصْرَ اليوم لا يُساعدُ المرءَ على التمسك بِدِينِه، ولا يَأمنُ المُقِيمُ بها مِنْ سقطاتٍ تُخِلُّ بِإِسلامِه لِمَا عليه أغلبُ أهلِها، لا فرق بين العالِمِ والجاهِلِ، والغنيِّ والفقيرِ، مِنْ فساد الأخلاق ومتابعةِ الأجانبِ في الصغيرِ والكبيرِ، وإحتقارِهِمْ لِكلِّ مَنْ يُخالِفُ طريقتَهم ويفارقُ مذهبَهم ومَنهجَهُم؛ ومع كلِّ هذا ولله الحمدُ لم أَخرجْ عمَّا يَأمرُ به الدِّينُ، ولم أَتَّبعْ غيرَ سبيلِ المؤمنين، ولم أسلكْ منهاجاً غيرَ المنهاج الذي وجدتُ عليه والِدِي رحمه الله تعالى ونشأتُ فيه وتربَّيتُ عليه، حتى كان الكثيرُ مِنَ المِصريِّين يَعْجبُ مِنْ حالي ذلك مع صِغَرِ السِّنِّ وفَوْرَةِ الشَّبابِ، وكلُّ ذلك بِفضلِ الله ومِنَّتِه، لا مِنْ حولٍ مِنِّي ولا قوة".

الباب الثّالث

فصل

ثم قال لي صاحبُ الترجمة حفظه الله:

"ولَمَّا عُدتُ إلى طَنْجَة مسقط رأسي، بعد أَنْ فارقتُه هذه المدة الطويلة، مكثتُ رَدْحاً مِنَ الزمان وأنا منصرفٌ عن الاشتغال على الطريقة التي كنتُ عليها بِمِصْرَ، لِكثرة العوارض الصارفةِ عن ذلك، بِمقابلة كثرة الإخوان، ومُجالَسةِ الأهلِ والأصدقاءِ، وغيرِ ذلك مِنَ الأمور التي تُلازمُ الإنسانَ في داره وأرضِ وطنِه.

وبعد فترةٍ مِنَ ذلك التوقف، عُدتُ بنفسي إلى الطريقة المعهودةِ وأرجعتُها إلى سيرتِها الأُولَى، وكان أول عملٍ قمتُ به بعد هذا التوقف تخريج أحاديث "التعرف" لِلْكَلَابَاذِي، وقد كنتُ شرعتُ فيه وأنا بالقاهرة ولم أَكَدْ أَصِلُ إلى نِصفِه حتَّى عَرضَ السفرُ والاستعدادُ للرحيلِ فتركتُه.

ثم تابعتُ ذلك بالكتابة والتأليف، فكتبتُ كتاباً لطيفاً في ذمِّ السِّمن سميتُه: "قَطْع الوَتِينِ مِمَّنْ يحبُّ السِّمَن ويَغْبط السَّمِين". وقُمتُ أثناء هذا بمهمة الخطبة في زاويتِنا، وقد كانت خُطبِي كلُّها تسرُّ السامعين وتأخذ بألبابهم، وتقع منهم موقعاً عظيماً جدًّا، بل صرح الكثيرُ منهم بأنهم لم يعودوا يستحسنوا خطبةَ خطيبٍ بعد سماعِهم لِخُطبِي، والحمدُ لله على فضلِه، وكان هذا عقِبَ نُزولِنا مِنْ مِصْرَ سنة سِتٍّ وسِتِّين وثلاثمائة وألف".

فصل

وهنا طرحتُ على صاحِبِ الترجمة السؤال الآتي: كيف وجدتُم الحالةَ العِلْمِيةَ في هذا الوقت بِطَنْجَة؟؟

فأجاب فَضِيلتُه قائلاً: "مِنَ المُسَلَّمِ به أَنَّ القاهرةَ أَيَّامَ كُنَّا مقيمين بها كان سوقُ العِلم رائجاً بها، وكان العلماء يأتون إليها مِنْ جميع البلاد الإسلامية، زيادةً على العدد الجمِّ مِنَ الطلبة المنخرطين في الجامع الأزهر مِنْ جميع الأقطار والأجناس. فكان حالُ المقِيمِ بها لأجْلِ هذا في اِشتغالٍ دائمٍ بالعِلم وحركةِ الفِكر تلقائياً، بطبيعة الاتِّصال والاجتماع بهذه الجموع التي تأتي القاهرةَ لأجل العِلم، والبحث في العِلم والاتصال بأهل العِلم.

فلأجل هذا، كُنَّا في القاهرة في أغلب أيامِنا نبحث ونتذاكر في المسائل العلمية، ونتذاكر في كُتب العِلم وما نُشِر منها وما لم يُنشَر؛ أَضِفْ إلى هذا ما كان يُصدَرُ كل يومٍ وكل أسبوعٍ وكل شهرٍ مِنَ المجلات العلمية التي تبحث في القضايا العلمية وحركة العِلم، فكُنَّا نتجاوب معها في أغلب الأحيان، ونَكتبُ ما يَسمح الوقتُ بالكِتابة فيه.

وكان محلُّ إقامتِنا يَتوارد عليه كل يومٍ، وفي بعض الأحيان حتَّى الليالي مِنْ علماء الأزهر وطلبتِه، فيكون المجلسُ معهم لا يَخرجُ عن المذاكرة وإثارة البحوث العلمية التي تحتاج إلى البحث والنظر وحَلِّ ما يُشْكلُ منها، لا سيما وقد اِشتهر أمرُنا في مِصْرَ بِعِلمِ الحديث وتحقِيقِه.

ولِمَا ذكرناه كله، كانت الإقامةُ في مِصْرَ عبارة عن مدرسةٍ علميةٍ، سواءٌ كان الإنسان بين جدران جامع الأزهر أو خارجه؛ بل ربما في بعض الأحيان كانت تحصل المناظرةُ في المسائل العِلمية مع العلماء وطلبة العِلم حتَّى في محلَّاتِ بيْعِ الكُتب.

فلمَّا رجعنا إلى طَنْجَة، وجدنا الأمرَ خِلاف هذا تماماً، ووجدنا الفرقَ بينه كالفرق بين الحياة وَالموت، وجدنا ميدانَ العِلم راكداً. والعلماء المنتَسِبون إلى العِلم لا هِمَّةَ لهم في البحث ولا في مذاكرةِ العِلم، ولا في مقابلةِ أهلِ العِلم، بل كلٌّ واحدٍ مُنْطَوٍ علَى نفسِه، مشتغل بِشؤون دنياه وما يتعلق بشخصه، لا تَجِد أحداً منهم يَبحثُ أو يُثِيرُ بحثاً فيما يُحركُ الفِكرَ أو يُذكِّرُكَ بما ذَهِلَ عنه الفِكرُ مِمَّا درستَه، بل ربما تَشمُّ مِنْ أهلِ العِلم في هذا البلد رائحةَ الاستكبار وعدم الاعتراف بأهل العِلم حقيقة، لاسيما مَنْ كان يُنسَبُ إلى بلدتهم. فحصل لنا لأجل هذا شِبْهُ صدمةٍ نفسيةٍ وتوقُّفٍ فِكريٍّ جَمَّدَ ما في النفس مِنْ تشوُّقٍ وتطلُّعٍ وطموحٍ إلى نشْرِ العِلم بين طلبَتِه ومباحثةِ أهلِه، كما كان الحال في مِصْرَ، بحيث صار الإنسان مع هذه الوضعية شِبه مَنْ كان سائراً في طريقٍ كان يَظنُّ أنَّه نافذاً، ثم اِصطدم بِمانعٍ يَمنعه عن السير فيه، فاِضطرَّ إلى الرجوع متقهقراً نادماً حيث لم يَصِل إلى هدفِه.

فأين اليوم الذي كان يَمرُّ علينا في مِصرَ بِمقابلة العلماء والبحث معهم، وإثارةِ ما يشكل مِنْ المسائل العلميةِ والبحث في حلِّها، والتعرضِ لِما يَظهر مِنْ شؤون الحياة التي تُطلبُ أحكامُها؟؟

فأين هذا في طنجة؟ التي وجدنا الحياةَ العلميةَ فيها لا أقول تكاد تكون ميِّتةً بل هي ميِّتةٌ بالمرة بالنسبة لِما ذكرنا. وأين الكتب والمجلات والمنشورات المتعلقة بالعِلم، التي كانت تَظهرُ كلَّ يومٍ وفي متناول اليد حتى لم يَكُنِ الإنسان يَجِدُ الوقتَ الفارغَ للمرور عليها كلِّها؟؟

أين هذا في طنجة؟ التي لَمَّا دخلنا إليها وجدنا أنفُسَنا كأننا في جزيرةٍ محاطةٍ بالبحر لا تجد فيها حتى الضروريات، فضلاً عن الكماليات؟!

فهذا أيضاً كان له أثرٌ نفسيٌّ في حياتِي الجديدة في طنجة، فكثيراً ما كنت أضطرُّ إلى كتابٍ مِنْ كُتب الحديث التي ليست بالغريبة ولا النادرة، ومع ذلك لا أجدها، بل كثيراً ما أسأل عنها مَنْ يشتغل بالعِلم فأجِدُهُ لا يَعرف اِسمَها فضلاً أَنْ

تكونَ عنده.

وقد ترتَّب عن هذا أنَّني تأخرتُ عن إتمام كثيرٍ مِنَ المؤلفات التي كنتُ بدأتُها بِمِصْرَ لعدم وجود المراجع الكافية في موضوعِها، ولعدم وجود الجوِّ المشجِّعِ للاشتغال بها، لأنَّ الإنسانَ ينفعل بحسب بِيئتِه ووَسَطِه". اِنتهى.

وبعدما سمعتُ مِنْ شيخي حفظه الله جوابَه عن سؤالي بهذا التفصيل فيما صادفه في طنجة مِنْ برودٍ وركودٍ في العِلم وأهله حتَّى في عدم وجود كُتبه الكافية العادية، تبيَّنَ لي أنه لو اِستمرتْ سيرتُه العلميةُ التي كان عليها بِمِصْرَ إلى أَن اِستقرَّ بِطَنْجَة، واِتَّصلت الحركةُ العلميةُ والبحوثُ الفكريةُ ولم يَفْصل بينهما هذا الذي ذَكَره، لكان حفظه الله أَنْتَج، وأظهَرَ، وأفادَ، وأغنَى المكتبةَ الإسلاميةَ بأضعافِ ما رأيتُه منه. لأنني شاهدتُه مع هذه العوائق المانعة حقيقةً مِنَ الاشتغال والتحقيق في العِلم، لا يَفتُرُ عن الإفادة والكتابة والبحث في الأمور التي لا يَشتغل بها إلَّا مَنْ له الاستعدادُ الكافي، والوسَطُ المناسِبُ والجوُّ الملائِمُ الذي يساعد على إبراز المواهبِ، واِستخراج ما يحتاج إليه الإنسانُ مِنَ المسائل التي تتعلَّق بِمشاكل العصر في حياة المسلمين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها؛ بحيث لو سجَّلتُ وكتبتُ جميعَ ما سمعتُه منه في مثل هذه المواضيع مِنْ بحوثٍ علميةٍ شافيةٍ بأدلَّتِها ووُجُوه الاختلاف فيها سلفاً وخلفاً، لكان يَطْلع ذلك في كتابٍ كبيرٍ خاصٍّ، وأرجو أَنْ يُوفِّقَنِي اللهُ إلى ذلك.

والذي يدهشني ويأخذ الاستغراب مِنِّي، هو أَنَّ الذي وَصَفَ به صاحِبُ الترجمة الحياةَ العلميةَ في طَنْجَة لَمَّا رجع إليها مِنْ مِصْرَ وذلك سنة سَبْع وستِّين وثلاثمائة وألف، وكان الوقتُ وقتَ اِحتلالٍ واِستعمارٍ، والـمُستعمِرُ بِطبيعتِه يُحارب العلومَ الإسلاميةَ واِنتشارَها، ويحارب مَنْ يَنشرها ويدعو إلى العمل بها، لأنَّ هدفَه الأول والأخير مِنَ الاحتلال هو القضاء على الإسلام والمسلمين، بِمحاربة القرآنِ وعلومِه، اِتِّباعاً لِوصيَّةِ الكنيسة ولِوصايا زعماء اليهود كما في "بْرُوطوكُولات صَهْيون".

لأنَّ هذا هو هدف الاستعمار الحقيقيِّ وغايتُه مِنَ الاحتلال، ومِنْ أجله تكالبت الدولُ الصليبيَّةُ على بلاد الإسلام كما صرَّح به غيرُ واحدٍ مِنْ زعماء الصليبيِّين، وأما الاستغلالُ الاقتصادي فجاء عَرَضاً لا غير، ولم يكن مقصوداً بالذَّات.

أقول: إنَّ الذي وصف به شيخُنا الحياةَ العلميةَ في طنجة منذ سَبْع وثلاثين سنة، لا زال هو الوصف نفسه لم يَتغير، ولا زالت كما يُقال دارُ لُقمانَ على حالِها؛ وإنَّه لَأَمرٌ يدعو إلى العجب والاستغراب.

فبالرغم مِنَ المدارس الكثيرة التي بُنِيَت في هذه المدينة، فإنَّها لا تؤدِّي رسالتَها المفروضةَ دِينيًّا مِنْ ناحية التوعية الإسلامية الصحيحة بِترغيب طلبتِها في الاشتغال بعلوم الإسلام وما يُفيد المسلمين ويُصلِحُ أحوالَهم؛ بل أكثر مِنْ هذا، كانت مِعْولَ هدْمٍ للأخلاق الإسلامية والفضيلة الدِّينيـةِ بسبب ما وقع فيها مِنَ الاختلاط بين الشُّبان والشابات، مع عدم اِهتمام المعلِّمين بِتلقين ما أَمَرَ به الدِّينُ مِنَ الأحكام المتعلقة بالحلال والحرام وبما يَفرضُه الإسلامُ ويقتضيه الإيمان. لأنَّ برامجَ التعليم لا تَسمحُ لهم بذلك، مما جعل هذه المدارسَ مهرسَةً لكلِّ عِفَّةٍ وفضيلةٍ، وصارت تُلقِّنُ التلاميذَ والطلبةَ الإباحِيةَ، كما صار بعضُ المعلمين والأساتذة يُلقِّنون في هذه المدارس لأبنائِنا العقائدَ الفاسدةَ الضَّالَّة التي لا تَمُتُّ إلى الإسلام بِصِلةٍ مِنَ الصِّلات. فكان ضَرَرُها أعظمَ مِنْ نفعِها، إنْ كان فيها نفْعٌ، مع وجود هذه المفاسد والطامَّاتِ التي تَصدُرُ منها ولا يُنكرها عاقلٌ.

وأعظمُ شاهدٍ على هذه الحقيقة أنَّه منذ جاء الاستقلالُ والأفواجُ تِلو الأفواج تخرج مِنْ هذه المدارس وتتولَّى مراكزَ العمل في الدولة، ومع ذلك لا نرَى سيراً ولا تقدُّماً، ولا صلاحاً، لا في الدِّين ولا الدنيا، مما يدلُّ على أَنَّ التربيةَ ومناهجَ التعليم غيرُ مستقيمةٍ في شيءٍ على الطريقة الإسلامية.

ولهذا لا زال الجهلُ بالوعي الإسلامي ضارباً أطنابَه في هذه البلدة، وسُوقُ العِلمِ كاسداً، وميدانُ التَّطفلِ على العِلم والمداهنَةِ فيه على حساب شريعة الله رائجاً؛

والعلماءُ بِحقٍّ آثَروا الغربةَ والعزلةَ والانطواءَ على أنفُسِهم، على الخوض فِيما لا يُرضِي اللهَ ورسولَه صلى الله عليه وآله وسلم. والحمد لله تعالى على فضلِه وتوفيقِه حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيه.

وأنا أسجِّلُ هذه الحقيقة التاريخية في الثاني مِنْ جمادَى الثانية سنة خمس وأربعمائة وألف، الموافق ثلاث وعشرين مِنْ فبراير سنة خمس وثمانين وتسعمائة وألف/23 فبراير 1985.

فصل

وبعد أَنْ ذكر لي حفظه الله هذه النبذةَ المهمة، النافعة في بيان حال المجتمع العِلميِّ بطنجة، وبعد أَنْ علَّقتُ لك عليها بأنها لم تَتغير في شيءٍ عمَّا كانت عليه إلى الآن؛ سألتُه عمَّا يتعلَّق بمذهبِه في الاعتقاد، وهل هو على مذهب السَّلَفِ الصالح أو على مذهب الخلَفِ الذي ساد في البلاد الإسلامية منذ عصور؟ وهو مذهب الأشعَرِيِّ الذي صارت كُتُبه تُدرَّسُ في جميع البلاد الإسلامية، ولا يُوجد ذِكرٌ لغيرها حتى وقع للناس بسببها والاقتصار عليها اِعتقاد أَنَّ الحقَّ في الاعتقاد هو ما ذهب إليه الأشعريُّ في شأن تأويل آيات وأحاديث الصِّفات، وما سواه فضلالٌ وخروجٌ عن الطريق المستقيم.

فأجاب حفظه الله بِما يلي:

"مذهبِي في الاعتقاد هو مذهب السلف الصالح مِنَ الصحابة والتابعين، السالِمُ مِنَ الشكوك والأوهام، واِقتحام علوم الأوائل مِنْ فلاسفة اليونان في الكلام في ذاتِ الله وصفاتِه بِالظَّنِّ وضروبٍ مِنَ الآراء والتخمينات، والإيراداتِ العقلية المبنيَّةِ على الفهوم المختلفة بين أهلها، وبذلك أدخلوا على الآيات والأحاديث الواردة في صفات الله تعالى تأويلاتٍ يَأباها المؤمنُ الصَّادقُ ويَمجُّها طبْعُ المسلم المجبُول

على الفطرة التي خلقه الله عليها، لأنها كلَّها ضلالٌ مِنْ غير شكٍّ ورجْمٌ بالغيب، وحكمٌ على الله تعالى وصفاتِه بالرأي المحضِ، وتحريفٌ بل تكذيبٌ لله ورسوله بالمرة ؛ نعوذ بالله مِنْ كلِّ سوءٍ.

بل أعتقد أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى واحدٌ لا شريك له، وأنَّه منَزَّهٌ عن كلِّ ما يُماثل الحوادثَ ويُشْبه المخلوقات، ليسَ كَمِثلِه شيءٌ وهو السميعُ البصيرُ. وأُومِنُ بما أخبر في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ صفاتِه مِنْ غير تأويلٍ ولا تبديلٍ ولا تحريف، مع تنزيهِه سبحانه وتعالى عن التجسيم و التشبيه كما صرَّح بذلك القرآنُ في قولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وهذا هو المذهبُ الحقُّ الذي لا ينبغي لِمَنْ يريد السلامةَ أَنْ يَحِيدَ عنه ويعتقدَ خلافَه، وهو المذهبُ الذي كان عليه الصحابةُ والتابعون ومَنْ تَبِعهم بإحسانٍ مِنْ أهلِ السُّنةِ والحديثِ، الذين نَقلوا السُّنةَ عن رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ودَوَّنُوهَا في الصِّحاح والسُّننِ والمسانيد، إلى أَنْ ظهرت البِدعُ القبيحةُ بواسطة كُتب المِلَلِ التي تُرجِمَتْ إلى العربية، فاخْتلَط على الناس الأَمْرُ، وجرَّتهم الأهواءُ إلى الخوض فيما نُهوا عنه. فابتلاهم الله تعالى بسبب ذلك إلى ترْكِ الحقِّ في عقيدتهم، وانصرفُوا إلى خُرافاتٍ وأباطيلَ يأباها دينُنا القويمُ وشريعتُنا السمحةُ، ولهذا وَرَدَ: «ما تُركَتْ سُنَّةٌ إِلَّا عَمِلَ الناسُ بَدَلَها بِبِدعَةٍ»..".

وبعد هذه الكلمة المُوجَزة في بيان عقيدته السلفية، سألتُه عن مذهبِه في الفروع، فأجاب حفظه الله بِقولِه:

"وأمَّا الفروعُ، فلستُ بِحمد الله وفضلِه مقيَّداً فيها بمذهبٍ مِنَ المذاهب الأربعة أو غيرِها، بل مذهبِي في ذلك ما صحَّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ غير نظَرٍ إلى موافِقٍ أو مخالِف.

قال: وقد يَستغربُ هذا ويَستبعدُه جُلُّ الناس اليوم لِقصورهم وقصورِ مَنْ حولهم عن إدراكِه فضلاً عن الخوض فيه، ولكنَّ فضْلَ الله يؤتيه مَنْ يَشاء، ولا يُنكِرُ

فضلَه إِلَّا القومُ الخاسرون. ويجب على الإنسان قبل أَنْ يُنكِرَ أو يَعترضَ عليَّ أو علَى مَنْ يقولُ مِثل قولي، أَنْ يُجرِّبَ نفسَه في الدخول في مثل ما دخلتُ فيه ويُروِّضَها على العمل بِمقتضاه، وعلى الحصول على الأسباب الموصِلَة إليه؛ فإِنَّه إِنْ شاء الله سيُدرك ما أدركتُه ويَبلغ إلى المقام الذي بلغتُه، ثم يَصير يتعجب ممن يَزعم بُعْدَ حصول مثل هذا، كما يَحكم بِجهْلِ مَنْ يَرضَى في دينِه بالدَّنِيَّةِ، فيُقلِّدُ فيه كلَّ ناعِقٍ ويتبع كلَّ داعٍ كاذبٍ أو صادقٍ".

وهنا قلتُ لِفضيلتِه: وحيثُ إِنَّ الأمرَ بهذه الخطورة، فكيف الوصول إلى الخروج مِنْ هذه المعَرَّةِ التي اِعتبرتَها دَنيَّةً وسقوطاً في الدِّين؟؟

فأجاب حفظه الله بِقولِه: "إِنَّ الوصول إلى هذا المقام الرفيع والمنزلة الشريفة سهلٌ لِمَنْ وفَّقه اللهُ تعالى وهداه إلى العمل على الحصول عليه، فبِشيْءٍ مِنَ الهمَّة والاجتهاد، والمثابرةِ على مطالعة كُتب الخلاف العالي، مع دوام النظر والمراجعة في كُتب الأحكام مِنَ الحديث، والوقوفِ على شُروحها المبيِّنَةِ لِناسخِها مِنْ منسوخها ومُجْمَلِها مِنْ مُفصَّلِها، وخاصِّها مِنْ عامِّها وصحيحِها مِنْ ضعيفِها، يستطيع أَنْ يَصِلَ إلى المرتبة التي يختار فيها القولَ الذي يراه موافِقاً للدليل الصحيح مِنْ غيرِ أَنْ يَرجع إلى قول إمامٍ مِنْ أئمَّةِ المذاهب مطلقاً، لكنْ بشرط أَنْ يكون نظرُه في هذه الكتب مجرَّداً عن كلِّ ميلٍ إلى إمامٍ أو مذهبٍ، لِيأخذَ منها الحقَّ سالِماً مِنْ كلِّ ميلٍ إلى أيِّ مذهبٍ؛ بل يكون نظرُه فيها لأجل معرفة الحقِّ وحده، لأَنَّ الواردَ في الحديث: «**حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمُّ**».

فمَنْ لم يتجرد مِنَ المحبةِ والتعصُّبِ لِمذهبٍ مِنَ المذاهب يستحيل عليه أَنْ ينتفعَ بهذه الكتب، ويَخرجَ منها بالحقيقة المَرجوَّةِ".

وهنا سألتُه عن الكتب التي قرأها والتي أوصلَتْه إلى هذا المقام وأعانَتْه على الخوض فيه.

فأجاب حفظه الله قائلا:

"إنَّ ما قرأتُه ولله الحمدُ مِنَ الكتب الموصِلَة إلى هذا المقام والمُعِينة على الخوض فيه، شيءٌ كثيرٌ وجملةٌ وافرةٌ منها. وحصل لي الانتفاعُ الأكبرُ في فتْحِ الطريق إلى هذا المقام بكتاب "المُحَلَّى" لأَبِي محمدٍ اِبنِ حَزمٍ. فإنَّ الله تعالى وفَّقني لقراءته كلِّه، ثم قرأتُه مرةً ثانيةً إلى الجزء الخامس، وهو في أَحَد عَشر مجلَّداً، وخرجتُ مِنْ قراءتِه بعلمٍ عظيمٍ جمٍّ، وفائدةٍ جليلةٍ، زيادةً على معرفة طُرقِ المناظرة والأخذ والردِّ، مع الوقوف على الكلام في الرِّجال، وعِلل الأسانيد.

وهذا الكتاب مِنْ أعظم كُتب الإسلام فائدةً، أثنَى عليه غيرُ واحدٍ مِنَ الأئمة، ولا يَعرف قدرَه إلَّا مَنْ وقف عليه وتدبَّره ونَظَرَ في مباحثِه المهمَّةِ، مع اِطِّلاعٍ واسعٍ ونقدٍ عجيبٍ وتحقيقٍ مدهشٍ يأخذ بمجامع القلوب؛ ولا يُعرِضُ عن الانتفاع به واِقتِنائِه إلَّا الفقيهُ المتعصِّبُ الجامدُ القصيرُ النَّظرِ، الذي لا يَرى الحقَّ إلا فيما أخذه عن مذهبِه، وما سواه فضلالٌ وعبثٌ، ويكفي في هذا جهله وقُصوره.

وقد نقل الحافظُ الذَّهبِي في "سِيَر أعلام النبلاء" عن عِزِّ الدِّين اِبنِ عبدِ السَّلام، أنه قال: ((ما رأيتُ في كُتب الإسلام في العِلم مِثل "المُحَلَّى" لابنِ حَزمٍ، و"المُغْنِي" للشيخ مُوَفَّق الدِّين)). ثم قال الذَّهبي: ((صَدَقَ الشيخُ عِزُّ الدِّين. وثالِثُها "السُّننُ الكُبرى" للبيهقي، ورابعُها "التمهيد" لابنِ عبدِ البَرِّ. فمَنْ حصَّل هذه الدواوين وكان مِنْ أذكياء المُفْتين وأدْمَنَ مِنَ المطالعة فيها، فهو العالمُ حقًّا)). اِنتهَى كلامُ الذَّهبِي.

قال صاحب الترجمة: وعندي ولله الحمد الكُتب الثلاثة بأتمِّها: أعنِي "المُحَلَّى" لابنِ حزْمٍ، و"المُغْنِي" لابنِ قُدَامة، و"السُّنن" للبيهقي. وقد قرأتُ مِنَ "المُغْنِي" لابنِ قُدَامة، و"سُنَن البيهقي" شيئاً كثيراً، يسَّر الله قراءتَهما جميعاً، كما وفَّقني لقراءة "المُحَلَّى" مِنْ قبل.

وأمَّا "التمهيد" لِابنِ عبدِ البرِّ، فقد قرأتُ منه بعضَ الأجزاء التي تمَّ طبعُها بالمغرب، وهو كتابٌ أيضاً في غاية النفاسة، بل إنَّه مفخرةٌ مِنْ مفاخر اِبنِ عبدِ

البرِّ رحمه الله على مَرِّ الليالي والأيام، ولم يُوضع على "مُوطَّإِ مالِكٍ" شرحٌ مثل "التمهيد"، ولا حام أحدٌ حول حِماه. ولهذا قال اِبنُ حزمٍ في حقِّه مع أنه معاصرٌ له: ((لا أعلمُ مِثلَه فضلاً عن أحسن مِنه))؛ وهو كذلك، يَعلم هذا مَنْ وقف عليه وقرأه..".

ثم قال صاحب الترجمة: "وينبغي أَنْ ينضمَّ إلى هذه الكتب الأربعة في فِقه الإسلام: كتاب "المجموع في شرح المهذَّب" للإمام النَّووي رحمه الله تعالى، فإِنَّه مِنَ الكتب المهمَّةِ لِمن يريد العملَ بالدليل، ومعرفة اِختلاف المذاهب مع ذِكْرِ أدلة كلِّ مذهبٍ، وقد جمع علوماً جمَّةً للغاية مع سهولة التعبير، والبعد عن التعقيد كما هي عادة النَّووي رضي الله تعالى عنه. وقد قرأتُ منه الجزء الأول مع دوام المراجعة في أجزائه الأخرى، وقد كَتب منه النَّووي رحمه الله تِسعَ مجلَّداتٍ، وأتمَّه تقيُّ الدِّين السُّبكي رحمه الله، فكَتَب منه ثلاثَ مجلَّداتٍ، لكنه لم يُتمه أيضاً..".

ثم أضاف صاحب الترجمة حفظه الله قائلاً:

"فإذا كانت هذه الكُتب الخمسة عند مَنْ أعطاه الله قريحةً وهمَّةً عاليةً، وعزيمةً على الاشتغال وذكاءً في الفهم، ومع ذلك لم يَخرجْ عن التقليد للرجال في دِينِه، فهو شبَحٌ بِلا روحٍ، وميتٌ غيرُ حيٍّ مِنْ غير شكٍّ. لأنَّ "المُحلَّى" وحده يكفي في تحريك هِمَّةِ البليدِ الغَبِيِّ لِنبذِ التقليد فضلاً عن الذَّكيِّ الفقيهِ النفسِ، فكيف بتلك الكُتب كلِّها؟!

ولكنَّ الهدايةَ لا تُكتسب بالذَّكاء ولا تُنال بالفهم، وإنما هي مِنْ عند الله وحده، والحمدُ لله على فضلِه".

فصل

وبعد هذا سألـتُـه عمَّا تـتعلَّق به هِـمَّتُـه الآنَ ويَـرغـب في الاشتغال به مِنَ العلوم، فقال حفظه الله مـجيـباً:

"الرغبة عندي الآن في عِلمين لا ثالث لهما، الأول: عِلمُ الحديث، والثاني: التصوف. وإنْ كنتُ أقرأ وأطالعُ كتباً في علومٍ أخرى، ولكن ذلك على سبيل التسلية والإجـمام والاطِّلاع لا غير.

وأمَّا الرغبة كلُّها في هذين العِلمين، والميـل كلُّه إليهما، ولا أدفع مالاً في شراء كُتب غيرهما. وَأجد لذَّةً عظيمةً في مطالعة كُتب الحديث والتصوف، وأواصل الساعاتِ بِبَعضها في مطالعتها وقراءتها. ولا يمكن أَنْ أجد كتاباً في الحديث مِنْ غير أَنْ أعكف على قراءته حتى أُتِـمَّه، لا سيَّما إذا كان مشتملاً على الأسانيد وطُرق الأحاديث.

وقد قرأتُ ولله الحمد مِنْ كُتب الحديث المسنَدَة وغيرِ المسنَدَةِ ما لا يَـخطر بِبال أحدٍ من شيوخ هذا العصر، ولـولا الخروج عن الاقتضاب في ذِكرِها وسَرْدِها لَـذَكرتُ لك منها ما تَـنحلُّ به الحبـوةُ عجباً، ولِـيتيقَّنَ القارئُ أَنَّ فضلَ الله لا ينـقطع أبداً، وليَعلم أَنَّ في كلِّ قرنٍ مِنْ أُمَّـتِه صلى الله عليه وآله وسلم سابقـون.

ودَعْ عنك قولَ أهل البطالة والكسل ومَنْ أخلد إلى الراحة ونبذ العمل: ((سَبَق الأولون بالفضل وما تركـوا لِـمن بَعدَهم مِيزةً في فعلٍ وقولٍ)). فما أقْبَحَها مِنْ كلمةٍ مُثَـبِّطَةٍ للعزائم ومُفسِدَةٍ للعقائد!!

فإنَّ الله تعالى الذي وفَّقَ ذلك السابقَ لِعَملِه هو أيضاً الذي وفَّق هذا المتأخِّرَ، وعطاؤُه واحدٌ، ونَيلُه وفضلُه قد يَسعَدُ به الـمتأخِّرُ دون الـمتقدِّم، والصغيرُ دون الكبير، ولله درُّ جمالِ الدِّينِ اِبنِ مالِكٍ رحمه الله، إذ يقول في مقدِّمة "التسهيل":

((وإذا كانت العلومُ مِنَحاً إلهيةً ومواهب حصاصيةً، فَغيرُ مُستبعَدٍ أَنْ يدَّخرَ لبعض المتأخرين ما عَسر عن كثيرٍ مِنَ المتقدِّمين)). وقال اِبنُ بَسَّام في مقدِّمة "الذخيرة في محاسن الجزيرة": ((وليس الفضلُ على زمنٍ بمقصورٍ، وعزيزٌ على الفضل أَنْ يُنكرَ، تقدَّم به الزمانُ أو تأخر. ولَحَى اللهُ قولَهم الفضلُ للمتقدِّم، فكَمْ دَفَن مِنْ إحسانٍ وأَخْملَ مِنْ فُلانٍ، ولو اِقتصر المتأخرون على كُتب المتقدِّمين لضاع عِلمٌ كثيرٌ وذهب أدبٌ غزيرٌ)). اِنتهى كلامُ اِبنِ بَسّام.

وقد قال مِثل قولهم هذا مُشركُو قريش: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، فردَّ الله تعالى عليهم أحسنَ ردٍّ بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ الآية.

ثم قال حفظه الله :

وأَمَّا التصوف، فيُعجبني مِنْ كُتبِه ما أَلَّفه أصحابُ الأذواق مِثلُ الشيخ الأكبر مُحيِ الدِّين اِبنُ عَربِي رضي الله تعالى عنه. وقد قرأتُ مِنْ كُتبِه الشيءَ الكثيرَ، وأنا الآن مشتغلٌ بقراءة "الفتوحات المكِّية" له. وقد قرأتُ منها شيئاً كثيراً، بل لا يَخلو مجلَّدٌ مِنْ مجلَّداتِها الأربعةِ إلَّا وكتبتُ علَى هامشِه ما يَدعو إلى شرْحِ بعضِ مُغْلَقاتِه. وقد قرأتُ "شرْحَ الحِكَم" لِلجَدِّ مِنْ جهة الأمِّ سيدي أحمدَ بنِ عجِيبة رحمه الله، وكتبتُ عليه تعليقات. وكذلك قرأتُ "شرْح اِبنِ عبَّاد" على الحِكَم، وشرْحَ اِبنِ عَجيبة المذكور على تائِيَّةِ شيخِه سيدي البُوزَيْدِي رضي الله تعالى عنه، وله عليها شرحان: الكبير والصغير، وشرْحَه على رائيتِه؛ وقد قرأتُ هذه الكتب الثلاثة مرَّاتٍ.

ثم قال: وقرأتُ شرْحَ اِبنِ عجيبة على النُّونِيَّة لِلشُّشْتري رضي الله تعالى عنه، وشرْحَه على صلاة الإمام الهمام مولانا عبدِ السلامِ بْنِ مَشيش رضي الله تعالى عنه، وشرْحَه على خمريةِ اِبنِ الفارِضِ رضي الله عنه، وشرْحَه على مقطعات الشُّشْتري،

وشرْحَه على البيتين المنسوبين للإمام الجنَيد، وهُما: ((توضَّأْ بِماءِ الغَيبِ..))، وشرْحَه على قصيدة العارف سيدي أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنه: ((يا مَنْ تعَاظَمَ حتَّى رَقَّ معناه..))، وجملةً وافرةً مِنْ تفسيره بالإشارة المسمَّى "البحر المديد"، وشرعتُ في تجريد الإشارة منه، وكتبتُ منه كراريسَ، وشرْحَه على الأجرومِيَّةِ بالإشارة وكذلك.

كما قرأتُ شرْحَ العارف الحَرَّاق على البيتين: ((تَوَضَّأْ بِمَاءِ الغَيْبِ..))، وقرأتُ "التنوير في إِسْقاطِ التَّدبير" لِابنِ عَطاءِ الله، و"التَّعرف" لِلكَلابَاذي، و"اللُّمَع" لِأبِي نَصْرٍ السَّرَّاج، وشرْحَ سيدي علِيٍّ وَفَا رضي الله تعالى عنه لِحديث: «كُنتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ»، على طريق أهل التصوف، وشرْحَ علِيٍّ صالِح الأندلسيِّ «لِرَحْبة الأمَان» لِلإمام الجَزُولي رحمه الله، وهو مفيدٌ، مع أَنَّ شارحَه عامِّيٌّ لم يتقدَّم له طلبٌ، وإنما هو فتحٌ لَدُنيٌّ. وقرأتُ "الفُصوص"، و"مواقع النجوم"، ورسائل أخرى كثيرة لِمُحْيِ الدِّين رحمه الله تعالى.

وقرأتُ شرْحَ أَحمدَ زَرُّوق على مقطعات الشُّشْتري، وشرْحَه على "الحِكَم"، وقرأتُ جملةً وافرةً مِنْ "إحياء" الغَزالي، و"قُوت القلوب" لأبِي طالِبٍ المَكِّي. وقرأتُ أيضاً الكثيرَ مِنْ كتاب "الفُلك المشحون في أَنَّ التصوفَ هو ما تخلَّقَ به العلماءُ العاملون" لِلشَّعراني رضي الله عنه، وهو مِنْ أنفَسِ أو أنفَسُ مؤلفات الشَّعراني رضي الله عنه، لا يَعرف قيمتَه إِلَّا مَنْ وقف عليه، ويَقع في مجلدين ضخمين. وقرأتُ أيضاً كتابَه "الجوهر المَصُون والسِّر المَرقُوم فِيما تنْتجُه الخلوةُ مِنَ الأسرار والعلوم"، ويَقع في مجلَّدين، وهو مِنْ أَنفس مؤلفات الشعراني، وقرأتُ كتابَه "الأجوبة المرضِيَّة عن أئمة الفقهاء والصوفية"، وهو ردٌّ على ما كتبه اِبنُ الجَوزي في "تلْبِيس إِبْليس" عليه في الردِّ على كِبار أئمة التصوف وأئمَّة العُبَّاد والزُّهاد الذين كانوا على سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الإعراض عن الدنيا وملذَّاتها وشهواتها وغرور زينتِها. ولكنَّ اِبنَ الجوزي حيث لم يُعطِه اللهُ حظًّا مِنَ السَّير

على هذا المنهاج النبويِّ والسيرةِ المحمديةِ رَفَع رايةَ الاعتراض والانتقاد لِكلِّ مَنْ ظَهر بها ودعا إليها؛ ولذلك لم يُوفَّق في ردِّه، ولا سلك منهاجَ العلماء في ذلك، فرَدَّ الأحاديثَ الصحيحة المؤيِّدَةَ لأئمة التصوف، وردَّ عليهم بالأحاديث الضعيفة بل والموضوعة التي ذكرها هو نفسُه في "الموضوعات" و"العِلل المتناهية"؛ والشَّعراني في ردِّه عليه ظنَّ أنَّ صاحِبَ الاعتراضات هو اِبنُ القيِّمِ الجَوزية، فلذلك صرَّح بِإسمه في كتاب الردِّ عليه.

وقرأتُ جملةً وافرةً مِن إختصاره لكتاب "الفتوحات المكِّية"، وكتابَه "كَشْف الحِجاب والرَّان عن وجْهِ أسئلة الجانِّ"، وكتابَه في أدَبِ الطريق، وكتابه "ميزان الخُضَريَّة" الذي تلَقَّاه مِنَ الخَضِرِ عليه السلام في سطْحِ جامِع الغَمري بالقاهرة.

وقرأتُ "الإنالة العِلمية" لِابْنِ لِيُون الأندلسيِّ التي اِختصرها مِنْ كتاب الشُّشتري، وجملةً وافرةً كذلك مِنَ "الرِّعاية" لِلحارثِ بنِ أَسَد المحاسِبي، وأبواباً مِنَ "الإنسان الكامل" لِعَبدِ الكريمِ الجِيلِي، بل ربَّما ختمتُه، و"كَشْف المحجوب" لِلهَجْوِيري، و"عوارف المعارف" لِلسَّهْرَوَردي، وجملةً وافرةً مِنَ "الرِّسالة القُشَيرية"، و"الغُنْية" لِمولانا عبدِ القادرِ الجِيلاني، "أدَب المريد" لِلجَدِّ سيدي الحاج أحمدَ بنِ عبدِ المومِن، وغير هذا مما لم أتذكَّره الآنَ وهو كثيرٌ جدًّا. وقد وضعتُ فهرسةً للمقروءات في جزءٍ مستقلٍّ، والحمد لله ربِّ العالمين".

وهُنا سأَلتُ فضيلتَه عمَّا كَتب في التصوف؟

فأجاب قائلاً : "كتبتُ في التصوف كتباً مختلفةً ورسائل متعدِّدة، منها ما هو مطبوعٌ كشرْحِ مقطعة الشُّشتري: ((بدأتُ بِذِكرِ الحبيب..))؛ وقد أثنى عليه كلُّ مَنْ وقف عليه ومنهم الأخُ أبُو الفَيْضِ رحمه الله، وهو الذي سمَّاه «فتْح القريبِ المُجيبِ»، وشرحتُ نُونِيَّةَ الشُّشْتري إلى ما يَقرب مِنْ نِصفها؛ وشرحِي أنا أوسع مِنْ شرْحِ اِبنِ عجِيبة عليها وشرْحِ الشيخ زرُّوق الذي لا يكاد يُذكر أمام شرْحِ اِبنِ عجيبة، إذْ هو عبارة عن وُريقاتٍ صغيرةٍ.

وفسَّرتُ سورةَ الكوثر عن طريق الإشارة، وفسرتُ آياتٍ وأحاديثَ أخرى عن طريق الإشارة أيضاً. وكتبتُ مواضيعَ مهمَّة تتعلق بوحدة الوجود، بيَّنتُ فيها الكلامَ عن الوحدة بتفصيلٍ وعبارةٍ سهلةٍ مع ضرْبِ الأمثلة على حقيقتِها بِمظاهر المخترعات العصرية، حتَّى إنَّ العلَّامةَ الصوفيَّ الجليلَ سيدي محمدَ بنَ عبدِ الصَّمدِ التُّجْكانيَّ بِتِطْوان لَمَّا قرأ ذلك كَتب إليَّ يقول: ((إني لم أقرأ كلاماً في وحدة الوجود بالسهولة والبساطة والتقريب لِأَمْرِها كما قرأتُه في كلامك، لأنَّه لا يَقرؤُه أحدٌ إلَّا ويكاد يتذوق وحدةَ الوجود كما يذوقه أهلُها)).

كما شرحتُ وصيةَ الوالد رحمه لله في ثلاثة شروحٍ: شرحاً مطَوَّلاً، وشرحاً وسطاً، والشرحَ الصغيرَ، وهو مطبوعٌ بِإسم "الأنوار القُدسية".."،

وبعدَ هذا قلتُ لِفضيلتِه:

مِمَّا ألاحِظُ مِنْ حالِكم -وهو حالٌ لم أره في أغلب مَنْ صاحبتُه وقرأتُ عليه مِنْ أهل العِلم في هذا الوقت- أنَّكم يَسهلُ عليكم أمرُ الكتابة، وعدم اِستِعصائها عليكم كما هو حال الكثير مِنْ أهل العلم. لأَنَّ الكتابةَ غالباً تدعو إلى اِستحضار الذِّهنِ وإعمال الفِكر في تحضير النصوص، ولذلك يَقِلُّ مِنْ أهل هذا العصر التأليفُ والكتابةُ فيما يُفيد ويَنفع، مع أنِّي أراكم قد ذكرتُم في التصوف وحده عدَّةَ رسائل كتبتموها، زيادة على ما أعلمُه مِنْ كثرة كُتبِكم الأخرى.

فأجاب حفظه الله قائلاً:

"حقيقة، إنَّ أمري في الكتابة يَدعو إلى الالتفات والاستغراب، وقد لاحَظَ هذا الأمرَ قَبلَكم كثيرٌ مِمَّنْ عرفنِي وقرأ كُتبِي مِنْ أهل العِلم. وقد مَنَّ الله تعالى عليَّ بسرعة الكتابة وعدم المَلل منها منذ الصغر، إلى أَنْ صِرتُ أكتبُ الكُرّاسةَ بل الكُراستيْنِ في جلسةٍ واحدةٍ بنشاطٍ عظيمٍ؛ وذلك كله أراه مِنْ بركة مولانا الوالد رضي الله تعالى عنه، فإنَّني لَمَّا كنتُ صغيراً وأنا لا زِلتُ في الكُتَّاب، كان يَخصُّنِي بكتابة الخطابات التي كان يُوجِّهها إلى مَنْ يُكاتِبه في شتَّى المسائل

العلمية، وغيرِها مما كان يَتوارد عليه في كلِّ يومٍ العدد الكبير منها، ويُجْلِسني أمامَه ويُملِي عليَّ وأنا أكـتبُ، وكان يقول لي في ذلك الوقت: ((سيكونُ لك نشاطٌ في الكتابة، وتُعجبني سُرعتُك فيها بخلاف فُلان، فإنَّ يدَه بطيئةٌ)). ومِنْ ذلك اليوم وأنا أُحسُّ بهذا النشاط والحمدُ لله، ولا أعرف مَللاً ولا كللاً ما دام القلمُ في يدي.

وفي مِصْرَ، كُنتُ أمكث إلى نصف الليل وأنا أكتبُ مِنْ غير أَنْ أُحِسَّ بِتعبٍ أو ضِيقٍ في الصدر، على خلاف عادة الناس في ذلك. وهذا كلُّه مِنْ كرامة وبركة مولانا الوالد التي ذكرتُها.

وقد نسختُ بِيدي جملةً وافرةً مِنَ الأجزاء الحديثِيَّةِ، وقد قالوا: ((لا دِيَّةَ لِيَدٍ لا تَكتب الحديث)). وجرتْ عادةُ الحُفَّاظ بِنسخ الأصول المهمة والأجزاء المسموعة، فما مِنْ حافِظٍ إلَّا وكَتب بيده الشيءَ الكثيرَ مِنْ كُتب الحديث والرِّجالِ، وغيرِ ذلك. وإذا قرأتَ تراجمَهم وجدتَ مِنَ الأقوال التي قِيلتْ في مدحِهم: ((وكَتب بِيده كُتباً كثيرةً، أو كان كثيرَ النَّسخِ لِكُتب الحديث، أو ما أشبه هذا..)).

وقد كَتب الحافظُ اِبنُ حَجَر رحمه الله بِخطِّه "صحيح اِبنِ حِبّان"، و"صحيح الإسماعيلي"، و"مستخرَجَ أبِي عَوانة"، و"مسنَدَ الحُمَيدي (شيخ البخاري)"، و"مسنَدَ اِبنِ جُمَيع"، و"مسنَدَ أبِي عَوانة".

وكَتب الحافظُ السيوطي رحمه الله بخطِّه أيضاً "الصحيح المنْتَقَى" لِابْنِ السَّكن، و"مسنَدَ الفردوس"، و"مسنَدَ اِبنِ رَاهوَيْه"، و"السنن الكبرى" للنسائي. وقد وقفتُ على مجموعةٍ مكتوبةٍ بخطِّه تحتوي على رسائل في فنون مختلفةٍ في مجلَّدٍ. وكذلك كَتب غيرُهما مِنَ الحُفَّاظ مِثلَ هذا كثير.

ومَنْ سلك طريقتَهم واِتَّبع سبيلَهم فهو المُفلِحُ الراشدُ والمجتهدُ الناقد، ولا يَلحقُه عيبٌ ولا لومٌ ولا نقصٌ، وإنما ذكرتُ هذا لأنَّ بعضَ القاصرين يَعيب على مَنْ سلك طريقَ نسْخِ الكُتب لنفسه، ويَلمزه بالعجز، ومَا دَرَى فائدةَ ذلك وعُلوَّ همَّةِ

سالِكِ تلك المسالِك، لأنه لم تقع له الحاجةُ الملحَّةُ لِمِثل هذه الكُتب، فلذلك إِستصغر أمْرَ نسخِها..".

وهنا ذكر لي صاحبُ الترجمة أسماءَ بعض الأجزاء التي نسخها بخطِّ يده، أحببتُ ذِكرَها للفائدة العظيمة لِطالِب العِلم، لا سيما أهل الحديث، فقال حفظه الله:

"نسختُ "الترغيب في فضائل الأعمال" لِابنِ شاهِين، في خمسة أجزاءَ حديثِيَّةٍ، ووضعتُ لها فهرسةً رتبتُ فيها أحاديثَه على الأبواب لأنه غيرُ مرتَّبٍ، فيَذكر مثلاً باباً في فضائل الصلاة ثم يُتبعها ببابٍ في فضائل الجهاد، ويَذكر بعد ذلك باباً آخر في الصلاة وهكذا، فرتبتُ أحاديثَه في الفهرس على الأبواب، كلُّ حديثٍ مذكورٍ في الباب الذي يتعلَّق به مع بيان رقم الصحيفة المذكور فيها.

ونسختُ: "فوائد الحاج"، أربعة أجزاء حديثيَّة؛ و"جزء أحاديث منتقاة مِنْ أصول سَمَاعات اليُونارْتي"؛ و"جزء فيه عوالي حديث أَبِي محمدٍ عبدِ اللهِ بنِ محمدِ بنِ جعفرَ بنِ حيَّان"، الحافظ المعروف بأَبِي الشيخ، مِنْ شيوخ أَبِي نُعَيم صاحبِ "الحِلْية"؛ و"جزء فيه أحاديث عوالي مِنْ مسموعات أَبِي نُعَيم الأصبهاني"؛ و"مكارم الأخلاق" للطبراني؛ و"المُنتقَى مِنْ مكارم الأخلاق" لِابنِ أبِي الدُّنيا، اِنتقاء أَخِي أَبِي الفَيض؛ و"جزء المُقِلِّين مِنَ الأُمراء والسَّلاطين" لِتَمَّام الرّازي؛ و"الأربعين" لِلحافظ أَبِي العَباسِ الحَسَنِ بنِ سُفيانَ الشَّيْباني السِّندي؛ و"الأربعين" لِعبدِ الغافِرِ الفارسي؛ وكتاب "البعث" لأَبِي بَكرٍ اِبنِ أَبِي دَاود؛ و"جزء محمد بنِ يَحيَى الذُّهلي"؛ و"جزء محمدِ بنِ سنان القزاز البصري"؛ و"جزء إعارة الكُتب" لأَبِي بكرٍ أحمدَ بنِ محمدِ اليزدي الحافظ؛ و"مشيخة اِبنِ إمامِ الصَّخرة"؛ وجزء "المُنتقَى مِنْ مُسنَدِ الحارث اِبنِ أَبِي أسامة"، و"نُسخة أَبِي حَنيفة"، و"الجزء الأول مِنْ حديث عليِّ بنِ حَرب"، و"بغية النُّقاد أُولي المَجْدِ فِي عُشارياتِ الإسناد لِلجدِّ" لِأَبِي محمدٍ عبدِ اللهِ بنِ جَماعة، تخريج إسماعيل بن إبراهيم بن جماعة؛

و"الرسالة المغنِيَة في السُّكوت ولُزومِ البيوت" لِأَبِي عليٍّ الحسنِ بنِ أحمدَ بنِ عبدِ اللهِ بنِ البَنَّا؛ و"الجزء الأول مِنْ أمَالي أَبِي عبدِ اللهِ الضَّبِّي"؛ و"مجلس مِنْ أمَالي الأشْناني"؛ و"جزء مِنْ حديث اِبنِ شاهِين"؛ و"جزء مُنتقىً مِنْ حديث أَبِي بكرٍ الصيرفي"؛ و"جزء مِنْ حديثِ أَبِي محمدٍ القاسِمِ بنِ عليٍّ بنِ محمدِ بنِ عثمانَ الحريري، النَّحوي، البصري" صاحبِ "المَقامات"، وقد نسختُه مِنْ مكتبة جامع الأزهر؛ و"جزء مِنْ حديثِ أَبِي سعيدٍ عيسَى اِبنِ سليم الشَّاشِّي"؛ والجزء الأول مِنَ "الفوائد المُنتقاة والحكايات المُنتخبة" اِنتقاء اِبنِ فورك مِنْ حديثِ أَبِي مُسلمٍ محمدِ بنِ أحمدَ بنِ عليٍّ بنِ الحسين، البغدادي الكاتب؛ و"جزء فيه: أحاديث أربعة، وحكاية، وإنشاد، مِنْ عَوالي الحافظ شَرفِ الدِّين عبدِ المؤمن بنِ خَلَف الدمياطي" اِنتقاها الحافظُ عَلَمُ الدِّين البرزالي؛ و"مُنتقَى السفينة البغدادية" للحافظ السِّلَفي؛ و"جزء فيه مِنْ حديث أَبِي منصور عبدِ الخالِق اِبنِ زاهر بنِ طاهر عن شيوخه"؛ و"جزء فيه عشرة أحاديث مُنتقاة مِنْ جزء الغِطريف"، اِنتقاء عَلَمِ الدِّين البرزالي؛ و"جزء فيه فوائد الشيخ أَبِي محمدٍ عبدِ اللهِ بنِ عليٍّ الأبنوسي"، اِنتقاء أَبِي عليٍّ اِبنِ البرداني؛ و"الأجزاء الثَّقَفيات" وهي عَشرةُ أجزاء حديثِيَّة لم أَنسخْ منها إلا خمسة أو ستَّة؛ و"جزء مِنْ فوائد عبدِ الغنيِّ بنِ سعيدٍ المِصري"؛ و"جزء محمد بنِ سليمان لُوَين"، نسختُه مِنْ مكتبة جامِعِ الأزهر؛ و"مسندَ عمر بنِ عبدِ العزيز" لِلبَاغَندي؛ و"جزء فيه أربعة عشر حديثاً مُنتقاة مِنَ الأربعِين المُخَرَّجَة مِنْ مسموعات الشيخ أَبِي العَباس أحمدَ بنِ يُوسُف بنِ صرما"؛ و"جزء منتقىً مِنْ حديثِ أَبِي أَحمد عَبدِ الله بنِ محمدِ بنِ أحمد الفَرضِي"؛ و"جزء فيه عشرة أحاديث مُنتقاة مِنْ عشرة الحدَّاد" اِنتقاء الحافظ اِبن حَجَر؛ و"جزء مُنتقىً مِنْ جزء أَيُّوب السخْتِيَاني" لإسماعيل القاضِي؛ و"جزء فيه فوائد مُنتقاة عن الشيوخ الثِّقاتِ العَوالي مِنْ حديث هِلال بنِ العَلاءِ البَاهِلِيِّ"؛ و"جزء فيه أربعة أحاديث مُنتقاة مِنْ جزء الحفَّار"؛ ورسالة في "ذمِّ المَكْسِ" لِلحافِظِ السيوطي؛

ورسالة في "فَضْلِ الشِّتاء" له أيضاً؛ و"الوَجِيز في ذِكْرِ المُجازِ والمُجِيز" لِلحافِظ السِّلَفِي، رحمهم الله جميعاً.

فهذه بعضُ الكُتب المُسنَدَةِ التي تَمَّ نَسخُها ولله الحمدُ، وهناك أجزاءٌ حديثِيَّةٌ أخرى لم يُسعِدني الحظُّ بِإتمامِها لِعَوائِقَ وموانع حالتْ دون ذلك.

وأَمَّا الكُتب التي ليست فيها أحاديث مسنَدَة ولا تَشتمل على الطُّرقِ والأسانيد، فليس لي بِها كَبير عِناية، ومع ذلك فقد نَسختُ منها ما دَعَتْ إليه الحاجةُ، مِنْ ذلك: "المَدْرَج إلى المُدْرَجِ" لِلحافِظ السيوطي؛ و"الثغور الباسِمَة في مناقب السيدة فاطمة عليها السلام" له أيضاً؛ و"تخريج أحاديث المَواقِف" له أيضاً؛ و"تخريج أحاديث النَّسَفِيَة" له أيضاً؛ و"نُزول الرَّحمة في التَّحدُّثِ بِالنِّعمة" لِلحافِظ السيوطي أيضاً؛ و"المعاني الدقيقة في إدراك الحقيقة" له أيضاً؛ و"إفادة الخَبَر بِنَصِّهِ في زيادة العُمر ونَقْصِه" له أيضاً؛ و"الناسخ والمنسوخ لِلزُّهري" لِلشيخ أَبِي عَبدِ الرحمن السُّلَمي؛ و"الأزهار المُتَناثِرة في الأحاديثِ المُتواترة" لِلحافِظ السيوطي أيضاً رحمه الله.

فهذا ما نَسختُ مِنْ كُتبِ الحديث وما يتَّصلُ به.

وأمَّا غير الحديث: فَنسختُ "التعريف بِأدَبِ التأليف" للحافظ السيوطي رحمه الله، وقد طَبعه النَّبهاني مع كِتابه "سبَبُ التأليف لِلعبد الضعِيف" المطبوع في آخر كِتابه "كرامات الأولياء"، ولم أقِف عليه إلا بعد نَسْخِه بِيَدي؛ و"الزَّهر الباسِم فِيما يُزوِّج فِيه الحاكم" للسيوطي أيضاً؛ و"رسالة في الجواب عن سؤال العَبدِ: هل له في فِعْلِه نوعُ اِختيارٍ؟ وهل يُعارِض قولَه تعالى ﴿ **وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ**﴾"، لِلسيوطي أيضاً؛ و"الإفضال والمِنَّة في رُؤيةِ النِّساء لله في الجنَّة" لِلشقِيق أَبِي الفَيْضِ رحمه الله.

ونَسختُ مِنْ كُتب التصوفِ: "شَرْح نُونِية الشُّشْتري" لِابْنِ عَجِيبة رحمه الله؛ وشَرحيْنِ علَى مُقطعاتِه له أيضاً؛ و"شَرْحَه على أبيات: ((تَوَضَّأْ بِماءِ

الغَيْبِ..))"؛ وشرْحَ العارف الحرّاق على البيتين أيضاً؛ وشرْحَ أَخِ البُوزَيْدِي عليهِما؛ وشرْحَ زرُّوق على النُّونيةِ أيضاً.

فهذا ما تَيسَّرَ نَسخُه وكِتابتُه بِيَدي ، زيادة على ما اِنْتقَيتُه مِنَ المسائل المختلفة في كراريس تَقربُ مِنَ المجلَّد. والحمدُ لله الذي وفَّقنِي لسلوك طريقِ أهلِ الحديث في مِثلِ هذا. وفي ذلك فضلٌ عظيمٌ، وخيرٌ عميمٌ، وشَرفٌ جسيمٌ، وبرهانٌ ساطعٌ على علوِّ الهِمَّة ومحبَّةِ الاشتغال بالعِلم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وبالله التوفيق".

الباب الرابع

فصل

ظَهر لي أَنْ أُفرِدَ هذا البابَ لِذكر مؤلَّفات صاحِبِ الترجمة، ما تَـمَّ منها وما لم يَتِم، وما طُبِع وما لم يُطْبع.

وهُنا أَذكرُ أَنَّ لِصاحبِ الترجمة دُونَ المؤلَّفات التي سأذكرها فَتاوى كثيرة في مسائل متنوعة، وأجوبة في مواضيع مختلفة عن أسئلةٍ أَتَتْه ولا زالت تأتِيه مِنَ المغرب وغير المغرب، بحيث لو جُمِع كلُّ ذلك لَكان على الأقلِّ في مجلَّدٍ ضخمٍ؛ ولكن مع الأسف أخبرَني بأنَّه لم يَعتَنِ بِجمعِها، ولم يَترك نُسَخاً منها عنده إِلَّا النَّزر القليل، فلذلك ضاع معظمُها، ولم يَبق تحت اليدِ أغلبها؛ وهي تشتمل على فوائد جَمَّة في الحديث، والفقه، والتصوف، والتاريخ، وفي غير ذلك مِمَّا يتعرض له السائلون مِنْ أهل العِلم.

وحتَّى المؤلَّفات، كان أرسلَ البعضَ منها لِبعضِ أهل العِلم بِطلبٍ منهم، ولم يتمكَّنْ مِنَ الاحتفاظ بِنُسخٍ منها عنده، فلذلك ضاعتْ مِنه.

وأوَّلُ كتابٍ أَلَّفه في المسائل التي تتعلَّق بالفروع الفِقهية:

1- "القَولُ المأثورُ في جواز إمامَةِ المرأةِ بِربَّاتِ الخُدُور"، أَيَّد فيه القولَ بِجواز إمامَةِ المرأةِ بِالمرأةِ في الصلاة، بالدليل الثابت في ذلك. وحرَّر فيه على

صِغره، حفظه الله، مذاهبَ العلماء في ذلك، وختمه بخاتمةٍ لطيفةٍ فيما يتعلَّق بالموضوع مِنَ السُّنَن والمستحبات، وقد طُبع بِمصر سنة 1368 هـ؛ وبعد ما يَقربُ مِنْ أربعين سنة أَلَّفَ كتاباً آخَر في الموضوع سَمَّاه:

2- "**حُسنُ الأسوةِ في جَواز إمامَةِ المرأة بِالنِّسوة**"، وقد زاد فيه زياداتٍ وتحقيقاتٍ عن الرسالة الأولى. وطُبِع بِطَنْجة، وقد كَتبتُ تقديمَ هذا الكِتاب.

وأوَّلُ كِتابٍ جَمَعه في طُرقِ الحديث:

3- "**جَنْيُ الباكُورة في طُرُقِ حديث: «لَا تَدخلُ الملائكةُ بيتاً فِيه كلبٌ ولا صُورة»**"، وهو جزءٌ صغيرٌ جَمع فيه طُرقَ هذا الحديث لـمَّا كان بِمِصرَ.

وأَولُ كتابٍ كَتبه في تصحيح الأحاديث التي اِختلف أهلُ الحديث فيها، حتى قال بعضُهم بأنَّها موضوعة:

4- "**الإفادَة بِطُرقِ حديث: «النَّظَر إِلَى عَلِيٍّ عِبادَة»**"، كَتبه بِمِصر؛ تكلَّم فيه علَى طُرق هذا الحديث، وصحَّحَ بعضَها، وحسَّنَ البعضَ الآخَر، على طريقِ أهلِ الحِفظ والإتقان مِنْ أهل الحديث، وسلك فِيه مَسلَكَ الاجتهاد في نقْدِ الرجال، وأتَى في الكلام على كلِّ طريقٍ مِنَ الدلائل الحديثِيَّةِ ما لا يَبقَى معه مجالٌ لِلشَّكِّ في صحَّةِ الحديث؛ رغم كونِ اِبنِ الجَوزي ذَكَره بِجميع طُرقِه في "الموضوعات"؛ ثم ضمَّ إليه قواعدَ في علم الحديث نفيسةً للغاية. وجميعُ مَنْ قرأه أُعجِبَ به لِمَا اِشتمل عليه مِنَ القواعد والفوائد في عِلم الحديث. وذَكَر لي أَنَّ بعضَ الأفاضل مِنْ أهلِ العِلم لَمَّا قرأه قال له: "لَم أَكُن أظُنُّكَ على هذه المعرفة.."؛ وكذلك أُعجِبَ به كثيرٌ مِنْ رجال العِلم في مَكَّة، وغيرها.

وأوَّلُ كتابٍ كَتبه في تخريج الأحاديث كِتاب:

5- "**رفْعُ العَلَم بِتخريج أحاديثِ إيقاظِ الهِمَمِ في شرْحِ الحِكَم**"، خرَّج فيه أحاديث شرْحِ الحِكَمِ لِابنِ عَجِيبة رحمه الله، وهو مفيدٌ في بابِه، لاسيما وأغلب الأحاديث المذكورة فيه تَرُوج بكثرةٍ في كُتب الصوفية مِنْ غير عَزْوِها ولا بيانِ

حالِها، وقد أخذه مِنه أحدُ عُلماءِ مكَّـةَ الأشراف.

وأوَّلُ كتابٍ كَتبه في التعقب علَى مَنْ تكلَّم في الأحاديث الموضوعة. كتاب:

6- **"بُلوغُ الأَمانِي مِنْ مَوضوعات الصَّغاني"**، تَتَبَّع فيه ما أورده الصَّغاني في رسالتِه في الموضوعات، ونَقَدَ كلامَه نقداً حسناً، وضمَّ إلى ذلك فوائدَ حديثِيَّةً وغيرَ حديثِيَّةٍ، تتعلَّق بالكِتاب، فجاء كتاباً حسناً في بابه مفيداً لقارئه. وهو في مُجلَّدةٍ لطيفةٍ أثنَى عليه كلُّ مَنْ قرأه. وإختصره في كتابٍ آخر سمَّاه:

7- **"التَّهاني في التَّعقب على موضوعاتِ الصَّغاني"**، طُبِع بِمِصر.

وهذه الكتب كَتبها وهو لا يزال بِمِصر إلَّا "التَّهاني"، فقد إختصره أخيراً لَمَّا كَثُر الطلبُ على "بلوغ الأماني" مِنْ كثيرٍ مِنْ أهل العِلم؛ لأنَّ "بلوغَ الأماني" يَحتاج طبعُه إلى وقتٍ ومادَّةٍ، فلخَّص مِنه "التهاني".

8- وكذلك مما كَتبه بِمِصر مِنْ كُتب التخريج: **"التَّعطف في تخريج أحاديثِ التَّعرف لِمذهب أهلِ التصوف لِلكَلابَاذي"**. أجادَ فيه وتوسَّعَ في تخريج أحاديثِه، لكن لم يُتِمَّه إلَّا بِطنجة، لأنَّه عند كتابتِه والوصول إلى نِصفِه تَهيَّأ للعودة إلى أرضِ الوطن.

وكذلك مِنْ كُتب التخريج التي كَتبها بالقاهرة:

9- **"تخريج أحاديث كتاب البَعث لِابْنِ أَبِي داود"**، وهو مع الأسف مِنَ الكُتب التي خرجتْ مِنْ يده، لأنَّه كَتبه بِطلبٍ مِنْ مدير مكتبة جامع الأزهر، لِكونِه أراد أَنْ يَطبع "كِتاب البعث"، وأَحَبَّ أَنْ يُطْبع معه تخريج أحاديثه؛ فأخذه مديرُ المكتبة وطَبَعه مع "كتاب البعث"، لكن نَسَبه إلى نفسِه، ولَم يعرض بِصاحِب الترجمة مطلقاً. وعملُه هذا يُعتبر مِنَ الخيانة التي لا تَليق بأهل العِلم، زيادة على كونِه سطواً على حقوق المؤلِّف المرعية دولياً، وإستغلال عِلمه وإجتهاده.

10- وكَتب بالقاهرة أيضاً كتاب: "**نَيلُ الأجرِ بِتَلْقِينِ المَيِّتِ في القَبرِ**"، بيَّن فيه سُنَّةَ التَّلقين بعد الدَّفن، وذَكَر مَنْ قال ذلك مِنَ الأئمة. وذكر لي أَنَّ سببَ تأليفه سؤالٌ وَرَدَ عليه مِنْ بعض الناس عن رجلٍ يُنسَبُ للطائفة الخَطَّابيَة، التي يَرأسُها الشيخ محمود خَطَّاب السُّبكي، أَنْكَر سُنَّةَ هذا التلقين ونَفَى وُرودَه في حديث؛ فحرَّر حفظه الله في الجواب عن السؤال مَقالَيْنِ نَشرهما في "مجلة الإسلام"، ثم بلغه عن هذا السُّبكي، بعد نشْرِ المقالَيْنِ، أنَّه غضب وزاد في التعنت والإنكار، فألَّف مِنْ أجل ذلك الكتابَ المذكورَ، وزاد فيه كلامَ الفقهاء في الموضوع، وما يتعلق بِرجوع الرُّوحِ إلى الميِّتِ في قبرِه، وما يتعلَّقُ بِتلقين الطِّفلِ الصغير كذلك، وهل هو سُنَّةٌ في حقِّه كذلك كالكبير؟ وغير ذلك مِنَ المسائل التي تتصل بالموضوع، وسمَّاه: "الرَّجمُ والزجر لِمُنكِرِ تَلقين الميِّتِ في القَبر" ثم أبْدَلَه بِالاسم السابق لأنَّه أدلُّ على موضوع الكتاب.

11- كما كَتب بالقاهرة أيضاً كتاب "**البُغْية في تَرتِيبِ أحاديثِ الحِلْيَة لِأَبِي نُعَيم**"، رتَّبها على الحروف مع بيان رقمِ الجزء والصحيفة، وهو مفيدٌ ومُنْجدٌ للمُحدِّث، يُقرِّب الكشفَ على الحديث بسهولةٍ، وقد طُبع بِمِصر ونَفَد؛ وكَثُر الطلبُ عليه، ثم أُعِيدَ طَبعُه مرةً أخرى في بَيرُوت. وقد قال لي صاحبُ الترجمة: "بِأَنَّ الكتابَ يُطبعُ الآن مِنْ جديدٍ بِدِمشق مع ذِكر أسماء التراجم التي ذَكَرها أبُو نُعَيم في "الحِلْيـة"".

12- وكَتب بِمِصر أيضاً: "**التِّبيان لِحالِ حديثِ: «أنَا ابنُ الذَّبِيحَيْن»**" وهو جزءٌ صغيرٌ كَتبه قديماً في بيان حال هذا الحديث.

13- وكَتب بِمِصر أيضاً كتاب: "**نَظْم اللَّآلِ فِيما أَخذَه الشمسُ اِبنُ طُولُونَ مِنْ كُتبِ الجَلال**" يعني الجلالَ السيوطي؛ ذَكَر فِيه ما أخذه اِبنُ طُولُونَ الحَنَفي مِنْ كُتب الجلالِ السيوطي ونَسَبه إلى نفسِه، مع مقدمةٍ مفيدةٍ في ترجمة الرَّجُلين، وما يَتعلق بذلك مِنَ الفوائد العلمية والتاريخية والأدبية. والكِتابُ مفيدٌ في بابِه،

غريبٌ في موضوعِه.

14- وكَتب بالقاهرة أيضاً كِتاب: "تَحذير الأغبياءِ مِنْ مَذهبِ النُّشوءِ والارتِقاء"؛ بيَّن فيه فَسادَ عقيدةِ مَنْ يقول بِأَنَّ الإنسانَ لم يُخلَق لأوَّلِ مرَّةٍ على هذا الشكل، وإنما تطوَّرَ مِنْ حالٍ إلى حالٍ حتى بلغ إلى هذه الهيئةِ؛ وهذا قولٌ لبعض ملاحدة أوروبا، وتَبِعهم بعضُ ملاحدة الشَّرق. وقد ذَكَر الدليلَ على فسادِه عقلاً ونقلاً، وأتَى بالدليل على كُفر معتقِدِه مِنَ القرآن والسُّنةِ، والإنجيلِ وغيرِ ذلك.

وقال: "وقد كتبتُ في هذا الموضوع مقالَيْنِ نُشِرا في "مجلة الخلود" بالقاهرة، تحت عنوان: "شياطين سُلَيمان".."

15- ومِنْ تآلِيفِه "الجواهر المَرصُوعَة في تَرتيبِ أحاديث اللَّآلِي المصنُوعة" لِلحافظِ السيوطي، رتَّب فيه أحاديثَ ذلك الكتاب على الحرف المُعْجَمِ، مع بيان رقم الجزء والصحيفة. والكتابُ رغم كونِه مرتَّباً على الأبواب، فإنَّ الكشفَ فيه عن الحديث يَعْسرُ في بعض الأحيان، لِعُزوبِ مظانِّه عن الذِّهن، وَبترتِيبِه لها على الحروف صارت سهلةَ الأخذِ والمراجعة. وقد كَتب منها نُسختيْنِ، أخذَ شقيقُه أبو الفيض رحمه الله نسخةً له.

16- ومِنْ تآليفِه التي كَتبها في تصحيح حديثٍ قال بعضُ الحُفاظ بِضعفِه، وبعضُهم بِوضعِه، كتاب: "وَثْبَة الظَّافِرِ لِبَيانِ حالِ حديثِ «أتَرعونَ عَنْ ذِكرِ الفَاجِر»"؛ ذَكَر فيه طُرقَه وبيَّن سلامةَ بعضِها مِنَ الضعفِ، وقد طُبع بتِطْوان.

17- وكَتب كتاب "قَطْع الوَتِين مِمَّنْ يُحِبُّ السِّمَنَ ويَغْبِطُ السَّمِين". وهو كتابٌ مفيدٌ في بابِه، غريبٌ في موضوعِه، جَمَع فيه ما يتعلقُ بالسِّمَنِ والسَّمِين مع فوائدَ كثيرةٍ. وخَتَمه بخاتِمةٍ في الكلام على الحديث الذي يُوهِمُ أَنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم كان سَميناً، وتكلَّم عليه مِنْ ناحية المعنى والإسناد على طريقة المجتهدين في الحديث، وفيه ولِلَّهِ الحمدُ براعةٌ تَشْهد بِتقدُّمِه وتَمَكُّنِه مِنْ هذا العِلم. والفضلُ لله وحده.

18- وله تأليفٌ في الردِّ على النَّابلسيِّ، سمَّاه "**التَّحذير مِمَّا ذَكَره النَّابلسِيُّ في رُؤيةِ فاطمَةَ والحَسَنِ والحُسَينِ مِنَ التَّعبير**". بيَّن فيه فسادَ ما ذَكَره النابلسِيُّ في كِتابِه "تَعطير الأنَام بِتَعبير المَنام" مِنَ الكلام السَّاقِطِ الذي لا يَلِيقُ ولا يُناسِبُ مقامَ بيتِ النُّبوةِ مِنْ تَعبيرِ رُؤيةِ أحدِهِم في المَنام. وقد شَهِد بِحُسنِه وبراعتِه فيه كلُّ مَنْ رآه، وقَـرَّظَه أَبو الفَيضِ رحمه الله بِتقريظٍ حسَنٍ جَميلٍ.

وأخبرني صاحبُ الترجمة أَنَّه لَمَّا شرع في كتابةِ هذا الرَّدِّ أخبر أبَا الفيضِ -وقد كان مقيماً في أَزُمُّورْ- بالشروع فِيه. فكَتب إليه بِأَنَّ الردَّ على النابلسيِّ في هذا الموضوع يحتاج إلى درايةٍ وخِبرةٍ بِعِلم التعبير، ولهذا قال له ربما لا تأتي بالردِّ على الوجه المطلوب؛ فلمَّا كَتب صاحبُ الترجمةِ الرَّدَّ المذكورَ وأرسله إلى شقِيقِه أَبِي الفَيض تعجَّبَ كثيراً وإستغرب مِنَ الأدلة التي أتَى بِها في الردِّ على النابلسِيِّ مِنْ قواعد عِلمِ التَّعبِيرِ نفسِه، مع ذِكْرِ نُصوصِه في ذلك، وذَكَر الأحاديثَ الدَّالَّةَ على بُطلان ما زَعَمه النابلسِيُّ في تَعبيرِ رُؤيا فاطمة والحَسَنِ والحُسينِ؛ وإعترف شقيقُه بِإتقانِ الردِّ، فلِذلك قَـرَّظه بتقريظٍ طُبِع معه.

19- ومِنْ كُتبه التي أخذتْ شهرةً بين رجال العِلم على صغره، كتاب: "**الباحِث عن عِلَلِ الطَّعنِ في الحارِثِ**"، ردَّ فيه طعْنَ أهل الجَرحِ في الحارِثِ بنِ عبدِ اللهِ الهَمَداني، صاحِبِ عليٍّ بنِ أبِي طالِبٍ عليه السلام، وبيَّنَ غَلطَهم فيه. وذَكَر أنَّه في الدرجةِ العُليا مِنَ العدالة، بل ربَّما كان أعْلَى درجةً مِنْ كثيرٍ مِنْ رجال الصحيحِ، وقد أيَّدَ ذلك بالأدلة والقواعدِ الحديثِيَّةِ، بحيث كلُّ مَنْ رآه إعترف بإتقانِه الكلام فيه، وَردَّ تلك الطعون مِنْ غيرِ تَعنُّتٍ ولا سلوكٍ طريقَ الشُّذوذِ عن القواعد، بل بِتطبيق القواعد المعروفة التي لا يُمكِنُ ردُّها ولا نكرانُها، وقد قرَّظَه أبُو الفَيضِ رحمه الله.

وأخبرني صاحبُ الترجمة أنَّه لمَّا رحل لأداء فريضةِ الحجِّ في رحلتِه الأُولَى سنة 1401، وجَدَ لِهذا الكتاب أثراً كبيراً بين أهلِ العِلمِ في مكَّةَ والمدينة؛ وكُلُّ

مَنْ جالَسَه يُكثِرُ الثَّناءَ عليه ويَعترف بأنَّه لا يُكتَبُ مِثلُه في هذا الوقتِ.

وقد كَتب ذيلاً عليه في الردِّ على الألباني الذي عرَّض بصاحب الترجمة في بعضِ كُتبِه، وزَعَم أَنَّ تَوثيقَ الحارِثِ شَذَّ به صاحِبُ التَّرجمةِ، متَّهِماً له بالتَّشيُّعِ، فردَّ عليه هذه الجَهالَةَ بحقيقة الحارِثِ، وبيَّنَ جَهلَه في ذلك وعدَمَ إطِّلاعِه على أقوال العلماء الأئمةِ الذين عدَّلوا الحارثَ ووَثَّقُوه، وبيَّن بُعْدَهُ عمَّا رُمِيَ به مِنَ الكذبِ والجرحِ الذي وقع مِنْ بعض رجالِ الجَرحِ في الحارِثِ، مع قواعد أخرى تتعلَّق بِعِلم الجرحِ جَهِلَها الألبانيُّ؛ وقد سمَّى هذا الردَّ على الألباني:

20- **"بَيَان نَكْثِ النَّاكِثِ المُتَعدِّي بِتَضعِيفِ الحارِثِ"**.

21- وله كتاب: **"مُحاضَرة النَّشوانِ في الجوابِ عن سُؤالِ عالِمِ تِطْوان"**؛ وهو سؤالٌ ورَدَ عليه مِنَ العالِمِ الجليلِ الصُّوفيِّ، المُدرِّسِ بالمعاهِدِ العِلمية بِتِطْوان، الشَّريفِ السيدِ محمد بنِ عبدِ الصَّمدِ في موضوعِ صلاةِ الجمعة ركعتَينِ مِنْ غَيرِ خُطبةٍ ولا جماعةٍ، قائلا له: ".. إنَّنِي كُنتُ صلَّيتُ معك الجمعةَ 'بِشاطِئِ مَارتِيلْ' بِتِطْوان في المنزلِ بغير خُطبةٍ، ركعتين. والآنَ حصل في ذلك كلامُ بعض الناس، فأردتُ أَنْ أُبيِّنَ لهم دليلَ المسألةِ.". فكَتَبَ صاحبُ الترجمة هذا الكتابَ وبيَّنَ فيه أَنَّ إشتراطَ الخُطبة والجماعة لِصلاةِ الجمعة ركعتين لا دليل عليه، وأَنَّ ذلك مجرَّدَ إستدلالٍ بِما لا يَصلُحُ لِلاستدلالِ في الموضوعِ. وقد تمَّ طبْعُ الكتابِ بِتِطْوان.

22- وكَتب: **"الإِنَارة بِمَا وَرَدَ في تَحريكِ المُصلِّي أُصْبعَهُ عِندَ الإشارة"**، أثْبتَ فِيهِ أَنَّ تَحريكَ الأُصبُعِ في الصلاة سُنَّـةٌ ثابِتَةٌ، خِلافَ ما ذَهَبَ إليه مَنْ يَقولُ بِعدمِ تَحريكِها، وفي مُقدِّمتِهم أَبُو بَكْرٍ اِبنُ العَرَبِي المَالِكِيُّ، وقد طُبع في طنجة.

23- وله: **"الجوابُ المُطْرِبُ لِمَنْ سألَ عنْ أدلَّةِ إستحبابِ الركعتيْنِ قَبلَ صلاةِ المَغربِ"**، وهو مختصَرٌ مِنَ:

24- **"المُعْرِب عَنْ أدلَّةِ إِسْتِحْبابِ الركْعتيْنِ قَبلَ صلاةِ المَغربِ"**.

وقد أجاب فِي المختصَرِ عن سؤالٍ ورَدَ إليه مِنَ القَصْرِ الكَبِيرِ مِنَ الشريفِ الفاضِلِ السيدِ الحاجِّ محمد الغُمَارِي، ذَكَر فيه أنَّه دخل إلى مسجدٍ قبل صلاةِ المَغْرِبِ، فلمَّا اِنتهَى المؤذِّنُ مِنَ الآذان، قام فصلَّى ركعتين عملاً بالحديث الوارد في ذلك؛ فقامتْ عليه قِيامةُ الحاضرين اِستنكاراً لِفِعلِه حتى مَدَّ إليه أحدُهُم يَدَهُ وصارَ يُقعِدُهُ كأنَّه أتَى بِمنكرٍ، فكَتَبَ إلى صاحِبِ الترجمة يَطلُب منه تحريرَ كتابةٍ في الموضوعِ، فكَتب كِتابَ "المُطْرِب" الذي اِختصره مِنْ كتاب "المُغْرِب".

25- وله: "إِظْهارُ ما كانَ خَفِيًّا مِنْ كَلَامِ الذَّهَبِي في حديثِ: «مَنْ عادَى لِي ولِيًّا»"، اِختصرَهُ في رسالةٍ سمَّاها:

26- "إِثْباتُ المَزيَّةِ بِإِبْطالِ كَلامِ الذَّهَبِي في حديث: «مَنْ عادَى لِي وَلِيًّا»".

وهُما في ردِّ كلامِ الذَّهبِي الذي ذَكَره في ترجمةِ خالِدِ بنِ مَخْلِدِ القَطَوانِي مِنَ "المِيزان"، حيث قال في شأنِ الحديث القُدسيِّ الذي رواه البخاري في صحيحِه: «لا يَزالُ عَبدِي يَتقرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّه، فإِذَا أَحْبَبتُه كُنتُ سَمْعَه..» الحديث: ((لولا هَيبَةُ الصحيحِ لَعَدَدْتُه مِنْ مُنْكراتِ خالِدٍ)). فَبَيَّنَ في هذيْنِ التأليفيْنِ أَنَّ الحديثَ غيرُ مُنكَرٍ، وأنَّه وَرَدَ مِنْ طُرقِ عَشرةٍ مِنَ الصحابة، مِمَّا يُبعِدُ عنه النَّكارةَ التي زَعَمَها الذَّهبِي كما هو مقرَّرٌ في عِلمِ الحديثِ؛ وبيَّنَ في مقدِّمةِ الكتابين السببَ الحاملَ لِلذَّهَبِي رحمه الله علَى هذه الدَّعوَى، وهو كونُه حُجَّة للصوفية في مسألةِ الفَناء، وأَنَّ العبدَ يَفْنَى عن نفسِه بِبَقاءِ صِفاتِ ربِّه. لأَنَّ الذَّهَبِي نشأ في مدرسةٍ منحرفةٍ عن الصوفية، وأُشْرِبَ مِنْ صِغره الاعتراض والانتقاد لِقولِهِم وفِعْلِهم، فصار كلُّ حديثٍ يُروَى فيهِ تأيِيدٌ لَهم يُضعِّفه إمَّا مِنْ جهة لفظِه ومعناه، وإِمَّا مِنْ جهة راويه ولو كان مِنْ رجالِ الصحيح، كما وقع له في هذا الحديث. وقد طُبِعَ "إِثْباتُ المزيَّة" بِطَنجة.

27- وكَتب أيضاً: "تَنزِيه الرَّسولِ عن اِفْتِراءِ الغَبِيِّ الجَهُول". وهي رسالةٌ طُبعت بِطَنجة بيَّنَ فيها فسادَ ما ذَكَره شُرَّاحُ صحيحِ البخاري، ومُوطَّإِ مالِكٍ، في

قولِه صلى الله عليه وآله وسلم للصحابة في الصلاة: «**إنِّي لَأَراكُمْ مِنْ خَلْفِي كَما أَراكُم مِنْ أَمَامِي**». فقد ذَكَرَ الشُّراحُ هُنا، ومنهم الحافظُ اِبنُ حَجَر، مِنَ الأقوال التي قِيلتْ في رؤيتِه صلى الله عليه وآله وسلم مَنْ خَلْفَه مِنَ المُصلِّين أَنَّه كان له عَيْنان صغيرتان كَسَمِّ الخِياط يَنظرُ بِهِما. فأَبطَلَ في هذه الرسالة هذا القولَ الشنيعَ في حقِّ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبيَّن مخالفتَه لِمَا وَرَدَ في صِفتِه صلى الله عليه وآله وسلم مِنَ الجمال والكمال، وعدمِ اِتِّصافِه بشيءٍ يُخالِفُ هذه الصِّفات.

28- وله كتاب: "**إفادة الأتقِياءِ بِإطِّلاعِ الأمواتِ على عملِ الأحْيَاء**". ذَكَرَ فِيه أَنَّ المَيِّتَ المُؤمِنَ يَبقَى في البَرزخ عَلَى اِطِّلاعٍ بأحوال أهلِه وأقاربِه مِنَ الأحياء، تُعْرَضُ عليه أعمالُهم مِنَ الخير والشرِّ، فَيُسَرُّ لِخيرهِم ويَستاءُ مِنْ شرِّهِم. وذَكَرَ الأحاديثَ المَرفوعَةَ والآثارَ الموقوفةَ الواردةَ في ذلك.

29- وله أيضاً: "**كتابُ الأَرْبعِين العَزِيزِيَّة فِيما أَخْبرَ به النبيُّ عليه صلواتُ الله مِنْ أحوالِ هذا الوقتِ المُظْلِمِ**"، وقد تَولَّيتُ شرْحَها. وهو مطبوعٌ بِطَنجة.

30- وله أيضاً: "**الأربعُونَ في ذَمِّ البُخلِ والبُخلاء**".

31- وله: "**ضَوءُ الشَّمعةِ في الكلام علَى حديثِ وقْفَةِ الجُمعة**"، أجاب فيه عن سؤالٍ وَرَدَ مِنْ إنْدُونيسْيَا على الشيخ يَاسِين الفَادَانِي، مُديرِ دارِ العلوم الدِّينِيَّةِ بِمَكَّةَ، مِنْ بعض طَلبتِه. فحوَّله إلى صاحبِ الترجمة وطلَبَ منه الجوابَ عليه، فأجاب عليه بهذه الرسالة التي بيَّن فيها أَنَّ الحديثَ موضوعٌ لا أصلَ له. وقد طُبِعت بالقاهرة، وأُعْجِبَ بها كلُّ مَنْ وقَف عليها مِنْ علماءِ مكَّةَ.

32- وله: "**تَسهِيلُ المَدْرجِ إلَى المُدْرَجِ**"؛ رتَّب فِيه "المَدْرج إلَى المُدْرج" لِلحافِظِ السيوطي على المَسانِيد. وقد طُبع بِدِمشق.

33- وله: "**التُّحْفةُ العَزِيزِيَّةُ في الحديثِ المُسَلْسَلِ بِالأَوَّلِيَّةِ**". وهو مَجلسٌ أمْلاه في هذا الحديث على طريقةِ الحُفَّاظِ بالزاويةِ الصِّديقِيَّةِ بِطَنجة. وقد تكلَّم

فيه كما هي عادة أهلِ الحديث على سنَدِ الحديث، وما يتعلق بالكلام على معناه، وذِكَر الأشعارَ الواردةَ في ذلك. وقد طُبع بِطَنجة.

34- وله: "**حُسْنُ السُّمْعة في إبْطالِ مَا اِشْتَرطَه الفُقهاءُ في صلاةِ الجُمعة**"، وهي رسالةٌ بيَّن فيها بطلانَ ما يَشترطُه الفقهاءُ مِنْ كونِ الجمعة لا تَصِحُّ إلَّا في مسجدٍ مَبنِيٍّ علَى هيئَةٍ خاصةٍ، وفي مكانٍ خاصٍّ، وبعددٍ خاصٍّ، بحيث إذا لم تجتمع هذه الشروطُ لا تَصِحُّ الجمعةُ ويُصلَّى الظهرُ أربعاً.

35- وله: "**رسالة في تحديدِ النَّسلِ**"، تكلَّم فيها على موضوع تحديد النَّسلِ بطَلبٍ مِنْ بعضِ الطَّلبة، فَبيَّن القولَ فيه بالأدلة الشرعية بِبَيانٍ تامٍّ.

36- وكَتب أيضاً: "**إتْحاف ذَوِي الفَضائِلِ المُشتَهِرةِ بِمَا وَقَعَ مِنَ الزِّياداتِ في نَظْمِ المُتَناثِرِ علَى الأزهارِ المُتَناثِرة**". وهو كِتابٌ ذَكَر فيه الزِّياداتِ التي زادها أبُو عَبدِ اللهِ محمدُ بنُ جَعفر الكِتَّاني رحمه الله في كِتابه "نَظْم المُتَناثِر في الحديثِ المُتواتِر" علَى كتاب "الأزهار المتَناثِرة في الأحاديث المُتواتِرة" للحافِظِ السيوطي، وقد طُبع بالقاهِرَة. وحصل عليه إقبالٌ بحيث نَفَد بعد صُدُورِهِ بأيامٍ قليلةٍ، وأُعِيدَ طَبعُه مرةً ثانيةً بالقاهرة كذلك.

37- وله: "**إتْحافُ ذَوِي الهِمَمِ العَالِيَةِ بِشَرْحِ مَتْنِ العَشْماوِيَّةِ**"، شَرَحَ فيه متْنَ العشماوية في فِقْهِ مالِكٍ، مقتصِراً فيه على ذِكْرِ دليل المسألة مِنَ الحديث والآثار.

38- وله: "**الوقايةُ المانِعةُ مِنْ وَسْوسَةِ أَبِي بَكْرٍ اِبنِ العَرَبِي المَالِكِيِّ في قولِه تعالى ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾**"؛ ردَّ فيه ما ذَكَره اِبنُ العَرَبِي المَالِكِي في كِتابه "سِراج المُريدِين" في قوله تعالى: ﴿**خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ**﴾ أنَّها خافِضةٌ لِفاطِمَةَ عليها السلام، رافِعةٌ لِعائِشَةَ رضي الله عنها. وقد طُبِعت بِتِطوان.

39- وله: "**القَولُ الأَسَدُّ في إبْطالِ حديثِ: «رأيتُ ربِّي في صورةِ شابٍّ أمْرَد»**"، تكلَّم فيه على طُرقِ هذا الحديث بما تقتضيه القواعدُ الحديثيَّةُ، وقد طُبِعَ بالقاهِرَة.

40 - وله: "جزءٌ في بيان حالِ حديثِ: «أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً مَا»".

41- وله: "إِحْياءُ الـمَواتِ بِحُكمِ القراءةِ علَى الأموات"، بيَّن فيه بالدليل الثابتِ في جَوازِ القراءةِ علَى الـميِّتِ.

42- وله: "تَنبِيهُ الغَبيِّ علَى طهارةِ الـمَنِـيِّ"، بيَّن فيه أَنَّ الـمنِيَّ طاهِرٌ بالأحاديث الصحيحةِ.

43- وله: "دفْعُ الجـَوْرِ عمَّن يقولُ بِأَنَّ الحجَّ واجبٌ علَى الـفَـوْرِ"، وهو جزءٌ أجاب فيه عن سؤالٍ وَرَدَ إليه في مسألة الحجِّ، هل هو علَى الفورِ أمْ لا؟ فبيَّنَ فيه أَنَّ الحجَّ واجبٌ على الفورِ. وقد أُذِيعَ هذا الجوابُ مختصَراً في إذاعة طنجة في ركن: وإسألُوا أهلَ الذِّكرِ.

44- وله: "دفْعُ الضَّررِ عمَّن يقولُ بِإِمْكانِ الوُصولِ إلى القَمر"، والسببُ في تأليفه أَنَّ أحدَ الخطباء في طنجة ذَكَر في خطبةٍ له يوم الجمعة أَنَّ مَنْ يقول بالوصول إلى القمر كافـرٌ. فسُـئِلَ عن صحَّةِ هذا القولِ، فكَتب في الجواب عنه هذا الكتاب، حيث بيَّن فيه أَنَّ القولَ بالوصول إلى القمر لا يخالف الدِّينَ لا في قليلٍ ولا في كثيرٍ، لأن القمرَ لا يَخرجُ عن كونِه كوكباً في الفضاء مثل الأرض. والأرض أشرف منه لأَنَّ فيها الأنبياء والرسل، ومع ذلك فيُوجَدُ فيها النصارى واليهود وغيرهم.

45- وله رسالةٌ في ذِكرِ ما قاله علماء الإسلام في دوران الأرض سمَّاها: "دَوَرانُ الأرض عند علماء المسلمين". ذكر فيها ما وقف عليه من أقوال العلماء في أَنَّ الأرضَ تَدور كما ثبت في العلم الحديث.

46- وله: "الأَجْوبةُ ذاتُ الشَّأنِ عن الأسئلةِ الواردةِ مِنْ مَرْشان"، أجاب فِيها عن أسئلةٍ وإيراداتٍ أَوْرَدَها بعضُ طلبتِه على كتابه "دفْع الضَّرر.."، فكشف فيها عن تلك الإيرادات ما اِلْتَبَس على صاحِبِها مِنَ القول الصواب في الـموضوع.

47- وله: "دفْعُ الوَصَبِ عن إمامَةِ العَزَب"، بيَّن فيه جوازَ إمامةِ العَزَبِ، وأنَّه إذا كان حافِظاً للقرآن أَوْلَى بالإمامة مِنَ الـمتزوِّجِ غيرِ الحافِظِ للقرآن، مع فوائد تتعلَّق

بِموضوع الإمامة عموماً.

48- وله: "جزءٌ في الكلام على حديثِ: «أُحِلَّت لَنا مَيْتَتانِ وَدَمَان»"، بيَّن فيه أَنَّ الحديثَ ثابتٌ وإِنْ تكلَّم فيه بعضُ أهل الحديث.

49- وله: "المُقتطَف مِنْ حديثِ المخصوصِ بِكاملِ العِزِّ والشَّرَف"، جَمَعَ فيه الأحاديث المرفوعةَ مِنْ كتاب "الزهد" لِلإمام أحمدَ، مع الكلام على ما يتعلق بِفقْهِها وفوائدِها، والكلام على أسانيدِها.

50- وله كتاب: "السَّوانِح"، وهو مجلدٌ ضخمٌ أطلعنِي عليه، وساعدني الحظُّ بقراءة بعض فصولِه القيِّمة، وقد ذكَر فيه، حفظه الله، ما سَنَح به الخاطرُ مِنْ فوائد جمَّةٍ تتعلق بمختلف الموضوعات العلمية، مِنْ تفسيرٍ وحديثٍ وفقهٍ، وتصوُّفٍ وتاريخٍ، ومسائل أخرى كثيرة.

51- وله كتاب: "السفينة"، وهو يُشبه "السوانح" في جَمْعِه لفوائد مختلفةٍ، غير أنَّه قد يَنقل الفائدةَ فيه بدون أَنْ يتعرض لها بِتعليق، وزاد فيه على "السوانح" أنَّه ذكر فيه بعضَ تآليفِه بِرُمَّتِها، وتراجِمَ بعضِ المعاصرين مِنَ العلماء وغيرِهم، مع فوائد أخرى وقف عليها أثناء مطالعتِه وأبحاثه. وقد تمَّ منه المجلدُ الأولُ ونِصفُ الثاني.

52- وله: "جزءٌ في طُرقِ حديثِ: «لا صلاةَ لِجارِ المَسجدِ إلَّا في المسجدِ»"، ذكر فيه ثبوتَ هذا الحديث مرفوعاً، وإِنْ كان كثيرٌ مِنْ أهل الحديثِ يُضعِّفونه مرفوعاً.

53- وله كتاب: "النَّفْحة الإلهية في شرْحِ الوصيَّةِ الصِّدِّيقية".

54- وله كتاب: "الأنوار القُدسِيَّة في شرْحِ الوصيَّةِ الصِّدِّيقية"، وهو مختصَرٌ مِنْ كتاب "النفحة الإلهية..". ولي عليه تعاليقُ تحت عنوان: "التصوف مقام الإحسان". وقد طُبع بطنجة.

55- ومِنْ مصنفاتِه المهمة التي تفرَّد بها في هذا العصر: "الجامِعُ المصنَّفُ

مِمَّا في المِيزان مِنْ حديث الراوي المُضعَّف"، وهو في ثلاثة مجلدات، تمَّ مِنْ مُبيضاتِه المجلد الأول. وهو كتابٌ نفيسٌ رتَّب فيه أحاديث "المِيزان في نقْدِ الرِّجال" لِلذَّهبِي على الأبواب، على طريقة مصنَّفات الحديث، ولهذا سمَّاه "الجامع المصنَّف"، يَذكر في الباب الحديثَ الواردَ فيها مِنْ طريق الراوي الذي تكلم فيه مِنْ أجلِه، ويَذكر ما ذكره الذهبِي في ترجمتِه مِنْ تعديلٍ وجَرحٍ، مع التعقب لِما يحتاج إلى التعقب.

56- وله كتاب: "الفتاوَى"، وهو كتابٌ جمع فيه بعضَ فتاويه في الحديثِ والفقهِ وغيرِ ذلك.

57- وله "جزءٌ في حُكمِ السَّفر إلى بلاد الكفار والإقامةِ بها"، أجاب فيه عن سؤالٍ وَرَدَ عليه في ذلك. فبيَّن فيه أَنَّ السفر إلى بلاد الكفار والإقامة بها لا شيءَ فيه مطلقاً، وأَنَّ النهيَ الواردَ في ذلك لا يَنطبق اليومَ على المُقيمين بها، لأنَّ النهيَ وَرَدَ عن سببٍ وهو اليوم مفقودٌ، وهذا السبب كونُ المُسلم يُمنع مِنْ إقامة شعائر دينِه في بلاد الكفار؛ أمَّا اليوم فالمسلمُ له الحرية الكاملة في إقامة دينِه والجهرِ بشعائر الإسلام بِدُونِ خوفٍ ولا مضايَقةٍ. وذَكَرَ في هذا الجزء بِأنَّ علَى المسلم اليوم وُجوب السفر إلى أُورُوبا، ويُقيم بها لِيَعملَ علَى تبليغ دين الإسلام إلى النصارى، حيث يُمكِنُه ذلك مِنْ غير مانعٍ. لأنَّ الله سبحانه وتعالى طَلَبَ مِنْ كلِّ مُسلمٍ الدعوةَ إلى دينِه ما اِستطاع إلى ذلك سبيلاً، وهذا قد اِستطاع السبيلَ إليه فَيجبُ أَنْ يَقومَ به.

58- وله كتاب: "المُستدرَكُ علَى مُسنَدِ عُمرَ بن عبدِ العزيز لِلبَاغَنْدِي"، اِستدرك فيه ما فات البَاغَنْدِي مِنْ حديثِ عُمرَ بنِ عبدِ العزيز.

59- وله كتاب: "المُنتَقَى مِنْ تاريخِ واسِط"، وهو جزءٌ اِنتقَى فيه الأحاديث مِنْ "تاريخ واسِط"، كما هي عادة المُحدِّثين.

60- وله أيضاً كتاب: "المُنتَقَى مِنَ الكُنَى لِلبُخاري"، جرَّد فيه الأحاديثَ

المرفوعةَ عنه.

61- وله: "**جزءٌ فيه الأحاديثَ المرفوعةَ مِنَ الأربعين مِنْ روايةِ الصوفية للمالِيني**".

62- وله أيضاً: "**المجموعة العَزِيزِيَّـة**" في مجلدٍ، ذكر فيها الأحاديث المسنَدَةَ التي جاء ذِكْرُها في كُتبِ أهل الحديث مَعْزُوَّةً إلى الكتب والأجزاء الحديثيَّةِ الغَريبةِ.

63- وله: "**تذكرةُ الأحاديث الضعيفة**"، جمع فيها ما وقف عليه مِنَ الأحاديث الضعيفة والموضوعة والتي لا أصل لها، المذكورةِ في كُتب الفقه والتفسير وغير ذلك.

64- وله: "**مُسنَدُ سيِّدةِ نساءِ العالَمِين فاطِمَـةَ بِنْتِ سيِّـدِ المُرسلِين صلَّى الله عليه وآله وسلم**"، ذَكَر فيه ما وقع له مِنْ حديثِ السيدة فاطمة عليها السلام ما يَقْربُ مِنْ عِشرين حديثاً أو يَـزيـد، مع أَنَّ الحافظَ السيوطي يقـول في "الثُّغور الباسِـمة في مناقب السيدة فاطمة" يَبلغ جميعُ ما رَوَتْـهُ مِنَ الأحاديث عَشرة أحاديث. فإستدرك عليه قَدْرَ ما ذَكَره، وهذا مِنْ فَضلِ الله.

65- وله: "**التَّبصرةُ في نقْدِ التَّذكِرة**"، اِنتقَدَ فيه "تذكرة الموضوعات" لِابْنِ طاهِرٍ المَقْدِسِيِّ، وتكلم فيه على كلِّ حديثٍ بِتوسُّعٍ، مع الكلام على رجال الأسانيد. وإستدرك عليه عَقِبَ كلِّ حديثٍ ما في الباب مِنَ الأحاديث التي لم يذكرها. وقد كَتب منه نِصْفَه أو ما يَقرب مِنْ ذلك.

66- وله أيضاً كتاب: "**مفتاح السَّعادة بِصِحَّةِ حديث: «النَّظر إلى عَلِيٍّ عِبادة»**"، اِقتصر فيه على ذِكْرِ الطُّرق الثابتة لهذا الحديث.

67- وله: "**جزءٌ في الكلام على حديثِ الغَمامة**"، أجاب فيه عن سؤالٍ ورَدَ إليه مِنْ مكَّة في شأنِ هذا الحديث.

68- وله: "**ضَوءُ الشُّموع في إِستخراجِ الواهِي والموضوع مِنْ أحاديثِ الكَنزِ**

الثَّمين"، وهو مجلَّدٌ في ذِكرِ الأحاديث الموضوعة والواهية الواقعة في كُتبِ بعضِ أهلِ الحديث.

69- وله: "الكَمِينُ لِاسْتخراجِ ما في الكنز الثمين"، وقد تكلَّم فيه عن الأحاديث الموضوعة والضعيفة والواهية.

70- وله: "المُستخرَجُ على المُنتَقَى لِابنِ الجَارُود"، كَتب منه كراريسَ. أطال فيه النَّفَسَ في ذِكر طُرق الحديث مع بيان العِلَلِ.

71- وله: "المُستَخرَجُ علَى أحاديث الرِّسالة القُشَيريَّة"، وصل فيه إلى بابِ الرجاء.

72- وله: "المستخرَجُ على أحاديث التَّرغيب لِابنِ شاهِين"، سمَّاه "الكنز الثمين". كَتب منه كَراريس.

73- وله تخريج أحاديثِ شرْحِ رسالةِ اِبْنِ أَبِي زَيْدٍ لِزرُّوق، سمَّاه: "ضِياءُ الشُّروق". لم يُتِمه كذلك.

74- وله: "أربعونَ حديثاً في مكارم الأخلاق".

75- وله: "رسالة في حُكمِ الحقن بالدَّم".

76- وله كتاب: "بُغْية المُكتَفِي في تخريج أحاديثِ النَّسفِي"، كتب منه كُراسة.

77- وله: "إزالَة الإحَن في أنَّ الأَفْضلَ أنْ يُقِيمَ مَنْ أذَّن"، لم يَتِم.

78- وله، حفظه الله، كتاب: "نَتائج الأفكار الوَهْبِيَّة في شرْحِ الدُّرَرِ البَهِيَّة"، وصل فيه إلى آخر كتاب الطهارة. شَرَحَه بالدليل مع بيان بعض الأوهام التي وقع فيها الشَّوكاني مِنْ ذِكر مسائل فقهية مخالِفَةٍ للحديث الصحيح.

79- وله كتاب: "الإبداع في ذِكرِ أدلَّةِ متْنِ أَبِي شُجاع"، شرَحَ فيه مَتن أَبِي شُجاع في فِقه الشافعية بالحديث لا غَير، ولم يُعرِّج علَى قولِ فَقيهٍ. وصل فيه إلى آخر الطهارة.

80- وله: "**تحذيرُ الطالبِ مِنْ كتابِ أسْنَى المَطالِب**"، بيَّن فيه الأوهامَ والأغلاطَ القبيحةَ الواقعةَ في كتاب «أسنَى المَطالب في أحاديث مختلِفَةِ المَراتبِ» لِلبَيْرُوتي الحُوت.

81- وله: "**تَبْيِينُ الغَلَط في «الدُّرِّ المُلْتَقَط» لِلصَّغاني**"، تعقَّبَ فيه كتابَ الصَّغاني المُسمَّى بِالدُّرِّ المُلتَقَط في أحاديث ذَكَرها فيه وحَكَمَ عليها بالوَضعِ.

82- وله: "**الضعفاءُ المَجْرُوحُونَ مِنْ أهلِ العدْوَتَيْنِ الأندلس والمغرب**"، ذكر فيه، حفظه الله، كلَّ مَجروحٍ مِنْ رجال البلدين، سواء كان مشهوراً بالرواية أمْ لا. وذكر فيه قوماً رُمُوا بالكذب والوضع مع شهرتِهم بين الناس بالإمامة والجلالة، كابنِ العَرَبي المالِكي، وعبدِ المَلِكِ بنِ حَبِيبٍ، وأَصْبَغَ بنِ خَليلٍ، وابنِ دِحْيَةَ، وغيرِهم. والكتابُ لم يَتِم.

83- وله كتاب: "**الموضوعات**"، جرَّد فيه الأحاديثَ الموضوعةَ المذكورةَ في "تخريج أحاديث الإِحْياء" لِلعِراقِي، و"المَقاصد الحَسَنة" لِلسخاوي.

84- وله كتاب: "**التَّأنِيس بِشَرحِ منظومة الذَّهبِي في أهلِ التَّدلِيس**"، وقد طُبع في بَيرُوت.

85- وله كتاب: "**مفاتيح الذُّهْبان لِترتِيبِ أحاديث تاريخِ أَصْبَهان**"، وقد طُبع بالرياض في المملكة العربية السعودية.

86- وله كتاب: "**التعريف بِجَهلِ مَنْ أَنْكَرَ العملَ بالحديث الضعيف**".

87- وله كتاب: "**تَصحيح البِنْيَة بِما وَرَدَ في تَخلِيلِ اللِّحْيَة**"، أثْبَت فيه سُنِّيَةَ تخليلِ اللحيةِ عند الوضوء.

88- وله كتاب: "**جلاء الدَّامِسِ عن حديثِ «لَا تَردُّ يَدَ لامِسٍ»**"، أثْبَت فيه بُطلانَ هذا الحديث مِنْ طريقِ سندِهِ ومعناه، كما أثْبَت مخالفتَه لِحُكم القرآن وسنَّةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم.

89- وله كتاب: "**المُشِير إلى ما فاتَ المُغِير على الأحاديث الموضوعة في**

الجامِع الصغير".

90- وله كتاب: "**سِراج الدُّلْجَة في فضْلِ طَنْجة**"، ذكر فيه بعضَ مَنْ كان في طَنْجة مِنْ أهلِ العِلمِ، في الحديث والفقه، والقراءات، والأدب. وقد طُبع بطنجة.

91- وله كتاب: "**تَعريف المُؤْتَسِي بِأحوالِ نَفْسي**"، وهو كتابٌ في بعضِ أخبارِه وأحوالِه، كَتَبه سنة إحدَى وسبعين وثلاثمائة وألف. لم يُطبع.

92- وله كتاب: "**مُعْجَم الشيوخ**"، ذَكَر فيه شيوخَه في الرواية.

93- وله كتاب: "**الفَتح الوَهْبِي في الكلام على محمدِ بنِ السَّائِبِ الكَلْبِي**"، تكلَّم فيه على ما قِيلَ في الكَلْبِي مِنْ جَرحٍ وتعديلٍ، مع بيانِ الصواب في ذلك.

94- وله حفظه الله: "**شُعْلَةُ نارٍ**"، وهو كتابٌ ذَكَرَ فيه ما راسله به أخوه أبُو الفَيْضِ رحمه الله عندما كان معتقلاً بِأَزمُّور. ويُعتبر هذا الكتاب ذيلاً علَى "جُؤْنَة العَطار" لِأَبِي الفَيض، بل فيه مِنَ الحقائق وغرائب الوقائع عِلميًّا وسياسيًّا ما لا يُوجد في "جؤنة العطار"، وقد تمَّ منه ما يَقرب مِنْ نِصف المجلد.

95- وله أيضاً كتاب: "**عُقود الجُمان فِيما أخبرَ به النبيُّ صلواتُ الله عليه في أخبارِ هذا الزَّمان**"، ذَكَر فيه الأحاديثَ والآثارَ المتعلقةَ بأحوال هذا الزمن، والمُخْبرةِ بصفةِ أهلِه وحالِهم، عقيدةً وسلوكاً، وإجتماعيًّا وسياسيًّا. وقد رتَّبه على الأبواب.

96- ثم كَتَب كتاباً آخر في الموضوع نفسِه سمَّاه: "**تَسلِيَة المُسلمِ بِما أخبرَ به النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ أحوالِ هذا العَصرِ المُظلِمِ**"، ذَكَر فيه الأحداثَ التي وَرَدت في الأحاديث المذكورة في "عُقود الجُمان"، مِنْ غير أَنْ يَذكرَ لفظَها، وإنَّما سَرَدَ معناها سرداً لِتَكونَ تَذكرةً لِلمؤمن.

97- وله أيضاً في هذا الموضوع كتاب: "**المَجلَّة النَّبويَّة في أحوالِ الوقت**"، وهو مختصرٌ مِنْ "عُقود الجُمان".

98- وله كتاب: "**فَتْح الرَّحمنِ في شرْحِ رسالةِ الشيخ رَسْلان**"، وهو في شرْحِ توحيدِ أهلِ الحقيقة، كَتب منه نِصفَه.

99- وله كتاب: "منح المِـنَّة في شرْحِ الأربعين لِأَهْلِ السُّنة"، كَتبه بِطلبٍ مِنَ الشيخ محمد ياسين الفَادَانِي الـمَكِّي. وهو شرحٌ لِأَربعِينَ حديثاً مُسلْسَلَة الإسناد، لأحدِ عُلماءِ دِمشق.

100- وله: "جزءٌ في الكلام على حديث «أَخْرِجُوا الـمُخَنَّثِينَ مِنْ بُيُوتِكم»"، ذَكَر فيه طُرقَ هذا الحديث وتكلَّم عليها، وهو جزءٌ صغيرٌ.

101- وله كتاب: "إتحاف الـمُريد بإشارةِ البحرِ الـمَدِيدِ في تفسير القرآنِ الـمجيد"، جرَّد فيه تفسيرَ الإشارة مِنْ تفسير جَدِّهِ مِنْ جهة الأمِّ العارفِ سيدي أحمدَ بنِ عجِيبة رضي الله عنه، والمسمَّى "البحر المديد"، كَتب منه إلى أواسِطِ سورة البقـرة.

102- وله كتاب: "ترتيب الضعفاء لِابنِ حِبَّان"، والكتابُ وإنْ كان مرتَّباً على الحروف لكنَّه على ترتيبٍ غير مفيدٍ بالـمرة، وقد تَظنُّ أنَّ الرجلَ غيرُ موجودٍ فيه لِكونِكَ لم تَجِدْهُ في مظانِّه، وهو مذكورٌ فيه في غيرِ حَرْفِه، كَتَب منه كراريس.

103- وله أيضاً: "تَرتيب أحاديث الضعفاء لِابنِ حِبَّان على الأبواب".

104- وله كذلك تَرتيب أحاديث «تاريخ أصْبَهان» لِأَبِي نُعَيم على الأبواب أيضاً سمَّاه: "مُصنَّف أَبِي نُعَيم".

105- وله كتاب: "دَفْع الإشْكالِ عن مسألةِ الإكْسال"، وهو جوابٌ عن سؤالٍ وَرَدَ عليه مِنْ تِطْوان، في الرجل الذي يُجامِعُ ولم يُنْزِلْ، هل القولُ بِعَدمِ الغُسلِ مِنه مُحْكمٌ أو منسوخٌ؟ لأنَّ بعض طلبةِ العِلم زعم أَنَّ الحُكمَ مُحْكمٌ وأَنَّ الذي يُجامع ولم يُنزِلْ لا غُسلَ عليه، ولو مع اِلْتِقاءِ الخِتَانَيْنِ.

106- وله كتاب "مُصَنَّف سحْنُون"، جمع فيه الأحاديثَ المرفوعةَ التي رواها سحْنُونُ في «الـمُدونة»، بلغ فيه إلى كتاب الصلاة.

فهذا ما أمْكَنَ ذِكْرُهُ الآن، وقد بقِيَتْ رسائلُ وبحوثٌ أخرى ترك صاحبُ الترجمة بعضَها في مِصْرَ، وبعضَها أخذها بعضُ الإخوان منه واستأثر بها لنفسه،

كما أَنَّ هناك أجوبة عن رسائل في مختلف الموضوعات، أجاب فيها عن مسائل مختلفة ضاعت منه لِمُرورِ الزمان عليها.

وهنا يَلمس القارئُ أَنَّ شيخَنا صاحبَ الترجمة قد تفرَّد بصفةٍ قَلَّما نَجِدها في علماء العصر، بل هي تلفِتُ الأنظارَ إليه، لكونه، حفظه الله، مع ما رأيتُ مِنْ نتاجِه العلميِّ الضخم: قراءةً وتأليفاً ونسْخاً، وجلساتٍ علمية يومية في منزله العامر، وتولِّي الردِّ عن عشرات الأسئلة الواردة عليه مِنْ مختلف جِهاتِ المغرب وخارجِه، مع ما يكون مِنْ دروسٍ علميةٍ جامعةٍ في المسجد، والزاوية الصِّدِّيقية؛ أقول: مع كلِّ هذا، فالذي يلفتُ الأنظارَ مع هذا كلِّه هو اِضْطِلاعُه بما ذكرنا مع قِيامِه بمسؤولية الأولاد ودراستهم، وشُؤونِ المنزلِ وشواغلِ الحياةِ؛ في حين أَنَّه لا يَستند علَى دخْلٍ ثابتٍ معلومٍ، لا مِنْ وظيفةٍ، ولا مِنْ تجارةٍ. مع أَنَّ العادة البشرية تخالف هذا، لأنَّ ما يَشغلُ القلبَ مِنْ شؤون الحياة لا يَتركُ لِلعقلِ صفاءَه ونشاطَه، وتَفرغَه لِلعلم، فضلاً عن التأليف والتحرير والإنتاج، وقد أشار الرسولُ عليه الصلاة والسلام إلى هذا بِقولِه في الحديث: «الوَلدُ مَجهلةٌ مَجْبنةٌ مَبخلةٌ»، وهو حديثٌ ثابتٌ مِنْ طُرقٍ.

وقال سُفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ: "ما أَفْلَحَ صاحبُ عِيالٍ قَط"، وقال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: "لو كُلِّفتُ شِراءَ بَصَلَةٍ لَمَا فَهمتُ مسألةً". وقال أيضاً: "لا تَسْتَشِرْ مَنْ لَيْس في بيتِه دقِيقٌ".

وهذا لأنَّ طبيعة الإنسان مجبولةٌ على التوجه إلى الحصول على ما يَقوم بحوائج النفس وجَعْلِه واجباً، وما سواه فهو زائدٌ عن ذلك.

مع أنَّ صاحبَ الترجمة رأيناه خلاف ذلك، فقد جعل الاشتغالَ بالعِلم والبحث فيه هو الواجب، وأمَّا ما سِواه مِنْ أمور العيش فهو زائدٌ. ولذلك نَرَى اللهَ سبحانه وتعالى قد كفاه ما يَهمُّه مِنْ أمرِ الحياة، لِقولِ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«مَنْ جَعلَ هُمومَه هَمًّا واحداً، كَفاهُ اللهُ سائرَ هُمومِه».**

ويُخبرُ عن نفسِه في هذا الموضوع، أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى سلك به مَسلَكَ السلفِ الصالحِ الذين كانوا على سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فتارةً، حفظه الله، يَجِدُ ما فوق الكفاية، وتارةً لا يَجِدُ إلَّا ما يَكفِي لِلضَّروري. وهكذا كان حالُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم. فإنَّه لَمَّا خُيِّرَ صلى الله عليه وآله وسلم بين أَنْ يكونَ نبيًّا ملِكاً أو نبيًّا عبداً، اِختار أنْ يكونَ نبيًّا عبداً، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**أَشْبَعُ يَوماً فَأَشكُر، وأجُوعُ يوماً فَأَصْبِر**»، لِيَحصلَ على المَقامَيْنِ معاً: مقام الشكر ومقام الصبر.

البابُ الخامس

فصل

وبَعد هذا، سألتُ صاحبَ الترجمة حفظه الله، عمَّا يشتغل به الآن؟ فحدَّثني أَنَّ بالَه متعلِّقٌ الآن بالتأليف في موضوعٍ طالَمَا تحدَّث عنه العلماءُ وكَتب فيه بعضُهم لكن لم يَستوفِه حقَّه، وهو كونُ سيِّدِنا ومولانا محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم موجودٌ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، يَملأ الكونَ ويُمِدُّه بِمَدَدِه الذي لو اِنقطع عنه لحظةً لَذَهب واندثر، مع بيان أولية حقيقتِه صلى الله عليه وآله وسلم، وكونِه السبب في الموجودات كلِّها، إِنْسِها وجِنِّها، حيوانِها وجامِدِها.

وقال لي حفظه الله: "إِنَّ هذا الموضوع مما ينبغي للمؤمن أنْ يَعتنيَ بِبيانِه وذِكْرِ أدلَّتِه، لأنه مما يُنكِرُه ذَوُو العقول الضعيفة والقلوب المريضةِ، مع أنَّه مما لا ينبغي أَنْ يُنازِعَ فيه مُسلمٌ لأمرين:

أولُهما: أَنَّ أدلَّتَه ثابتةٌ عن السلف، وهي كافيةٌ في الموضوع.

ثانيهما: أنَّه مِنْ معجزات نبيِّنا صلى الله عليه وآله وسلم وفضائلِه التي لايأتي عليها الحصرُ. وإنما اِستنكره مَنْ اِستنكره لِكونِ الوجودِ مُعلَّلاً بوجوده صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا عندهم مُنافٍ لِقولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. وهو شططٌ في الفهم وبُعدٌ في الاستدلال.

وكونُ الله سبحانه وتعالى يخلق الشيءَ لأمرٍ أو لِعلَّةٍ لا شيءَ فيه، كما بيَّن ذلك اِبنُ تَـيْمِيَة رحمه الله وغيرُه. وعلماءُ الكلام لهم في ذلك كلامٌ طويلٌ. والأشعريةُ يَـنفـون أَنْ يكونَ اللهُ تعالى خَلقَ العالَـمَ لِعلَّـةٍ، وذلك مردودٌ عليهم..".

وكذلك حدَّثني أنَّه مما يَشتغل به الآن أيضاً، موضوعُ أفضليةِ الصحابة على بعضِهم، وبيان أنَّ عليًّا عليه السلام أفضلُهم على الإطلاق، وسيِّدُهم باِتِّـفاقٍ، وكونه خليفة سِرِّ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، ووصيّـه على رسالتِـه الباطنة لِأهلِ الحقائق.

ثم قال لي حفظه الله: "ولِهذا لا تجد طريقاً مِنْ طُرقِ الصوفية على اِختلافِ مشاربها وتعدُّدِ أنواعِها إلَّا ويَتصل سَندُها بِعَلِيٍّ عليه السلام، لأنَّه بابُ مدينةِ العِلمِ كما قال عنه رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم. كما أُبيِّنُ في هذا الموضوع حالَ مُعاويةَ وأتباعِه، ومَن اِنْضَوى تحت لِوائِه، وذِكرَ فضائحِهم، وكونهم خرجوا عن شريعة الإسلام وسنَّةِ الرسول عليه الصلاة والسلام، وقيامهم ضدَّه لأجل الحصول على الـمُلكِ والتوسعِ في الدنيا. وهذا كلُّه بعيدٌ عن سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام مما يجعلُ المتَّصفَ به بعيداً عن رتبة الصحابة..".

ثم أضاف يقول: "ومما أشتغل به الآن أيضاً، الكتابة في موضوع الجَرح والتعديل عند رجال الحديث، فإنَّ هذا العِلمَ اِختلط صحيحُه بفاسدِه، وسالِمُه بسقيمِه، وحقُّه بِباطلِه، وصوابُه بخطئِه، بسبب مَنِ اِستغلَّه مِنْ أهل الأغراض ذَوِي النِّحَلِ والآراء الفاسدة، فوَجدوه ميداناً فسيحاً وطريقاً سهلاً للوصول إلى لَمْزِ فُحُولِ الرجال، وجَرْحِ أئمَّةِ السُّنةِ بالطعن القادح والقولِ الجارحِ اِستجابةً لرغبة عقيدتِهم الفاسدة وعقلِهم الضَّالِّ؛ وفي الوقت نفسِه أثْـنَوا على أهل الضلال وذوِي الآراء الفاسدة الكذَّابين في روايتِهم، الـمُختلِقين للأحاديث لِتأيِيدِ مذهبِهم، ونَشْرِ نِحلَتِهم بالثناء العظيم والقولِ العَطِرِ الذي لم يَتقدَّمْهُم به مادِحٌ، ولا تكلَّمَ به مُعدِّلٌ جارحٌ. وراج ذلك على مَنْ جاء بَعْدهم، فتمسَّكوا به إلى مستوى أدَّى إلى

فسادِ دينِهم ودِينِ مَنْ تَبِعهم، ولم يتفطنوا لِأَصْلِ الداء وجرثومةِ البلاء، فَخَبطوا خَبْطَ عشواء، وركِبوا متْنَ عمياء، وأَلْحَقوا الفاسقين بالأولياء، وعمَّ بهم البلاءُ في شرق الأرض ومغربِها لعدم البحث الدقيق، وإِعْمالِ النظر في أصلِ هذا الجَرحِ وهذا التعديل، الذي خرج بِسبب التضليل بِدُونِ نظرٍ، ولا مراعاةٍ لِأُصول الجَرحِ والتعديل والسببِ الذي شُرِعَ لأجلِه..".

ولهذا توجَّه صاحبُ الترجمة حفظه الله لِكشفِ الحقيقة في هذا الموضوع الذي لم يَرَ أحداً تعرَّض للكتابة فيه، وهو موضوعٌ جديرٌ بالبيان والتحليل، لأنَّه يتعلق بِأعظَمِ أصلٍ مِنْ أصول الشريعة، وهو حديثُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي لا يجوز العملُ إِلَّا بما صحَّ منه سالِماً مِنْ كلِّ علةٍ قادحةٍ في سندِه تَمنع صحَّتَه كما هو مقررٌ عند أئمة الحديث.

وقد أشار إلى لمحةٍ مِنْ هذا، لِلتعريف بالدخيل الذي دخل في علم الجَرحِ والتعديل، في كتاب: "الباحِث عن عِلَلِ الطَّعنِ في الحارِث".

وقد جرَّنا الكلامُ في هذا الموضوع إلى ذكرِ بعضِ أهلِ النِّحَلِ الذين وَضعوا الأحاديثَ لِتأيِيدِ مذهبِهم ونَشْرِ نِحَلِهم، كالنواصب مثلاً، الذين هُمْ أكثرُ أهلِ هذه المذاهب وضعاً للأحاديثِ في تأيِيدِ مذهبِهم وذِكْرِ فضْلِ بَنِي أُمَيَّةَ، مِنْ مُعاوية فَمَنْ بَعْده، مع وضْعِ الأحاديث في التَّنقيصِ مِنْ عليٍّ عليه السلام، وسلْبِه مِنْ مناقِبِه العظيمة وفضائِلِه المتواترة، التي لم تَثْبتْ لِصحابيٍّ مطلقاً، كما يتضح لكلِّ مَنْ يَبحثُ في علم الحديث ويَقرأ كُتبَه الصغيرة والكبيرة.

وهنا تحدَّث عن عقيدتِه في أهل البيت ومنزلتِهم عنده مِنْ بين الصحابة جميعاً، فقال حفظه الله:

"أهلُ البيت المنتَسِبون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لي فيهم اِعتقادٌ خاصٌّ ورأيٌ قد لا يُوجَدُ في هذا العصر مَنْ يَعتقده. قال: وأَرَى أنَّه القول الصحيح الذي يجب علَى كلِّ مؤمنٍ اِعتقادُه، لأنَّه مؤيَّدٌ بالبرهان ويَشهدُ له العقلُ بالصحة

والثبوت، وهو: أَنَّ أفضلَ الخلْقِ بعد رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم اِبنتُه سيِّدةُ نساءِ العالَمِين ووالدةُ سيِّديْ شبابِ أهل الجنَّةِ، السيدةُ فاطمةُ الزهراءِ عليها الصلاة والسلام، وأولادُها عليهم الصلاة والسلام؛ لا أحَدَ يَبلغ مرتبتَهم ولا شخصَ يُداني مقامَهم ومكانتَهم. ولا أُجيزُ أَنْ يُلْتَمسَ طريقٌ لِلتفضيل بينهم وبين غيرهم، بل يَبعدُ عندي غايةً أَنْ أتصوره أو أتخيَّله؛ لأَنَّ التفضيلَ بين الشيئين يحتاج إلى التساوي في الماهيَّةِ، وهو مفقودٌ هنا تماماً. لأَنَّ ماهِيَّةَ سلالةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم نُورانيةٌ محضةٌ مِنْ شجرة الأصل النورانيةِ ولَمعةِ القبضة الرحمانية التي تفتَّقتْ عنها العوالمُ وكان ما كان مِنْ إنسٍ وجانٍّ، وجمادٍ وحيوان؛ وغيرهم مِنْ أصلٍ تُرابيٍّ محضٍ، وإنما حصل له بإشراق النور المحمديِّ عليه عندما كان أصلُه مُنجدِلاً في طِينَتِه. فنورُه مكتَسَبٌ بعد ظلمةٍ كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إِنَّ اللهَ خلَقَ خلْقَهُ في ظُلمةٍ، ثُمَّ رَشَّ عَليهِم مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أصابَه ذلك النُّورُ اِهتدَى**». وهذا النور هو رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم كما سمَّاه الله تعالى في قولِه: ﴿**قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ**﴾.

وكيف يُلتمَسُ طريقٌ لِلتفضيل بين التراب والنور؟! هذا ما لا يَقولُه عاقلٌ نوَّر اللهُ بصيرتَه، ولكن هذا يحتاج إلى تَدبُّرٍ وتفكُّرٍ مع نورٍ في القلب، ولا يكفي فيه الفهمُ وحده".

ثم زاد صاحبُ الترجمة قائلاً: "ويؤيد ما قُلتُه هنا، ما ذهب إليه الشيخُ الأكبر مُحيِ الدِّينِ اِبنُ العَرَبِي الحاتِمي، مِنْ كونِ فَضلاتِ أهلِ البيتِ طاهرة غير نجسة مطلقاً، واِستدلَّ بقولِه تعالى: ﴿**لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾، فأكَّدَ الفعل بالمصدر لِيَدلَّ على حقيقة الطهارة. والسببُ في ذلك ما أشرتُ إليه مِنْ نورانيةِ الأصل، ولذلك لم يَكُن لِرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ظِلٌّ إذا مشَى في الشمس، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم نُورانيٌّ، والنور لطيفٌ لا ظِلَّ له. وهذا الموضوعُ مِنْ موضوعات كتابي في الأوليـة المحمدية..".

فصل
المُبشِّرات

ومما يندرج تحت هذه المِنَنِ التي منَّ الله بها على صاحب الترجمة وأكرمه بها مما أشرنا إليه مِنَ المؤلَّفات والمصنَّفاتِ في المواضيع المختلفة، ما أنْعَمَ به عليه مِنَ البِشارات في المَنام، التي تدلُّ كما أخبر الرسولُ عليه الصلاة والسلام على حُسنِ حالِ صاحِبِها.

وهذه المَرائِي منها ما رآه بنفسه، ومنها ما رآه البعضُ الآخرُ له، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ذَهَبتِ النُّبوَّةُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا المُبشِّرات: الرُّؤيا الصالحةُ يَراهَا الرَّجلُ الصالِحُ أو تُرَى له**». وهي المراد بقوله تعالى: ﴿**لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ**﴾.

وقد وقع له مِنْ هذا كثيرٌ، لكنه فاته تسجيله، فلهذا لم يحضره ساعةَ كتابة هذه السطور إلَّا ما أخبرني به.

مِنْ ذلك أَنَّه في ظُهر يوم الأحد السابع مِنْ جمادَى الثانية، سنة إحدى وستين وثلاثمائة وألف، بالقاهرة، نهاراً - وَرُؤيا النهار عند أهل التعبير أصدقُ مِنْ رؤيا الليل- أقول: رأَى حفظه الله الحقَّ سبحانه وتعالى في المنام، ورآه مرتين أُخْريين في طنجة، وذلك في التسعينات. وفي الرؤيا الأخيرة رأى الحقَّ سبحانه وتعالى يُعَرِّفُه بالسبب في تأخير طلَبِ طلبه.

وأخبرني أنه رأى مولانا رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم مرَّاتٍ، أُولاهُما رآه وهو صغيرٌ لا يزال يقرأ في الكُتَّاب، رآه مع والده رضي الله عنه في الزاوية الصدِّيقِيَّة بِطنجة، وقد أخبرَ بها والدَه فَعَمِل مِنْ أجلِها إكراماً هائلاً للإخوان.

كما أخبرني حفظه الله بأنَّه رأى في سَنَةِ إحدَى وسبعين وثلاثمائة وألف، أنَّه ضيفٌ عند النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم في منزلِه، وقد قدَّم له طعاماً وهو جالسٌ إزاءَه، والذي يُقدِّم له الطعام هو الحُسين عليه السلام، وصانِعُه السيدة فاطمةُ اِبنتُه عليها الصلاة والسلام. ورآها تُطلُّ عليهم مِنْ محلٍّ عالٍ كأنَّه سطحُ المنزل الذي هم جالِسون فيه؛ وبعدمَا فرغ مِنَ الطعام قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: تَفضَّلْ نَستأذنْ علَى الإخوان لِنَخرج.

ورأَى بعضُ الإخوان أَنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم في منزل صاحبِ الترجمة، ورأسُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم على فخذِه، وصاحبُ الترجمة يسقى شراب الشاي.

كما رأى صاحبُ الترجمة والدَه رضي الله عنه؛ ورؤيا الوالدين في المنَام عند أهل التعبير إذا رآهُم الاِبنُ يُبشِّرانِه أو يُعطِيَانِه شيئًا، يدلُّ على صلاحٍ وفلاحٍ في الدِّينِ والدنيا؛ أقول: رآه يَقولُ له سَتَكون.. وتَكون..، وذَكَر له أموراً في حُسنِ الحالِ بعد أَنْ قدَّم له طعاماً.

ورآه مرةً أخرى وقد أَجْلَسه على فخذِه، وقال له: «أنا أنت، وأنت أنا». وذلك ما يَقرب مِنْ ثَلاثين سنةً.

ورأَى بعضُ الإخوان أَنَّ جمْعاً كبيراً في الزاوية الصِّدِّيقيَّة بِما فيهم إخوةُ صاحِبِ الترجمة، والناسُ كأنَّهم في اِنتظارِ مَنْ سَيَكونُ خليفةً لِلشيخِ، فجاءَ والدُه رضي الله عنه فأقامَ صاحبَ الترجمةِ وأَلْبَسَه جلاَّبَةً خضراءَ، مشيراً بذلك إلى خلافتِه.

وبهذه المناسبة، قال لي شيخُنا المترجَمُ له، بِأنَّ والدَه رضي الله عنه كان يُخاطبه في حياتِه عند سلامِه عليه، كلَّ صباحٍ بعد رجوعِه مِنَ الكُتَّابِ بهذه العبارة: ((أهْلاً بِمولايْ عبد العزيز الدَّبَّاغ، وتارةً: بِعبد العزيز التَّبَّاع)). وكِلاهُما طوْدٌ شامخٌ في المعرفة والولاية، وبَشَّره في حياتِه أيضاً بأمورٍ شريفةٍ مُنيفةٍ جدًّا.

ثم قال لي المترجَمُ له حفظه الله:

"وقد جرَّبتُ علَى والدي رضي الله عنه أنَّه لا يُخبِر بِشيءٍ إلَّا وخرج مِثل فلَقِ الصبح، مهما طال الزمن، وكم أخبرَنا بأمورٍ في صغرِنا كُنَّا نَظنُّ وقوعَها مِنَ المستحيل في حقِّنا. وكان هو يَعلم مِنَّا هذا، فيقول: ((أنا أَعلمُ أنَّكم تَستَبعدون ما أقول، ولكِنْ سَتَروْنَ صِدقَ إِخباري وقَولي)). وبعد ذلك بِسنين طِوال تحقَّق ذلك تماماً، بل منها ما رأيناه إلَّا بعد وفاتِه رضي الله عنه بِسنين".

ومما حكاه لي حفظه الله عن والده أنَّه كان يقولُ له مراراً وتكراراً: ((إنَّ لكَ في قلبِي منزلةً خاصةً، ولِذا سمَّيتُكَ عبدَ العزيز، واِسمُكَ عزيزٌ عندي جدًّا)).

كما أخبرني قائلا: "ووقَعَ مرةً أمْرٌ أطلَعنِي عليه والدي وحْدِي، رضي الله عنه، وقال لي: ((أخبرتُك به لِمَا أَعلمُه فيك مِنَ الرَّزانة والتَّعقل، فَلَا تُخبِرْ به أحداً حتَّى فُلان)). وقد كان ذلك، فلمْ أُحَدِّثْ به أحداً إلى الآن، تنفيذاً لِوصيَّتِه رضي الله عنه".

فصل

إنَّ مما تفضَّلَ اللهُ تعالى به عليَّ بسبب صحبتي وقراءتي على صاحِبِ الترجمة حفظه الله، بالإضافة إلى ما كَتبتُه في التمهيد لهذا الكِتاب، أنَّنِي كُنتُ في عداد المثَقَّفِين العَصْرِيِّين العادِيين، الذين ليس لهم مِنَ الثقافة إلَّا القشور، والذين لا شأن لهم بحقيقة السُّنةِ والغوصِ في أحكام الدِّينِ وغاياتِ الشريعة، ورَبْطِ الدِّينِ بالدنيا.

لكنْ بعد ما منَّ اللهُ عليَّ بمصاحبة هذا الشيخ الرَّبانيِّ والقراءة عليه، تبدَّلتْ أحوالي وتفتَّحتْ أمامِي حقيقةُ العِلم بِدينِ الله والتمسك الحق بسنَّةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وما هي إلَّا مدة قصيرة مِنَ التَّلْمذةِ عليه حفظه الله، في دروسٍ خاصةٍ وجلساتٍ عامةٍ حتَّى تربَّتْ لديَّ مَلَكةُ البحث والتحصيل، وصِرتُ أُدركُ مِنْ مفاهيم الشريعة وغاياتها ما فاتَنِي إدراكُه في السنين الطِّوال التي قَضيتُها مع مختلف الأساتذة والشيوخ، الذين لم يَكنْ لهم مِنَ الكفاءة والمَقدرةِ ما يَفتحون لي به أبوابَ العِلم الحقِّ.

بحيث ما كتبتُ بحثاً عِلميًّا قَبلَ تَعرُّفي علَى صاحبِ الترجمة، الذي حثَّنِي حفظه الله على ذلك، وشجعني عليه في كلِّ مناسبةٍ، حتَّى آنستُ مِنْ نفسي القدرةَ والاستعدادَ، فحرَّرتُ عدة مقالاتٍ إسلامية مُركَّزةٍ هادفةٍ تمَّ نَشرُها في المجلات الإسلامية الملتَزمةِ داخلَ المغرب وخارجَه، مما جعلني أقتحمُ ميدانَ التأليف، وأكتبُ كُتباً في موضوعاتٍ إسلامية هامةٍ نالت إعجابَ وتقديرَ جَيلِ الشباب الإسلاميِّ النَّاشئِ، وأشاد بها العلماءُ في مختلف الصحف والمجلات الإسلامية، في المغرب وغيره، ومِنْ خلال رسائل شخصية وصلتنِي مِنْ كبار الكُتَّاب والمفكِّرين الإسلاميِّين.

كلُّ هذا بفضل الله وبركة التَّلْمذة على شيخي صاحبِ الترجمة، وما أحاطني به مِنْ تشجيعٍ وإرشادٍ وتوجيهٍ أبَوِيٍّ، جزاه اللهُ عنِّي وعن المسلمين كلَّ خيرٍ.

كما صِرتُ ببركةِ التَّلمذة علَى هذا الحَبْرِ المحمَّديِّ والأخذِ عنه أناقش العلماءَ والفقهاءَ، وكثيراً ما أَردُّ أخطاءَ بعضِ المُقلِّدين المتعصِّبين لإمامِ مذهبٍ، وأكشِفُ لهم خُروجَهم عن حقيقةِ سُنَّةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، بِنَصِّ كتابِ اللهِ وما صحَّ مِنْ سنَّةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم. وأُقْنِعهم بِأنَّ إمامَ المذهَبِ الذي ينتصرون له بريءٌ منهم، لأنَّه وغيرَه مِنْ أئمة المذاهب رضي الله عنهم صحَّ عن كلِّ واحدٍ منهم وصيَّته بِتَركِ قوله واتِّباعِ السُّنةِ إذا كان قولُه مخالفاً لها، وثَبَتَ عنهم ذلك جميعاً بِتواتر رواياتٍ كثيرةٍ وبِألفاظٍ مختلفةٍ، لأنَّهم ما اِجتهدوا رضي الله عنهم إلَّا حِفاظاً على العمل بالسُّنةِ، والاحتراز على عدم الخروج عنها

قَـيدَ شعرةٍ.

فإذا كان قـولُ إمامٍ مذهـبٍ يُـخالفُ سنَّـةَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، فذلك طبعاً عن غيرِ قَـصدٍ، لِكونِه لم يُـحِط بجميع السُّـنة، وإنما اِجتهد فيما وصل مِنَ الحديثِ إليـه ووَقَـف مِنَ السُّـنةِ عليه، وهو مَعذورٌ، وله أجرُ المجتـهد الـمُخطِئِ. لِأنَّ الإحاطةَ بجميع السُّـنةِ لم تَكنْ حتَّى لِـواحدٍ مِنَ الصحابة رضوان الله عليهم، الذين لَـزِمُـوا رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولـم يُـفارقـوه حَـضَراً وسفراً، ولم يَكنْ أحدٌ أحْرَصَ منهم في الاقتداء به صلى الله عليه وآله وسلم، والتمسكِ بِـهديِـه، فكيف يُـحيط بِجميعِ السُّـنةِ إمامٌ مِنْ أئمةِ الـمَذاهـب؟؟

وفي إطار هذه المناقَشات الـموضوعية مع الطلبةِ والفقهاءِ والعلماءِ الذين كانوا لا يُـفكِّرون إلَّا بعقـولِ مَنْ يقلدونهم، ولا يَـدُورُونَ إلَّا حول محـورِ التقليدِ دُونَ بحثٍ ولا نَـظرٍ، إيثاراً لِلهوَى وإنـتـصاراً لأقـوالِ بعضِ الفقهاء الـمُقلِّدين الـمُتزمِّتِينَ، اِستطعتُ، ولله الـمِنَّةُ والفضلُ، بالكلمة الطيِّـبةِ وبالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، أَنْ أَرَى بعضَ هؤلاء ممَّنْ كانوا في جفاءٍ مع سنَّـةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم يَعـودون إلى رُشْدِهِـم، ويُـفكِّرون بعقـولهم في تجـرُّدٍ عن التقليدِ، ويَبحثون اِنـتصاراً لِحديثِ رسول اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، لا اِنـتـصاراً لِقولِ فَـقِـيهٍ.

وبذلك صاروا، والحمد لله، يَطرحون جانِباً قـولَ كلِّ فقـيهٍ مقلِّدٍ، ويتمسكون بِسنَّـةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم. والحمد لله على فضلِه وتـوفيقِـه.

وقد جعل اللهُ لكلِّ شيءٍ سبباً، فسببُ هذا الفتحِ الربانيِّ وكلِّ هذا الإصلاحِ العظيمِ والخيرِ العميمِ بِإحياءِ سنَّـةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، سببُـه صحبتِي وقراءتي علَى شيخِي وأستاذي صاحبِ الترجمةِ، الإمامِ المجـتهدِ، سِبطِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، السيدِ عبدِ العزيزِ بنِ محمدِ بنِ الصِّـديق، أمدَّ اللهُ في عُمرِه، ولا حَرمَنا مِنْ عِلمِـه وتَـوجيهاتِـه وبَـركاتِــه.

فصل

ونَظيرُ هذا، ما حصل لأخِي العزيزِ، الأستاذ الفاضل السيد عبدِ العزيزِ بنِ عَرفَة السُّلَيْماني، الحلَواني، القاطنِ بمكَّةَ المكرمة، فقد قال لي غيرَ ما مرةٍ عند زيارته لِطَنجة، بل عند مَجيئِه إلى طَنْجةَ لِزيارةِ صاحبِ الترجمة، في صيف عام 1404، موافق 1984، قال لي بالحرف: "إِنَّني ما ذُقتُ العِلمَ وفَهْمَه إِلَّا بعد أَنْ منَّ الله عليَّ بالتعرف علَى شيخي سيدي عبدِ العزيز بنِ الصدِّيق، والقراءة عليه، وقد ظهر لي ذلك في مدةٍ قصيرةٍ عندما أتَى سيدي عبدُ العزيز بنُ الصدِّيقِ في أَولِ رحلةٍ له إلى مكَّةَ لأداءِ فريضةِ الحجِّ سنة 1401هـ.

قال: إِنَّني قضيتُ، قبل التَّلمذةِ علَى شيخي سيدِي عبدِ العزيز، عدَّةَ سنواتٍ في حضور جلساتِ مختلف العلماء والأساتذة والشيوخ، وخدمتهم بكلِّ ما أُوتِيتُ مِنْ مالٍ، وقضيتُ معهم وقتاً طويلاً، فما جَنيتُ منهم سِوى الدوران على القشور والسطحيات، دون الوقوف على اللُّبابِ في فهْمِ حقيقةِ العِلم، فضلاً أَنْ أكتبَ شيئًا فيه أو أحلمَ بِتدريسه.

وبعد ما منَّ اللهُ عليَّ بقراءتي على شيخي سيدي عبدِ العزيز، فَتحَ اللهُ لي علَى يديه الأبوابَ، فتَبدَّلَتْ أحوالي، وتفتَّح ذِهني، ونَشط فِكري، وصِرتُ أناقش العلماءَ بعدما كُنتُ لا أدور إِلَّا حول ما يقولون، ثم صِرتُ آنَسُ مِنْ نفسي بِفضل توجيهاتِه الاستعدادَ لِاقتحام ميدان التدريس، فدخلتُه وصِرتُ مِنْ أساتذة المدرسةِ الصَّولَتيَة بِمكَّةَ المكرمة. وكلُّ هذا التحوُّلِ، وهذا الفتحِ الرَّبانيِّ بسبب قراءتي على شيخي سيدي عبدِ العزيز حفظه الله. وقد عرف هذا كلُّ أصحابي، حتى صاروا يَنعتونَنِي بِصاحبِ الشيخِ سيدي عبدِ العزيز اِبنِ الصدِّيق، جزاه اللهُ عنَّا كلَّ خيرٍ".

فصل

ولا غرابة في هذا، فإنَّ صاحبَ الترجمة حفظه الله بالإضافة إلى ما سقاه الله به مِنْ مختلَفِ العلوم، أعطاه سبحانه مِنَ الأخلاق المحمدية والشِّيَم النَّبويَّةِ ما قلَّ نظيرُه، فما مِنْ أحدٍ يَراه إِلَّا أَحَبَّه، ولا جَالَسه وتحدَّث إليه إِلَّا كان أكثرَ حبًّا له. وهو حفظه الله يحبُّ لجميع المسلمين مِنَ الخير ما يحبُّه لِنفسِه، فلا يُضمِرُ الحقدَ والحسدَ والعداوةَ لأحدٍ، وإِنَّما عدوُّه الوحيد يتمثَّلُ في الانحراف عن شريعةِ الله، والزَّيغِ عن سنَّةِ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فهو إذا أَحبَّ، أَحبَّ في الله، وإذا أَبغَضَ، أبغَضَ في الله، تَمسُّكاً بأوثقِ عُرَى الإسلام، لِقولِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إِنَّ أَوثَقَ عُرَى الإِسْلامِ أَنْ تُحِبَّ في اللهِ وَتبغضَ في اللهِ**»، رواه أحمدُ في "مسنده"، والبيهقي في "الشعب".

وبِاختصارٍ، فقد لَمستُ مِنْ أحوالِه وسلوكِه حفظه الله كلَّ ما سُطِّر في كُتب التاريخ حول تراجم العلماءِ الأعلامِ، وكِبارِ الزُّهاد. وعايشتُ فيه دلائلَ الأقطابِ الرَّبانِيِّينَ بِما يُعرَفُون به مِنْ أحوالٍ وأنوارٍ.. وهيْبةٍ وكرامات، وما يفتح اللهُ تعالى علَى أيديهِم مِنْ فتوحاتٍ. ولا أراه إِلَّا وارثَ سِرِّ أبيه العارفِ الأشهَرِ، الحائزِ لِلعِلْمَيْنِ، والجامعِ بين الشَّرفَيْنِ، القُطبِ الإمامِ أَبِي عبدِ اللهِ محمدِ بنِ الصِّدِّيقِ الحَسَنِي رضي الله تعالى عنه، ونفعَنا به.

هذا، ولو أردتُ تتبُّعَ كراماتِ صاحِبِ الترجمة لَأَعْيانِي ما هنالك.. فكراماتُه أكثرُ مِنْ أَنْ تُحصَى، فكثيراً ما حدَّثني بأشياءَ أَتَتْ كما حدَّثني بها، ولو بعد حينٍ ومرورِ وقتٍ طويلٍ.

أذكرُ مِنْ ذلك على سبيل المِثالِ أَنَّ رجلاً مِنَ الجنوب كان يتردد علينا مِنْ حينٍ لآخَرَ، وكانت تَظهرُ عليه كلُّ سِماتِ الصلاحِ والتقوى، والحرصِ علَى التمسكِ

بالسنَّة، ولا يُمكِنُ لِأَحدٍ يَراهُ ويَسمع لِحديثِه إِلَّا ويَجزم أنَّه مِنْ رجال الدعوة إلى الله، ومِنَ العاملين في الحركة الإسلامية، وممن لا يتردَّدون في تحمُّلِ التضحيات لأجل ذلك؛ إِلَّا صاحب الترجمة، فقد كان يَنفرد برأيه فيه، ويقول لي: "إِنَّنِي لا أَثِقُ بهذا الإنسان، ولا أطمئنُّ إليه، ولا أَعلمُ سبباً لذلك، وسوف تُبدِي لنا الأيامُ إِنْ شاء الله ما خفِيَ مِنْ أحوالِه".

وفعلاً وقع ما حدَّثني به الشيخُ، فبَعد أقلَّ مِنْ سنتين اِنكشف أَنَّ الشخصَ المذكورَ ليس بِسُنِّيٍّ، ولا صاحب دعوةٍ إلى الله، ولا مِنَ المُحِبِّين في الله كما كان يَدَّعي مراراً عند كلِّ اِجتماعٍ بنا، وإنما تستَّر وراءَ ذلك لِيقضيَ مآربَ له شخصية، ويحقِّق بعضَ الأغراض كانت في نفسِه، وظنَّ أنَّه يستطيع تحقيقَها بواسطتِنا.

فلمَّا خاب أملُه في ذلك تنكَّر لنا، وهجَرَنا بِالمرَّة حتى بلغتْ به الوقاحةُ والسفالةُ بِأَنْ صار يَلقانا في الطريقِ وجهاً لوجهٍ وكأنَّه لا يَعرفُنا، ولا سبقَتْ له معنا أيُّ اِتصالاتٍ متكررةٍ وبِطلبٍ منه، ولا جلس علَى مائدتِنا مراراً، حتى وصل به التظاهرُ بالمحبة في الله أَنْ جاء عندي مرةً على منزلنا بدون اِستدعاءٍ وقتَ الغَداء، وقال لي في ذلك: ((ما قصدتُكم في هذا الوقت بدون سابِقِ إعلامٍ إِلَّا لِأُعبِّر لكم بأنِّي أحبُّكم في الله)).

والحمد لله علَى أَنْ جعل حبلَ نِفاقِ هذا الإنسان قصيراً، وكَشفَ سريرتَه لَديْنا، كما كشفها الله بعد ذلك لِكثيرٍ مِنْ إخوانِنا العاملين في الدعوة إلى الله، الذين كانوا يَثِقون به ولا يتحفَّظون منه.

وقد ذكَّرني حُسنُ صنيعِنا مع هذا الدَّعِيِّ الذي بَرهن أنَّه غيرُ صالحٍ له، بِقولِ مولانا رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا تَصلُحُ الصَّنيعَةُ إِلَّا عِندَ ذِي حَسَبٍ أو دِينٍ** -وفي روايةٍ: **لَا تَنْفعُ**- **كَمَا لَا تَصْلُحُ الرِّياضَةُ إلاَّ فِي نَجِيبٍ**»[1]، يَعني أَنَّ

1 - رواه اِبنُ أبِي الدُّنيا في "مكارم الأخلاق"، والطبراني، وغيرُه، عن عائشة رضي الله تعالى عنها.

الخيلَ لا تَصلحُ كلها للرياضة، إلَّا مَنْ في أصلِها نَجابةٌ تجعلها قابلَةً للترويضِ.

كما أَذكرُ أنني كنتُ يوماً في مذاكرةٍ مع أخٍ حميمٍ حول شؤون الدعوة وواجبِ العلماء فيها، وأنا في طريقي إلى زيارة شيخي صاحبِ الترجمة كعادتي في كلِّ أسبوع، ووصل بنا الحديثُ عن الدورِ الكبيرِ الذي يَقوم به الشيخُ في توعيةِ الجماهير، وتَبصيرِهِم بحقيقة الدِّينِ وما يتطلَّبه ويَلزمه مِنْ تربية الأبناء على الخصوص لأنَّهم هم نواةُ المستقبلِ، ومنهم سيَكونُ المسؤولون في الحكم والسياسة والتعليم، وغيرِ ذلك، بحيث كلُّ تقصيرٍ في هذا يُعتبرُ جِنايةً عُظمَى في حقِّهِم وفي حقِّ أمَّتِهم، وأَنَّ المسؤوليةَ هنا لا تَقعُ علَى الحكومة وحدها، والكلُّ مسؤولٌ في حدود ما وَلاَّه الله مِنْ رعيَّةٍ، لِقولِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**كُلُّكُم راعٍ وكُلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّتِه..**»[1]، و لِقولِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**كُلُّ مولودٍ يُولَدُ علَى الفِطرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدانِه أو يُنَصِّرانِه أو يُمَجِّسانِه**»[2].

وهنا قال لي الصَّدِيقُ مُعَقِّباً علَى ما سمعه منِّي عن الشيخ: "إنَّ سيدي عبدَ العزيز بنَ الصِّديق حقيقةً لا يُقصِّر في ميدان الدعوة إلى الله، ولا يُبالي في ذلك بما يُصِيبُه مِنْ تعبٍ ومضايقاتٍ، ويَقوم حقيقةً بمهمتِه بِكلِّ ما تتطلَّبه مِنْ تَحَمُّلٍ وتضحياتٍ.. وهو فعلاً كما تقول مِنَ العلماءِ القلائل الذين وظَّفوا عِلْمَهم وخِبرتَهم في تربية الجيلِ بشجاعةٍ وإخلاصٍ نادريْنِ، إلَّا أَنَّ لي ملاحظةً واحدةً عليه، وهي أَنْ يَقتحمَ على العاكفين في المقاهِي مجالِسَهم لِيُعرِّفَهم برسالة الإسلام، سيَّما وأَنَّ رُوَّادَ المقاهي لا يُفكِّرُ أحدٌ مِنَ العلماءِ في الدخول عليهم وتعريفِهم بِما يَفرضُه الإسلامُ وما يُلْزِمُهم به الإيمان" اهـ.

فاستحسنتُ ملاحظتَه، وقلتُ له: حقيقة، إنَّ هذا واجبٌ أكيدٌ على العلماء، وكلُّنا في هذا الباب مقصِّرون، نسأل الله التوفيق والتيسيرَ لِنَعملَ في هذا الجانب

---

1 - رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

2 - رواه أبو يعلى في "مسنده"، والطبراني في "الكبير"، والبيهقي في "السنن"، عن الأسود ابنِ سُريْعٍ.

المنسِيِّ في مجتمعنا.

وانتهَى بنا الحديث عند دخولنا إلى دارِ الشيخ، فلمَّا قابلَنا حفظه الله وتجاذبْنا معه أطرافَ الحديث عن أحوال المسلمين، كان أول ما فاجَأنا به قوله: "إنَّ على العلماء ألَّا يَجعلوا وَعْظَهم وإرشادَهم داخل المساجد فقط، وعليهم أَنْ يَدخلوا على الناس في المقاهي لِتَبليغِهم لِتَبليغِهم دين الله، وأنا مستعدٌّ أَنْ أذهبَ إلى المقاهي لِتَبليغِ جُلاَّسِها ما يَأمرُهم به الدِّين وما ينهاهم عنه..". وهنا اِلتفتَ إليَّ الصديقُ متعجباً وقال للشيخ: "سبحان الله، هذه هي الملاحظة الوحيدة التي أبديتُها للأخ السيد عبدِ اللطيف، وشاركَني فيها ونحن في طريقِنا إليكم، وما أراها إلاَّ كرامة لكم".

وَمما يزيد في تأكيد الكرامة، أنَّنا لم نتطرق في حديثِنا مع الشيخ إلى ذِكْرِ المقاهي أو ما شابهها، أو كان في حكمها.

هذا وكثيراً ما سمعتُ مِنْ شيخي صاحبِ الترجمة تعليقاتِه السياسيةَ وملاحظاتِه الموضوعيةَ على الأحداث السياسية العالمية، وما يتوقَّعه لِقادةِ الأُمم، وأَنَّ مِنَ المنتظَرِ كَذا.. وكَذا..، بما تُوحِيه إليه فِراستُه، وبِما يستنبطه مِنْ ربط الأحداث بعضِها بِبعضٍ. فَتَخرج آراءَه عن تلك الأحداث والمَشاكل السياسية وِفْقَ ما سَمعتُه منه، وتَكونُ نتائجُها طِبقَ ما حدَّثني بها، وخلافاً تماماً لِما كان يُصرِّح به بعضُ كبار الخبراءِ السياسيِّين العالَمِيِّين، الذين تُخصِّص لِتصريحاتهم كُبرياتُ الصحف واجهاتِها الأُولى بخطوطٍ عريضةٍ.

فهذه مِنَ الكرامات التي أكرمه الله بها، والتي لا يُنكرها إلَّا مُبْغِض حاسدٌ، أو جاهلٌ حاقدٌ.

ومِنْ شِيَمِ أخلاقِه حفظه الله، سِعةُ الصدر، فلا تراه أبداً يقلق مِنْ كثرة أسئلة السائلين، مِنْ طلبةٍ وفقهاء وعلماء، وغيرهم مِنَ التُّجار والحِرفِيِّين، ولو لاحَظَ مِنَ السائل تَعنُّتَه؛ بل يزيده ذلك توسُّعاً في الموضوع ومزيداً مِن اِستحضار الأدلة النقلية والعقلية بِما يُقْنِع السائلَ ويُفيدُ جميعَ الحاضرين.

يَسعُ بِأخلاقِه النبويةِ الجميعَ، فلا يَحتقرُ أحداً، ولا يَستهين بأحدٍ ولو عَرفَ منه ما عَرف، لا يُفرِّق بين صالحٍ وطالحٍ، حتَّى يَلومه كثيرٌ مِمَّن لا يَعرفون رُوحَ الإسلام وطريقةَ الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى وِفْقَ ما كان عليه الرسول عليه الصلاة والسلام، فَيَلومونه على مجالسةِ أو مخالطةِ بعض مَنْ لا يَرَونه أهلاً لِمُجالَستِه والخوضِ معه في دين الله.

ويقول حفظه الله في هذا الموضوع: "إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يأتي مَجالِسَ اليهود والمشركين، فَيَقرأُ عليهم القرآنَ ويُبلِّغُهم دعوة التوحيدِ". ويَذكر في هذا الموضوع أيضاً: "أَنَّ عِيسَى عليه السلام لامَه بعضُ أصحابه في جلوسِه مع المَكَّاسِين ومَنْ لا دِينَ له، فَيَقولُ لهم عليه السلام: إنَّ الطبيبَ لا يُداوي الأصِحَّاءَ ولكنْ يَذهبُ إلى المَرضَى، وأنتم تَقولون عنِّي إنني طبيبٌ، ولهذا آتِي هؤلاء المرضَى..".

وعلى هذه السيرة كُنتُ أرَى صاحبَ الترجمة يُقابل بعضَ المُسرفِينَ على أنفسِهم بمقابلةِ أخويةٍ طيِّبةٍ، ويُكرِمُهم، ويَفسحُ لهم المجالَ في الحديث.

وهكذا كان والدُه رضي الله تعالى عنه، يقابل مَنْ كان يأتي إليه وهو مِنَ المنحرفين، لأنه يَشهدُ فيه أَنَّه مِنْ أهلِ لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهي تُثْبِت الأخوَّةَ الإسلاميةَ والولايةَ العامة بين المؤمنين، لِقولِه تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

وقد ورَدَ في الحديث أَنَّ بعضَ الصحابة وقعوا في رجلٍ سَكران، وأتوا به لِرسولِ الله صلى الله عليه وآله سلم، فقال لهم رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تَكونُوا عَوناً لِلشيطان علَى أخِيكُم».

فمهْما تَلبَّس المؤمنُ بالمعاصي فإنَّ ذلك لا يُخرِجُه مِنْ أُخوتِنا ووِلايتِنا التي تُوجِب اِعتبارَهُ والشفقةَ عليه، والدعوةَ له مِنَ الله بِصلاحِ حالِه. بِخلافِ ما يَفعلُه بعضُ الجهلة الجُفاةِ، ومَنْ ليس لهم عِلمٌ بسُنَّةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم وسيرتِه، مِنْ مقابلةِ بعضِ مَنْ تَظهر منهم بعضُ المخالَفاتِ بِالجفاء والإعراضِ

والاحتقار. فإِنَّ ذلك يدلُّ علَى العُجْبِ الذي كان السببَ في طرْدِ إبليسَ مِنْ رحمة الله، ولعْنتِه إلى يوم الدِّين.

ومما رأيتُه مِنْ علوِّ همَّةِ صاحبِ الترجمة وعدم نظرِهِ إلى الدنيا وأهلِها ومناصبِها، أَنَّ الفرصةَ تأتِيهِ مراراً بل وتُعْرضُ عليه لِيَحضرَ في المناسبات التي يُدخَلُ منها لِيَنالَ ما يشاءُ مِنَ الوظائف التي يَتسابقُ عليها المنتَسِبون إلى العِلم، فَتَأْبَى نفسُه الغنيَّةُ بالله والمُعْتزةُ بالله، الحضورَ في تلك المناسباتِ ويَهجرُها هجراً جميلاً.

في حين أرَى غيرَه مِنْ أهلِ العِلم والشَّرفِ والجاهِ، يَحرصُ كلَّ الحرص بل ويَعملُ كلَّ الوسائل لِبلُوغِ ما أَعرض عنه صاحبُ الترجمة ولم يَلتفتْ إليه.

وهذه أوصافٌ وأخلاقٌ نبويَّةٌ لم أَعُدْ أراها في وسط العلماء، مما كان ينبغي أَنْ يكونوا هُمْ أوَّلَ مَنْ يحرص على الظهور بها بين العامَّةِ، محافَظَةً علَى كرمِ العِلم وشَرفِه الذي لا شرَفَ فوقَه ولا كرامَة بَعدَه، مع أننا مع الأسف نَراهم لا يَفعلون ذلك؛ بل هُم أوَّلُ مَنْ يكونُ في مقدِّمةِ مَنْ يَحرصُ علَى عدم التَّغيُّبِ في هذه المناسبات حتى لا يَفوتهم الإعرابُ علَى النفاق، والإتيان بآياتٍ قرآنيَّةٍ في غيرِ موضِعها لِتبريرِ الانحرافاتِ، وإلْباسِ المشروعيةِ لِمَا لا مشروعيةَ له في الدِّينِ والدنيا.

ولهذا سقطوا مِنْ أَعْيُنِ الخاصَّةِ والعامَّةِ، وسقطَتْ معهم مرتبةُ العِلمِ الذي يَزعُمونَ أنَّهم يُمثِّلونه. وترتَّب عن هذا أنَّهم بعد أَنْ كان يَجِبُ عليهم أنْ يكونُوا رُوَّاداً وقادَةً وسادَةً كما كان سلفُنا الصالحُ رضي الله تعالى عنه، صاروا في نظرِ جميعِ الناس لأجل هذه المواقفِ المُشينةِ المُخْزيةِ لا يَعدُّونَهم شيئًا مذكوراً، ولا يَلتفتون إليهم في قليلٍ ولا كثيرٍ مِنْ أمورِ الدِّينِ والدنيا، فلا ثِقَة بهم، ولا اِطمئنانَ إليهم، لِمواقِفهم التي يراها كلُّ عاقلٍ غيرَ مشرِّفةٍ ولا لائقَةٍ بالعِلم وأهلِه؛ وبذلك حصل مِنَ الضَّرر بِتصرُّفِهم هذا بأَنْ أصبح العالِمُ في مرتبةِ الرجلِ العامِّيِّ التَّافِه المنحرفِ، سواءٌ في نظَرِ الدولةِ أو في نظر العامَّة.

فصل

ومما سمعتُه مِنْ صاحِبِ الترجمة حفظه الله، وهو يَذكر ما أنْعَم اللهُ به عليه، قال:

"مِمَّا أنعم الله به عليَّ بُغضَ الدنيا وأهلِها، وعدم الاكتراث بها واِحتقار زِينتِها ومَظاهرِها، والنظر إلى مُحِبِّيها والساعين في الحصول عليها بِعين الإشفاق والتعجب، ولم يَقَعْ في قلبي إلى هذه الساعة، والحمدُ لله، حبُّ الحصول على ما يَسعَى كلُّ الناس إليه منها.

وأرَى الفقيرَ أسْعَدَ حظًّا مِنَ الغنيِّ، وأقرَبَ منزلةً إلى الله منه، وأعظَمَ مقاماً في حياته وبعد مماته منه. لِاعْتقادي أَنَّ الدنيا ليست بميزانٍ لِلفضلِ، وأَنَّ اللهَ يُعطِيها مَنْ يُحبُّ ومَنْ لا يحب، كما قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأَنَّ اللهَ ما نظر إليها منذ خلَقَها مقتاً لها كما ورَدَ في الحديث، وأنَّها لا تُساوي عند الله جَناحَ بعوضةٍ، ولو كانت تُساوي أقلَّ مِنْ ذلك، لَمَا سقَى منها الكافرَ جرعَةَ ماءٍ.

وأعْجبُ غايةَ العجب ممن أراه يعامل الفقيرَ بغير ما يُعامِلُ به الغنيَّ مِنَ الاحترام والإكرام، وأرَى ذلك مِنْ ضعفِ إيمانِ مَنْ يَفعلُ ذلك، ولو نظر إلى الدنيا بما أمره الله أَنْ يَنظرَ به إليها، واِعتقد ما أنْزلَه علَى رسولِه صلى الله عليه وآله وسلم في ذَمِّها وذَمِّ العاملين لِأجْلِها لَمَا فعل ذلك مطلَقاً.

ولذا قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ تَواضَعَ لِغَنيٍّ لِأَجْلِ غِناهُ ذَهَبَ ثُلُثا دِينِه»، لأنَّه عظَّم ما اِحتقره اللهُ، واِعتقد رِفعةَ ما وَضَعه اللهُ، نعوذُ بالله مِنَ السوء، وأسأله سبحانه دوامَ فضلِه عليَّ، وأَنْ لا يَنزِعَ مِنِّي ما أكرمني به إلى أَنْ أَخرجَ مِنْ هذه الدنيا وأنا غيرُ مفتونٍ بِزينتِها، ولا متعلِّقٍ بزخرفِها وحطامِها الفاني، الذي ما ضلَّ مَنْ ضلَّ إلا بِحبِّهِ، ولا هلك مَنْ هلك إِلَّا بالتشوق إليه

والعملِ على حصوله. نسأل الله تعالى أَنْ يجعل قلبَنا متعلِّقاً به في جميع الحركات والسكنات، وهَمَّنا منصرفاً للحصول على رِضاهُ والقُربِ منه، وبذلك نَسعدُ السعادةَ العُظمى في هذه الدار وتلك الدار.

وقد قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنَّ مِنْ قَلبِ اِبنِ آدَمَ بِكُلِّ وادٍ شُعْبةً، فَمَن جعلَ الهُمومَ همّاً واحداً كَفاهُ اللهُ سائِرَ هُمومِه، ومَنْ تَفرَّقتْ به الشُّعَبُ كلُّها لم يُبالِ اللهُ في أيِّ وادٍ أَهْلَكَه**».

وهنا قال لي: إنَّ المَلبَسَ الحسَنَ والطعامَ الطيِّبَ، ووجودَ المالِ في اليدِ، لا يُنافي دعوَى صاحبِ هذا المقام إنْ وُجِدَ متَّصفاً بِشيءٍ منه أو كلِّه، وهنا تَزِلُّ الأقدامُ ويدخلُ علَى البُلْهِ وضعفاءِ العقل بسبب جهلِهِم الأغلاطُ والأوهامُ، لِظنِّهم أَنَّ وجودَ مثل هذه الأمور يُنافي القولَ بِبُغضِ الدنيا وعدمِ الميلِ إليها.

والذي أوقعهم في هذا جهلُهم بِمقام الزهد، وعدمُ معرفتهم بحقيقتِه كما ينبغي، ولبيان هذا نقول:

إنَّ المقاماتِ على قسمين كما قال الشيخُ الأكبرُ رضي الله عنه في مقدِّمة "الفتوحات المكِّية": ((قِسمٌ كَمَالُه في ظاهر الإنسان وباطِنِه كالوَرَعِ والتوبة، وقسمٌ كَمَالُه في باطنِ الإنسان ثم إنْ تَبِعه الظاهرُ فلا بأسَ كالزهد والتوكل)).اِهـ.

فقد أفاد كلامُ الشيخ الأكبر رضي الله تعالى عنه، أَنَّ الزهدَ كَمَالُه في الباطن، وأَنَّ الرجلَ قد يكون مليئًا وهو مِنَ الزهاد الذين لم يجعل اللهُ في قلوبهم اِلتفاتاً وافتتاناً بما في أيديهم مِنَ الدنيا.

وبكلام الشيخِ الأكبرِ يَزولُ الإشكالُ في وصْفِ نَبِيِّ اللهِ سُلَيمانَ عليه الصلاة والسلام بالزهد، مع ما أمدَّه الله به في الظاهر مِنَ المُلْكِ الذي لم يَكنْ لأحدٍ بعده.

وقد عقَدَ الإمامُ أحمدُ رضي الله تعالى عنه في "كتاب الزهد" له باباً عَنْوَنَه بِزُهدِ سُليمان عليه الصلاة والسلام.

وقال أبُو بَكْرٍ اِبنُ العَرَبِي المَعافِري، المالكِيُّ، الأندلسيُّ، في مقدِّمة كتابه "سِراج المُرِيدين": ((وقد كان سليمانُ عليه الصلاة والسلام مع هذا المُلْكِ العظيمِ مِنَ الزُّهاد. فإِنَّ الزهدَ ليس بِفراغِ اليدِ مِنَ الدنيا، وإنما هو بِاِعتقادِ اِحتقارها وملازمةِ هوَانِها وإنْ كانت بِحُكمكَ فيها)) اهـ.

فينبغي لِلمرءِ أَنْ يَتفطَّنَ لهذا، ولا يَتبعَ الجاهلين فيَقَعَ فيما وقعوا فيه مِنَ الجهل بحقيقةِ الزهد الذي هو أنْ تكونَ الدنيا في يَدِكَ لاَ في قلبِكَ، وأنْ تَفرحَ بِفراغ اليد منها أكثرَ مِنْ فرحِكَ بوجودها..".

وفي هذا يُضيف صاحبُ الترجمة قائلا: "يُحْكَى عن شيخٍ للتربية كان له تلامذةٌ، وكان في غايةِ القِلَّةِ وفُقدانِ ذاتِ اليَدِ: مالاً ومأكلاً ومَسكَناً. فأراد أحدُ تلامذتِه أَنْ يَزورَ شيخاً في بلدٍ آخَرَ مِنْ شيوخ التربية، فاِستأذن شيخَه في الذهاب إليه، فأذِنَ له، وقال له: قُلْ له يَدعُو لِي. فلمَّا ذهب إليه وَجَدَهُ في تَرفٍ ومَسْكَنٍ حَسَنٍ، وفي حالةٍ تدلُّ علَى الغِنَى والوَجْدِ. فتعجَّب التلميذُ مِنْ ذلك، لأنَّه رأَى ذلك يُنافي حالَ الزُّهاد، ولكنَّه اِمتثالاً لِشيخِه أَبْلَغَهُ سلامَه وطلَبَ منه الدُّعاءَ له؛ فما كان منه إلَّا أَنْ قال: نَسألُ اللهَ له أَنْ يُخْرِجَ حُبَّ الدنيا مِنْ قلبِه. فاِزداد التلميذُ عَجباً مِنْ هذا الدعاء لِمُناقضتِه حالَ شيخِه وحالَ الشيخِ الدَّاعِي له. فَرَجَع إلى شيخِه وأخبره بِحالِه وبِدعوتِه له، فما كان مِنْ شيخِه إلَّا أَنْ أَطْرَقَ رأسَه وقد علاه الحُزن، وقال له: صَدَق، إنَّ اللهَ أسْكَنَ حبَّ الدنيا في قلبِي، وهو أعطاها له في يدِه ولم يُدخِلْها في قلبِه..".

فصل

كما أخبرني صاحبُ الترجمة حفظه الله، أَنَّ مِنْ نِعَمِ الله عليه أَنْ حبَّبَ إليه العُزلَةَ عن الناس والبعدَ عن مجالِسِهم، وكَرَّه إليه الرّكُونَ إلى مخالطتِهم، ولا سيما أهل الدنيا منهم. فإنَّ قلبَه يَنقبض تماماً ويضيقُ صدرُه جدًّا عند الاجتماع بهم أَو بأحدهم، ولا يَرتاح خاطِرُهُ حتى يُفارق المجلسَ الذي هُمْ فيه.

وكذلك الحُكَّام منهم، فإنَّ بُغْضَه لهم وملاقاتِهم أشد وأعظم، ويَعجبُ كثيراً ممن يَطيبُ له مخالطتهم والأكل معهم وهو منشرحُ الصَّدرِ طيِّبُ الخاطرِ، مِنْ غير أَنْ يَجدَ ضِيقاً ولا حرجاً. بينما نرَى الناسَ اليومَ وقَبل اليوم يَسعوْنَ بكلِّ الوسائل إلى التقربِ إلى الناس والتعرفِ إليهم، لا سيما أهل المال والحُكمِ منهم، وكلُّ ذلك لِجهلِهم بما في ذلك مِنْ وَخِيمِ العواقب على المرءِ في دينِه وطمْسِ بصيرتِه.

وقد مكث في مِصْر سِنين طِوال، ومع ذلك لم يَزد مَنْ يَعرفه بها مِنَ الناس على عدد الأصابع. وكان بعضُ أصحابه حفظه الله، مِنْ طلبةِ العِلم الذين حُبِّبَ إليهم الاجتماع والذهابُ إلى المجتمعات العلمية التي لا تخلو القاهرةُ منها كل يومٍ، يلومُه على هذه العُزلةِ واِتِّباع الخمول ويقول له: أنت لازِلْتَ شابّاً، وذا هيئةٍ حسنةٍ ومكانةٍ علميةٍ لائقةٍ، فلو خرجتَ إلى ما خرج إليه أمثالُكَ مِنَ التعارف بطبقات أهل العِلم والأدب والسياسة... وكثيراً ما كان يُرغمُه أنْ يذهب معه إلى هذه المجتمعات والنوادي، ومع ذلك لم يُساعده يوماً على طلَبِه، بل قال لي حفظه الله: "ولم أَرْ لِكلامِه وجهاً مِنَ الصواب مطلقاً، وأقولُ في نفسي ولا تَكنْ مع الغافِلين".

ثم قال لي: "وعلى النقيض مِنْ هذا، فإنَّ اللهَ أكرمني بِشيءٍ خَصَّ به أحبابَه وأولياءَه، وهو: حُبُّ الذِّكرِ وأهلِه، وأجدُ في قلبِي لِيناً وخشوعاً عند حضور حِلَقِ

الذِّكرِ والاجتماع مع أهلِه، ويَحصل لي وجدٌ عظيمٌ واِطمئنانٌ في القلب عند الذِّكرِ والسماع، وذلك مِنْ علامات الإيمان الصَّادقِ، والحمد لله.

فإنَّ اللهَ أخبر عن المؤمنين بقوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، والحمدُ لله علَى مِنَنِه التي جاوزت الحدَّ والإحصاءَ، وبِضدِّها تتميز الأشياء.

فإِنَّ الناس في هذا الوقت حتى أهلَ الدِّينِ والعِلم منهم، يَرونَ في حُضورِ حِلَقِ الذِّكرِ ومجالسِ الذِّكرِ ضياعاً لِلوقت، ويَسخَرون مِنْ ذلك. وقال لي شخصٌ إِنَّه يَستحيِي في نفسِه في هذا الوقت مِمَّنْ يَحضرُ حِلَقَ الذِّكر. وهذا حالٌ عجيبٌ أوجبَهُ هذا العصرُ المُظلمُ بأهلِه.

فإنَّ لِحِلَقِ الذِّكرِ ومجالسِ السَّماعِ أثراً عجيباً علَى القلوب، وسرعةً عظيمةً في تليينِها والنهوضِ بها إلى حضرة علَّامِ الغيوب، لا سيما إذا كانت مع رجال الصِّدقِ والإخلاص في مجاهدتِهم لِنفوسهم ومحبَّتِهِم لِجنابِ الله تعالى، ويُنشَد فيها كلامُ أهلِ الأذواق مِنَ العارفين، مِثل اِبنِ الفارِضِ، والشُّشْتري، والحرَّاق، رضي الله عنهم. ومَنْ وجد خيراً فليَحْمَدِ اللهَ..".

ثم قال لي: "وأكرمني اللهُ بمحبَّةِ الصالحين، وهذا أعدُّه مِنْ مِنَنِ اللهِ عليَّ، لِأَنَّ الرسولَ صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «المَرءُ معَ مَنْ أَحَبَّ». وفي الدعاء الذي أمرنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم أَنْ نَتعلَّمه وندعو به: «**اللَّهمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ حُبَّكَ وحُبَّ مَنْ يُحِبُّك**».

وجعل في قلبي تعظيماً لأهل الله تعالى ومَنِ اِنتسب إلى طريقِهم، الأحياءِ منهم والأموات. وطبَعَ في نفسي مِن اِعتقادِ خصوصيَّةِ رِجالِه والتبركِ بهم وبآثارهم، ما وجدْتُ بَركَتَه الآنَ، والحمد لله.

وأطلبُ مِنَ الله تعالى أَنْ يَمُنَّ عليَّ بدوام ذلك حتى ننخرطَ معهم فيما سلكوه مِنَ المَسالِكِ، ونَصِلَ إلى ما وصلوه مِنَ المَدارك. وهُمُ القومُ لا يَشقَى مُحِبُّهم. فَمَنِ اِعتقدَ نالَ الفضلَ والولايةَ، ومَنِ اِنْتقَدَ وأعْرَضَ لَحِقَهُ الخسرانُ وكُتِبَ مع

أهلِ الجِنايةِ؛ نعوذُ بالله مِنَ السُّوءِ.

ومِنْ مِنَنِ اللهِ عليَّ، أنِّي ولِعْتُ مِنْ صغري بِحضورِ حِلَقِ الذِّكرِ بِزاويتِنا، وقراءةِ وظيفةِ طريقةِ مولانا الوالد رضي الله تعالى عنه مع إخواننا بعد صلاة الفجر، بِباب دارنا. وقد حَفِظتُ حِزبَ الإمامِ النَّوَويِّ، وحِزبَ البَحرِ، وحِزبَ الزُّرُّوقِيَّةِ لِسَيِّدي أحمدَ زُرّوق، وصلاةَ القُطبِ اِبْنِ مَشِيشٍ رضي الله عنهم جميعاً، وأذكاراً أخرى تشتمل عليها الوظيفةُ، لِملازمةِ حضوري لِقراءتها مع الإخوان مِنْ غيرِ أَنْ أكتُبَها في كِتابٍ ولا لَوْحٍ وأنا صغيرٌ ساعتَئِذٍ. ولا زِلتُ إلى الآن أقرأها كلَّ صباحٍ في بيتي، وكُنتُ في مِصرَ أقرأها كلَّ يومٍ مع سورة ﴿يسٓ﴾.

ولكنْ لَمَّا كان أغلبُ وقتي في البيت منصرفاً إلى الاشتغال بالعِلْمِ فقد كُنتُ أقرأها عند خروجي مِنَ المنزلِ، وأثناءَ ذهابي في الطريقِ ولم أتركْها مدَّةَ إقامتي في مِصر. وقد كان والدي رحمه الله، يُوصِي كثيراً بِحِزبِ النَّوَوي وحِزبِ البحرِ لِأبِي الحَسَنِ الشَّاذلِي، رضي الله عنهما، ويُنوِّهُ بخصوصيتِهِما العظيمة، ومِنْ وقتِ سماعي لِهذا مِنه وأنا محافِظٌ على قراءتهما كلَّ يومٍ، اللهمَّ إنْ حالت أعذارٌ طارئةٌ..".

وهنا حكَى لي أنه وقع مرةً لِبعضِ إخوانِنا سنةَ خمسين وثلاثمائة وألف هجرية، نِزاعٌ مع رِجالِ المْخازنِيَّةِ، بِبابِ المَندوبيَّةِ بِطَنجة، وذلك قَبلَ الاستقلال بنحوٍ مِنْ خَمسٍ وعِشرينَ سنةً، وَصلُوا فيه إلى الضَّربِ بالعِصِيِّ، وشَهِد الحُكَّامُ إخْوَانَنَا وَهُمْ يَنهالون بِعِصِيِّهِم علَى المْخَازْنِيَّة، وتَرتَّبَ عن ذلك إلْقاء القَبْضِ عليهم وإيداعهم في السِّجن. وقد كان جميعُ مَنْ وقع له ذلك مِمَّنْ قرأ الوظيفةَ الصَّباحِيَّةَ المذكورةَ في الزاوية، وهي مشتملةٌ على الحِزبيْنِ المذكوريْنِ، (قال) فذهب عند والده رضي الله عنه وقال له ببساطة الفَتَى الذي لم يتجاوز عُمرُهُ اِثْنَيْ عَشر سنةً: تقول لنا إنَّ قارئَ حِزبَي النَّووي والبحر لا يَقعُ له سوءٌ، وها هم أُولاءِ قد قَرؤُوا ذلك في هذا الصباح، وحصل لهم ما حصل. فأجابه: لو لَمْ يَقرؤُوا ذلك

لكان الأمرُ أعظمَ مِمَّا حصل لهم خطورة وشِدَّةً، وبسبب قراءتِهم لِلحِزبيْنِ وقع اللُّطفُ فيما حصل.

ثم قال لي صاحبُ الترجمة: "وقد وقع في هذه القضية لُطفٌ عظيمٌ حقًّا، فإنَّ قضيةَ هؤلاء الإخوان اِنتهتْ بِسلامٍ ورِفقٍ عظِيميْنِ. وأعظمُهم جنايةً عُوقِبَ بأربعة أشهرٍ سِجناً، مع أَنَّ العادةَ تَقضي فِيمَنْ يَعتدي على رجال الشرطة أو الـمْخازْنِيَّة، ويَضربهم حتى يَسيلَ دَمُهُم وهُمِ بِلباسِهم الرَّسْميِّ، والحكَّامُ يَشهدون ويَنظرون، أَنْ يُعاقَبَ أَشدَّ العقوبةِ، لا سيما ونحن وَمَنْ يَنتسبُ إلينا معروفون عند حكومة الاستعمار بعدم الاكتراث بها، والنظر إليها بِعَيْنِ الاعتبار، ونَصْبِ العداوة لها ولِمَنْ يَميلُ إليها. وقد سبَقَتْ هذه الحادثةَ حوادثُ وقضايا تدلُّ على هـذا.

فمتى وجدوا الفرصة للانتقام مِنَّا اِنتقموا أشدَّ الانتقام، لاسيما وَهُمُ الذين وضعوا قانونَ العقوبات لِيَكون دائماً في جانبهم. ومع ذلك صرف اللهُ الأمرَ بِسلامٍ، وكَبَتَ الأعداءَ، ورَدَّ كيدَهُم في نحورهم، رغْمَ ما بذلُوه مِنْ كَيدٍ وَسَعْيٍ في إعطاءِ القضيةِ مكانتها العظيمة في الجريمة، وهي الاعتداء على رِجالِ الـمَخْزَنِ، وشتْمِ الحكَّامِ والحكومةِ وهُمْ يَسمعون ويَنظرون، حتى بلغ الحالُ بِبعض حُكَّام الـمَنْدُوبِيَّةِ أَنْ سافرَ إلى الرِّباطِ لِمقابلةِ أسيادِه الفرنسيِّين لِيَطلبَ العقوبةَ الصارمةَ التي يَحكُمُ بها القانونُ في مثل هذه الحوادث، ومع ذلك ردَّهُ الله خاسراً خاسِئًا، ودَحَرَهُ ولم تَقُمْ له قائمةٌ بعد ذلك؛ بل عقِبَ هذه القضيةِ بِشهورٍ قليلةٍ أُصيبَ بِمرضٍ عُضالٍ أعْيَى الأطباءَ علاجُه، ومات في منزله ورأسُه في حِجْرِ يهوديَّةٍ، لأنه كان مجاوراً لليهود في "الملاَّح"[1]، ويترددون عليه صباح مساء.

وقد قال الوالد رحمه الله في شأن هذا الرجل لَمَا بَلغه صَنِيعُه هذا في هذه القصية: ((هذا آخِرُ حُكْمِه في الـمَنْدوبِيَّةِ))؛ فكان كذلك" اهـ.

ولَـمَّا حكَى لي صاحبُ الترجمة هذه القضية، أخذتُ منها فائدتيْنِ:

1- "الملاح" حيٌّ خاص بسَكن اليهود، في المدن المغربية.

الأُولَى: أَنَّ إخواني الصِدِّيقِّيِّينَ كانوا دائماً يَرفعونَ لِواءَ المحاربةِ ضِدَّ الاستعمار، شأن حقيقة الصُّوفيِّينَ على مرِّ العصور، ومعارضةَ أهدافه ومشاريعه التي كانت هي القضاء على تعاليم الإسلام وحُكمِ القرآن. لِأَنَّ هدفَه الأولَ هو محاربةُ القرآن وتعطيلُ رسالتِه، ذلك أَنَّ الصَّليبِيِّينَ يَرونَ أَنَّ مشاريعَهم سَتبقَى حِبْراً على ورَقٍ مادام القرآنُ موجوداً في حياة المسلمين.

الثانية: أَنَّ بالإضافة إلى ما في الأذكار مِنْ خيرٍ وبَركاتٍ، حيث تتنزَّل الرَّحماتُ فتطمئن القلوب، وتتطهَّر النفوس فتتشوَّق إلى لِقاء الله سبحانه وتعالى، لِما تَمحوه الأذكارُ مِنَ السَّيِّئات وتُعلِي مِنَ الدرجات، فإِنَّ اللهَ يَدفعُ بها ماكَان أعظمَ، وإذا نزل القَدرُ نزل بِلطفٍ كما دلَّت عليه هذه الحادثةُ.

وحادثةٌ أخرى يَعزو صاحبُ الترجمة السِّرَّ في حِفظِه مِنْ مُصابِها وهَوْلِ ما كان سَيُصيبُه بسببها، إلى المحافظة على هذه الأوراد، وهو ما حدثني به بِقولِه:

"وقع لي مرةً بِمِصر وذلك حوالي سنة 1943- 1944م، أَنْ خرجتُ مِنَ المنزل بعد الفطور لأجل الفسحة والتَّرويحِ على النفس، في حدائق الجِيزَةِ الكائنة علَى النِّيل، وقَبلَ الخروج قرأتُ أورادي كالعادة، وذهبتُ إلى المكان المقصود وأخذتُ حظِّي مِنَ النزهة والراحة. ولَمَّا عزمتُ على الرجوع أردتُ أَنْ أركبَ عَربَةَ (التِّرامْ) التي تَسيرُ على قُضبانِ الحديدِ بواسطة الكهرباء، ولم أدْرِ كيف وقع لي حتَّى وجدتُ نفسي تحت العربةِ بِشكلٍ ألْقَى الرعبَ في الناسِ، لأنه كان يَدلُّ منظرُه علَى أَنَّ رِجلي قُطِعتْ ورأسي ذَهَب، لِقُرب اِلْتِصاق قاعِ العربة بالأرض.

ووقع لي ساعَتَئِذٍ مِنَ الألم ما لا يُوصف، واِجتمع الناسُ عليَّ وأخرجوني مِنْ ذلك المأزق وصاروا يَنظرون إلى أعضائي عُضواً عُضواً. فلمَّا وجدوني سالِماً لم يقعْ لي ما يَسوء، أخذهم العَجبُ بِرجالهم ونسائِهم، وصاروا يقولون لي: إِنَّكَ رجلٌ طيِّبٌ، حيث حُفِظتَ مِنَ الموتِ مع قُربه منك.

وقد مكثتُ مدةً تزيد على عشرة أيامٍ وأنا ملازمٌ الفراشَ مِنْ جراء ما أصابني مِنَ الألم في ظهري، وكادت عَيني تَخرجُ عن موضعِها، واِسوَدَّ بياضُها تماماً. ولَمَّا ذهبتُ إلى طبيبِ العيون وهو قِبْطِيٌّ نصرانيٌّ قال لي: يجب أنْ تَحمدَ الله، فإنَّ عينكَ كانت في طريق الذهاب، ولولا لُطفُ الله لَاِنْقطعتْ عُروقُ النَّظر تماماً.

وتحققْتُ بعد هذا بَركةَ تلك الأحزاب، وفضْلَ المداومة عليها وقراءتِها صباح مساء. وينبغي الاتِّعاظُ بهذه القضية، ولُزومُ ذِكرِ الله، لا سيما ما شهِدَ بخصوصيتِه أهلُ المعرفة بالله، ولِلَّهِ دَرُّ الوالدِ رحمه الله تعالى حيث يقول في رائِيَتِه المشهورة:

وَلا يَشْغَلَنْكَ الدَّفعُ إنْ نَزلَ البَلَا ** فَلا شَيءَ مِثلَ الذِّكرِ في الدَّفعِ لِلْوَرَا".

فصل

ويحكي لي مِنْ نِعَمِ الله عليه، أنَّه منذ كان في (الـمْسِيدْ)[1] مع الأطفال، وهو لا يعتني باللباس الذي يَلبسه أمثالُه وإخوانُه، المشتملِ على القُفطانِ المَخِيطِ بالحرير الصِّناعِي، والقميصِ الذي يُخاط مثل القفطان.

قال: "وأبدلتُ القفطانَ بِقَشَّابةِ الصُّوفِ، فَوقها قَشَّابَةٌ مِنَ الكتَّان المعروف (بِالسْحَانْ)، وعملْتُ جلَّابَةَ الصُّوف المصنوعة على الطريقة المغربية، وصار ذلك لِباسي في أيام الأعياد وغيرها. وفي عيدٍ مِنَ الأعياد، كُنتُ أَلْبسُ ثِيابي فأَطَلَّ والدِي عليَّ، رضي الله عنه، مِنْ فَوق، فرأَى كسوتي وطلب أَنْ يَنظرَ إليها، فلمَّا أخذها بِيَدِه تَبسَّم وأظهَرَ سروراً وقال لي: ''هذه كسوةُ العارِفِين''. أطلبُ اللهَ أَنْ يجعلني منهم، آمين.

1- «المْسِيدْ» في اِصطلاح المغاربة يُقصَد به الكُتَّاب الذي يَحفظ فيه الصِّغار القرآنَ الكريم، على النمطِ القديم.

قال: ولم يكن لي في صغري وأنا في (الـمْسِيدْ) ولَعٌ باللعب مع الصبيان، ولا بالخوض معهم في كثيرٍ مِنْ لهوهِم. وقد كان إخواني جميعاً ونحن صغارٌ يلعبون كرةَ القدم، ويَصرفون فيها الوقتَ الكثيرَ، ولَهُم رغبةٌ عظيمةٌ في لعِبها وحضورِ محافلِ التفرجِّ بالنَّظرِ إلى لاعِبِيها.

ومع ذلك لا أعلم مِنْ نفسي أنِّي لعبتُها أو ذهبتُ إلى ملعبِها، وكنتُ أعجب وأنا في ذلك السنِّ مِنْ رغبة مَنْ يلعب بها. وكنتُ ألزمُ المنزلَ غالباً، ويَندُرُ أَنْ أذهبَ مع الصبيان في فُرجةٍ أو لعبٍ. وقد كان أهلُ الدار يَعجبون منِّي كثيراً مِنْ كثرةِ ملازمتي الدارَ وعدمِ اللعبِ مع الصبيان؛ بل أكثر مِنْ هذا، أنِّي كنتُ أسافر لزيارة بعضِ المدن المغربية مع بعض الإخوان بإِذْنِ الوالد رحمه الله، والعادة في الغريب حُبُّ الاستطلاع والطوافُ بالبلاد التي يدخل إليها، أمَّا أنا فكُنتُ إذا دخلتُ لِبلدٍ يَقِلُّ خروجي جدًّا، مع حِرصِ الإخوان على خروجي معهم لأجل الاستطلاع والنظر، ومع ذلك كنتُ ألزَمُ غالباً الزاويةَ التي نَقصدها في العَرائِش، وسَلَا، وفاس، مَثلاً.

وقد مكثتُ مدةً في فاس مع بعض الإخوان، وكانوا يخرجون إلى التنزه في ضواحي المدينة وأنا معتكفٌ في زاوية سيِّدِي محمد أَيُّوب المعروفة بِزنقة الرَّطَلْ، (في هذه الزاوية أخذ القُطبُ الإمامُ والدُ صاحِبِ الترجمة التصوفَ وسلوكَ طريقِ العارفين عن شيخِه سيِّدي محمد بن إبراهيم رضي الله عنهما)..".

ومـمَّا حكاه لي مِنْ كَرم ومِنَنِ الله العظيمة عليه، أنَّ الله تعالى لم يجعل في قلبِه التَّعلقَ بالأسباب في شأن الرزق، كما هو حال الناس دائماً، ولا سيما اليوم حيث عصرُ المادة والتَّكالبِ عليها بمنتهَى الدَّناءة والجشع، فلا يَدور الناسُ إلاَّ حولها ولا يَسعَوْنَ ويجتهدون إلَّا لِلحصولِ عليها دون اِكتراثٍ بحلالٍ أو حرامٍ، حتى أصبحت المادةُ هي كلُّ شيءٍ عندهم، فهي هدفُهم وغايتُهم، فعليها يجتمعون ولأجلها يفترقون. وأمسَتْ شريعةُ الله منسوخةً عندهم بما تُملِيهِ عليهم الأهواءُ والأطماعُ، والحِيَل والخُدع، تنافساً على جمْعِ أكبرِ قدْرٍ مِنْ حُطامِ الدنيا الذي ما تَنافَس عليه

قومٌ إِلَّا أهلكهم الله، لهذا قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لَا أَخْشَى عليكُم الفَاقَـةَ، وإِنَّـما أَخْشَى عليكُم ما يَفْتَحُ اللهُ عليكُم مِنْ زَهْرَةِ الدُّنيا فَتَـنافَسُوا فِيها كمَا تَنافَسَ فِيها مَنْ قَبْلَكُمْ، فَتُـهْلِكَكُم كَما أَهْلَكَتْهُم**».

ومما حدَّثني به صاحبُ الترجمة في هذا الباب قولُه: "إِنَّ قلبي متعلِّقٌ بالله وحده سبحانه وتعالى في جميع الأحوال، وأعتقدُ الاعتقادَ الجازمَ أَنَّ الله سبحانه وتعالى قادرٌ علَى إِيصالِ الرِّزقِ إلى عبدِه مِنْ غيرِ حركةٍ ولا سعيٍ في الأسباب. وقد مَنَّ اللهُ تعالى عليَّ بهذا المقام منذ أزمانٍ، وحصل لي بسببه نورٌ في القلب واطمئنانٌ، وصِرتُ بسببه دائماً في مشاهدةِ تجلِّياتِ الرحمن وتصرفاتِه في عباده، مِنْ غيرِ نظرٍ إلى الأكوان والوقوف معها. وقد أوصلني هذا المقامُ إلى الرِّضا عن الله تعالى فِيما يَفعلُ ويُـريد، فلا أَسْخَطُ على ما فات ولا أَفْرحُ بِما هو آتٍ، فالذي يَفوتُ بِقدَرِ الله، والذي يأتي بِقَدَرِه.

فلو أردتُ جلْبَ ما أراد فواتَه لا أستطيع، ولو أراد غيري دفْعَ ما أراد وصولَه إليَّ لا يستطيع، ولو فَعَل ما فَعَل. فإذا حضر البَسطُ والوجدُ كما أطلبُ وأريدُ حمدتُ وشكرتُ، وإذا لم يحضر علِمْتُ أَنَّ الله لم يُرِدْهُ لِي فَصَرَفْتُ النظرَ عنه وصبرتُ.

ولهذا لا أعلم عن نفسي أنني تحسَّرتُ أو تأسفتُ على ما فات مِنْ يدي عندما تَـنزلُ الضائقةُ أو الحاجة إلى ذلك الذي خرج مِنْ يدي وذهب.

ومِنْ هنا لم أَسْعَ في وظيفةٍ مِنَ الوظائف، ولا عَمِلْتُ على الحصول عليها، سِيَّما ما كان منها في يدَيْ مَنْ يَدعو العملُ فيها إلى مقابلتِه بِغير ما أقابله به وأنا موظفٌ، لِمَا أرَى في ذلك مِنَ التذلل والتواضع لأجل المالِ لا غير[1].

---

1 - ومما يدلُّ على هذا، أَنَّ الموظفَ اليومَ لابدَّ أنْ يقعَ فِيما لا يُرضِي اللهَ تعالى، أنَّه في سنة 1405هـ زار "البَابَا" رئيسُ الكنيسةِ المغربَ بدعـوةٍ مِنْ حكومتِه، وكان مِنْ برنامج الاحتفالِ به والحَفاوة بِقُدومه أَنْ جعلت الحكومةُ في مقدِّمةِ مُستقبِليه العلماءَ الموظفين، وجَمعتهم في أماكنِ الاستقبال مع العامَّةِ لِمقابلة زعِيمِ أهلِ الصليب، والسلامِ عليه. وما أوقَعَهُم في هذه المُوبِقَةِ العظيمةِ التي لا تَليقُ بالعامة فضلاً عن العلماءِ إِلَّا كونهم مِنَ الموظفين المأجورين. فلِهَذا يَجبُ على العالِمِ إذا أراد أَنْ يَحفَظَ كرامة العِلم أَنْ

وهذا هو النفاق الذي أخبر به الرسولُ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه سَيَكثرُ في آخِرِ الزمان إلى درجة أَنْ قال: «**سَيَأْتِي علَى الناس زمانٌ لو نَزَلَ حَجَرٌ مِنَ السَّماءِ لَمَا نَزَلَ إلاَّ علَى رجلٍ مُنافِقٍ**».

ولا أرَى هذا إلا في هؤلاء الموظفين الذين يقولون لِرُؤسائهم خلافَ ما يُبطِنون لأجل الدنيا التي هُمْ في غِنًى عنها. وقد قال رجلٌ لِابْنِ عُمرَ رضي الله عنه: ((إنَّنا نَكونُ عند الأمير فَنَقولُ له قولاً، فإذا خرجنا مِنْ عنده قُلنا قولاً آخر. فقال اِبنُ عُمرَ رضي الله تعالى عنه: كُنَّا نَعُدُّ هذا في عهد رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم مِنَ النِّفاق)).".

ثم أضاف يقول لي: ولَمَّا قدِمتُ مِنْ مِصرَ، عُرِضَتْ عليَّ الوظيفةُ بِتِطْوانَ بِمعاهدها العِلمية، فلم أَلتفِتْ إليها بِالمَرة. وحصل لي فرحٌ بِكونِ اللهِ صَرفَها عنِّي، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وقال لي: ومع كلِّ هذا وذاك، ففي بعض الأحيان يتحرك عِرْقُ البشرية، وتوسوس النفس بما فُطِرت عليه مِنْ ضعفِ الثقة بما في يدِ الله والرِّضا بما في عِلْمِه، وتَطلُبُ أنْ يَكونَ المُقدَّرُ عند الله وصولَه إليها في يدِها حاضراً في كلِّ آنٍ وحينٍ، لِتطمئنَّ وتَثِقَ.

ولهذا أخبرَ الرسولُ صلى الله عليه وآله وسلم لِصعوبةِ هذا الموقف أَنَّ الزهدَ هو أنْ تكونَ بِما في يدِ الله أوثَقَ بما في يدِكَ.

ولكنْ مع ذلك، أَستعيذُ بالله مِنْ شرِّها، وأطلبُ مِنْ ربِّي أَنْ يَهدِيَها، ويَسلكَ بها طريقَ المهتدين، فتطمئن وتَعُود إلى رُشدِها. وقد طالعتُ "التَّنوير في إسْقاطِ التَّدبير" لِلعارفِ اِبْنِ عَطاءِ اللهِ السَّكَنْدري رضي الله تعالى عنه، لِأَجْلِ تهذيب النفس وترويضِها علَى هذا المَقامِ، وعدمِ نظَرِهَا إلى ربْطِ عَطاءِ الله تعالى وفضلِه

يبتعدَ عن الوظائف الحكومية، ويَقْنَعَ بما قَنع به السَّلَفُ، وبذلك سادُوا. (أضاف هذا التعليق على حاشية الأصل الشيخ سيدي عبد العزيز بن الصديق رحمه الله تعالى بخطه).

بِشيءٍ مِنَ الأمور والعادات. وقد حصل لي منه نورٌ وتنويرٌ والحمدُ لله..".

ثم قال: "ودفْعاً لِكلِّ اِلْتباسٍ وَوَهْمٍ، فليس معنى قولي هذا أنَّ اللهَ تعالى لم يُشَرِّعْ لِعِباده الأسبابَ، ولم يأمرهم بِطلبِ الرِّزقِ وأمورِ معاشِهم بِبابٍ مِنَ الأبواب. كلَّا، فإِنَّ الشريعة قاضيةٌ وَحاكمةٌ بربْطِ المُسبِّباتِ عن الأسباب، وإنكارُ ذلك منها إِنكارٌ لِمَا عُلِمَ ضرورة، وقَطعَ به الخاصُّ والعامُّ.

والصوفيةُ رضي الله تعالى عنهم لا يُنكرونَ الأسباب، ولا يَنْهَون الفقيرَ عن القيام بها مع سلوكِه في الطريق ومشاهدتِه. وإنَّما معنَى قولي هذا هو أنَّ الناسَ اليوم يكادون يُشركون بالله تعالى، ويجعلون الأسبابَ رازقةً لهم مع الله تعالى، ولا يقع في خاطرِهم أَنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يَرزق بِغيرِ سببٍ ولا علَّةٍ، ويَمنحُ بِدونِ خوضٍ في عملٍ وحركةٍ، ويَستحيلُ عندهم عقلاً وعادةً أَنْ يَرزقَ اللهُ عبداً مِنْ عباده وهو قابعٌ في داره. وصار قلبُهم بسبب ذلك متعلقاً بالأسباب، مهتمًّا بها في الليل والنهار، منصرفاً عن الله والنظرِ فيما قدَّر وصولَه للعبدِ. وتسبَّبَ لهم ذلك في تركِ الفرائض والسُّننِ، ومراقبةِ اللهِ تعالى في الأمور والأحوال، فلا يُفرقون بين الحلال والحرام، ولا يخافون مِنْ عقابٍ ولا حسابٍ، وأظلمَتْ قلوبُهم بسبب الركون إلى الأسباب، وإعتقادِ أَنَّ الرزقَ لا يأتي مِنْ عند الله إِلَّا بواسطتِها والدخولِ فيها، فأبعَدَ اللهُ تعالى منها الخشوعَ والرَّهبَةَ مِنه، وجعلها قاسيةً لا تخاف ولا تَرغَبُ فيما عنده سبحانه. فهذه هي الأسباب التي نَعني ويعنِيها الصوفيةُ رضي الله تعالى عنهم.

وأما مزاولةُ الأسباب مع النظر إليها بأنَّها مأمورٌ بها لا غير، وأَنَّ رزقَه قد يأتيه ويَتَيسَّرُ له مِنْ غيرِ طريقِها، فهذا لا يُنكِرُه أحدٌ، وهو الذي كان عليه كبارُ الشيوخ مِنْ رجالِ الطريقِ منذ عصر السَّلفِ، رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بأحوالهم. آمين".

فصل

وعلى ذِكرِ صاحبِ الترجمة لِكِتاب "التَّنوير في إِسْقاطِ التَّدبير"، فإنَّه حفظه الله كان قد أرشدني إلى قراءة هذا الكِتاب القيِّم عام1377هـ، موافق1977م، وصادف أَنْ سافرتُ أثناء ذلك رفقة والدِي رحمه الله إلى مَدْرِيد في ربِيع هذه السنة لإجراء عمليةٍ جراحيةٍ له. فَعكفتُ في هذا الوقت بالذَّاتِ على قراءة كتاب "التنوير" المذكور، فمَلأَ قلبي نوراً علَى نورٍ، ومزيداً مِنَ الاجتهاد في طاعة مَنْ إليه تُرجَعُ الأمور. فسبحان الذي جعل الراحةَ والاطمئنانَ في القلوب الراضيةِ بِقَدَرِه، الشاهدةِ في ذلك حُسنَ مُرادِه.

وإِنَّ مِمَّا وجدتُه مِنْ بركةِ قراءةِ هذا الكتاب، أنَّني كنتُ قَبلَ قراءتِه أُفكِّرُ في الاستقالة مِنَ الوظيفة في وزارةِ العَدل، وبعد ما ختمتُه وكُنّا قد رجعنا إلى طَنْجَة، سارعتُ إلى تقديم إستِقالتِي قبل وصول الوقت الذي كُنتُ حدَّدتُه لِذلك، وأراحني اللهُ مما كُنتُ أتحمَّلُ مِنْ مسؤوليةٍ، وإشتغلتُ في الميدان الحرِّ بالتجارة، ووجدتُ فيها، والحمد لله، مِنَ الخيرِ والبركةِ ما لم أجدْ شيئًا منه في عهد الوظيفةِ.

وقضَى اللهُ اللطيفُ الخبيرُ أَنْ يُنقِذَ قلمي مِنْ تحريرِ محاضِرِ الجَلَساتِ، والتَّقارير ووقائعِ الأحكام التي ما أنزل اللهُ بها مِنْ سلطان، إلى تحريرِ المَقالاتِ التي تُساهم في إعادة بناء الشخصية المسلمة، وتعالج واقِعَ المسلمين المُزري نَتيجة إِنْسلاخِهِم عن حقيقةِ الإسلام في كلِّ شؤون حياتهم الخاصَّةِ والعامَّةِ، وإلى تأليفِ كُتبٍ قيِّمةٍ في هذا الإطار لِتُساهِمَ في تحقيق الحصانة الفكرية، وفي توعيةِ المسلمين وإِيقاظِ هِمَمِهِم، ولَهْبِ مشاعِرِهِم، لِتَتجَمَّعَ الطاقاتُ، وتتأطَّرَ المجهوداتُ للعودة إلى ربْطِ الدولةِ بالدِّينِ، لِتَتِمَّ عمليةُ تطبيق الإسلام في الحُكمِ، والسياسةِ، والاقتصادِ، والاجتماعِ، وفي كلِّ مجالٍ.

وهذا مِنْ فضل الله العظيم عليَّ، فالحمد والشكر لله على توفيقِه وإحسانِه، حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيه.

ولغاية إعجابي بكتاب "التنوير"، فكثيراً ما كنتُ أقرأُ فصولاً منه على والدي رحمه الله، وكُنَّا نَنشرحُ به غايةً لِمَا نجد فيه مِنْ فيضِ الإيمان وتَدبُّرِ القرآن.

ويقولُ لي: إنَّ ما قرأتَه عليَّ مِنْ هذا الكتاب يُذكِّرني بما شاهدتُه مِنْ أحوالِ وسلوك السَّيِّدِ[1] رضي الله عنه، وعلى هذه المعاني والأخلاق النبوية كان يُربِّي أصحابَه.

وقد زُرتُه في منزلِه قَبلَ أوَّلِ رحلةٍ لي إلى أداءِ فريضة الحجِّ عام 1353هـ، موافق 1934م، وأنتَ في العام الثاني مِنْ عُمركَ، فقد فرح بي ودعا لي رحمه الله كثيراً.

والحقيقة أنِّي ما رأيتُ مِثله، على كثرة ما جالستُ مِنَ العلماء والأشراف والعارفين، فقد فاقَهم رضي الله عنه زهداً وعلماً، وتواضعاً وحِلماً، وبُعداً تامًّا عن النظر إلى شيءٍ مِنْ زَهرةِ الدنيا، وكَساه اللهُ لأجل ذلك مِنَ القَبولِ والهيْبَةِ والوقارِ ما يأخذ بالألباب ويلفتُ الأنظار.

ثم قال لي الوالد رحمه الله: وكثيراً ما يَشدُّني ذلك إلى الذَّهابِ لزيارته وطلَبِ دعائِه. وقد حضرتُ ولله الحمدُ عدةَ مرّاتٍ في حلقاتِ الذِّكرِ التي كان يَرأسُها في الزاوية يومَ الجمعة، حيث تَزدحمُ بالوافِدينَ مِنْ طَنْجَة وخارجِها.

وكان الكثيرُ منهم يَجيءُ كلَّ جمعةٍ مشياً على الأقدام مِنْ مسافاتٍ بعيدةٍ لِيتَنعَّموا بِرؤيةِ السَّيِّدِ رحمه الله. وأَنَا أحمدُ اللهَ كثيراً علَى صحبتِكَ وقراءتِكَ على ولدِه سيِّدي عبدِ العزيز، الذي أرَى سلوكَه وأحوالَه طِبقَ ما كانت عليه أحوالُ والدِه رضي الله عنه، نفعنا الله ببركاتهم جميعاً.

---

1 - إنَّ الصوفِيِّينَ في طنجة وغيرِها مِنْ مُدنِ المغرب وقُراه، عندما يقولون: «السَّيِّد»، فإنهم يقصدون القُطب العارف بالله سيدي الحاج محمد بن الصِّدِّيق، والِد صاحِبِ الترجمة.

ثم قال لي: إنني لم أَرَ مثلَ جنازة السَّيِّدِ، لا في طَنْجَة ولا في غيرِها، فقد تَعطَّلَ العملُ في المدينة بِكامِلِها، وشَيَّعتْه البلادُ بأجمعِها، بالإضافة إلى كثرةِ تلامذتِه الذين أتوا مِنْ كلِّ مدن المغرب وقُراه، وذلك بصفةٍ تِلقائيةٍ، بِدونِ إعلامٍ حكوميٍّ طبعاً أو غير حكوميٍّ، لعدم اِنتشارِ وسائل الإعلامِ وقتئذٍ كالتلفزة والراديو، أو وسائلِ الاتصال كالهاتفِ مثلاً، ولا بِترتيبٍ إداريٍّ كما هو الشأنُ في مثلِ هذه المناسبات عند وفاة الرؤساء والحكَّام؛ ولهذا كان الإمامُ أبُو حَنِيفَةَ رضي الله عنه يقول: ((بَيْنَنا وبَينَهُم الجنَائِز)).

وحصل لأول مرةٍ في طَنْجَة، ولَرُبَّما في المغرب كلِّه أَنْ أُقِيمَتِ الصلاةُ علَى الجنازة والجُثمانُ داخِلَ المسجِدِ الأعظمِ عند المحرابِ، خِلافاً لِمَا جَرَى به العملُ في مذهب مالِكٍ، وزِيدَ على ذلك بإقامة حلقةِ الذِّكرِ عليه علَى الطريقة الصوفية المشهورة، في وسطِ المسجد عند المحراب أيضاً. وصار المسجدُ الأعظمُ على كِبرِهِ واِتِّساعِه مكتظًّا بالجمهور الغفيرِ، وهو يَذكرُ اللهَ بِوجدٍ وخشوعٍ وبكاءٍ.

ولَمَّا عُدنا بالسيِّدِ رحمه الله إلى الزاويةِ، لم نكَدْ ندخل إليها حتَّى ترامَى الناسُ على النعشِ يُريدونَ تَكسيرَهُ وأَخْذَ أجزائِه لِلتبرك، وما اِبتعدوا عنه إِلَّا بِشِقِّ الأنفس، أَمَّا السَّجّادةُ التي فُرِشَتْ تحتَ جُثمانِ السَّيِّدِ فقد مُزِّقتْ، وتخاطَفَ الناسُ عليها لأَخْذِ أجزائِها.

وقد قال لي مراراً صاحبُ الترجمة: "إِنَّ محبَّةَ والِدِكَ في الشرفاء وعظيمَ مودَّتِه لهم، قَلَّ نظيرُها اليومَ، وهي تُذكِّرني بِمحبَّةِ السلفِ الصالح رضي الله عنهم".

ولأجل هذا، كان صاحبُ الترجمة يُكرِمُنا بزيارته للاطمئنان على صحَّةِ الوالد رحمه الله، الذي كان يُكِنُّ لِسيِّدي عبدِ العَزيزِ محبَّةً عظيمةً، ويحيطه بكلِّ أنواع الاحترام واالتقدير، لِمَا يشاهده فيه مِنَ الأخلاق النبوية والسيرةِ المحمديةِ، وكلما عانَقه وقبَّله إِلَّا وعَيْناهُ دامعةٌ مَحبَّةً في الله فِيه.

وقد شاء الله، والحمد لله، بِأَنْ جعل آخرَ عيادةٍ قام بها سيِّدي عبدُ العَزيز لِوالدي، تَكونُ في نفس اليوم الذي فارق فيه هذه الدنيا رحمه الله، وهو مساء يوم السبت 19جمادى الأولى عام 1400،الموافق 5 أبريل سنة 1980، وإستمرتْ مِنَ الخامسة مساءً إلى بعد صلاة المغربِ، أيْ بعد الثامنة، حيث ودَّعه بعناقٍ وحرارةٍ وقُبلاتٍ زائدةٍ على المألوف، وكأنَّه علِمَ بقرب أجلِه.

وفعلاً لم تمضِ على مفارقة صاحبِ الترجمة لنا سِوَى أقل مِنْ ثلاث ساعاتٍ حتَّى إنتقل والدي رحمه الله مِنْ دار الفناء إلى دار البقاء، وكان الوقت بالضبط الحادية عشرة ليلاً، بعدما ظلَّ طيلة ذلك اليوم وقَبْلَه بِيومين لا يَفترُ لِسانُه عن تَرديدِ قولِه تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، دون أنْ يَسمعَ مِنْ أحدِنَا تِلاوةَ ذلك. وكان يردِّدُ هذه الآيات بصوتٍ مرتفعٍ وبِوَجدٍ وخشوعٍ حتَّى يُجهد نفسَه كثيراً، ويَنْصبَّ عليه العَرَقُ بكثرةٍ مِنْ جَبينِه، وعندما أقولُ له: لا تُجهِدْ نَفسَكَ، ويُمكِنُكَ أَبِي قراءةَ هذه الآياتِ بصوتٍ منخفضٍ. فَينظر إليَّ مبتسماً ويقولُ: الحمدُ والشكر لله. ويَصيرُ يُكرِّرها عشراتِ المرَّاتِ وبصوتٍ مرتفعٍ أيضاً حتى يجهِد نفسه كذلك، ثم بعد بضع دقائق مِنَ الصمت يستريحُ فيها قليلاً، يعود رحمه الله إلى ترديد قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ بنفس الإجهاد.

وعلى هذا الحالِ بِفضلِ الله ورحمتِه فاضت روحُه إلى الله، ولسانُه رحمه الله رطبٌ بِذكرِ الله.

نسألُ اللهَ أَنْ يَرزقنا الثباتَ، وأنْ يُهوِّنَ علينا ما لِلموتِ مِنْ سَكراتٍ، ويتوفَّانا إليه سبحانه وهو راضٍ، ونحن غيرُ مفتونين.

ولستُ أنسَى في مرضِ الوالدِ رحمه الله، أنني كنتُ أطلعتُه علَى أولِ مقالةٍ كتبتُها لِمجلَّةِ "الجماعة" الإسلامية الرائدة، التي أصدرها الأخُ المجاهد، الداعية الزاهد، الشيخ عبدُ السلامِ ياسين، بعنوان: "أينَ هي رابطةُ العلماء؟"، وتمَّ نشرُها في حلقتين بالعددَيْنِ الرابع والخامس، بتاريخ محرم، وربيع الثاني، سنة 1400هـ.

ولـمَّا قرأتُ عليه الـمَقالَ بكاملِه، ظَهَر عليه فرحٌ كبيرٌ، وزاد فرحاً وسروراً عندما أطلعتُه علَى الموضوعات التي كنتُ أُفكِّرُ في الكتابة فيها، وقال لي: الحمد والشكر لله الذي حقَّقَ لي ما كنتُ أطلبُ مِنْ أَنْ يجعلَ اللهُ مِنْ أولادي مَنْ يشتغل بالعلم في مرضاة الله، ويكون ممن وفَّقهم اللهُ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالحمد والشكر لله. ثم دعا لي رحمه الله كثيراً، وخَتَمَ دعاءَه بِقولِه تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وهُوَ أرْحَمُ الراحِمينَ﴾، ﴿وَإِن يُرِدْكَ ٱللَّهُ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾.

والذي دعاني إلى كتابة مقال: «أين هي رابطة العلماء؟»، هو إعتقالُ صاحبِ الترجمة وشقيقِه العلَّامة المحقِّق، المحدِّث الحافظ، أستاذِي الدكتور السيد عبدِ اللهِ بنِ الصِّديق، حفظهما الله، مع جماعةٍ مِنَ الإخوان، بسبب عمَلِهِم بالحكم المتَّفقِ عليه بين جمهور العلماء والفقهاء، لا فرق بين المالكية وغيرِهم في وجوب الصِّيام إذا رُئِيَ الهلالُ في أيِّ بلدٍ مِنَ البلاد الإسلامية. فقام بعضُ رجال الإدارة ولَفَّقوا على هذا العمل تُهمةَ الإخلالِ بالأمنِ، فَزَجَّ بهم في السجن مِنْ أجل ذلك، بعد ما مكثُوا في قسم البوليس يوميْنِ مع السكارَى والبغايا واللصوص، بِدونِ أدْنَى، أدْنَى ملاحظةٍ لِعُلُوِّ مكانتِهم العلمية، ونَسبِهِم الشريف، الأمرُ الذي لا يوجد في أيِّ أمةٍ مِنَ الأُمَمِ.

فكتبتُ لأجل هذه الوضعية الـمُزريةِ مقالةً ذكرتُ فيها الواقعةَ بِتفصيلٍ، وذكرتُ مُلابساتِها الـمُنافيةَ لِتعاليم الإسلام، وحتى للقانون الوضعيِّ الذي تَمسَّكوا به في هذه القضية، حيث وجدوا نصوصَه لم تُساعدْهُم فيما لفَّقوا، وأبْرَمُوا. الأمر الذي إحْتار معه القضاةُ كيف يَحكمون؟ لأنهم لم يَجدوا في القانون ما يُساعدُهم على بناء حُكْمِهِم.

وقد كان لِلمقالِ وَقْعٌ طيِّبٌ في وسط أهل الرابطة المنصفِين، وأحسُّوا بأنهم أخطأوا العملَ بسكوتِهم الـمُشين، وخرجوا عن السبيل الذي يجب عليهم -بِصفتِهم علماء- أنْ يقوموا به نحو هذه القضية التي هي عِلميةٌ صِرفة، ولا تَمُتُّ إلى القانون بِصِلةٍ، ولا إلى الإخلال بالأمن بسببٍ مِنَ الأسباب.

كما كان لِاعْتِقالِ العالِمَينِ العملاقين الجليليْنِ وجماعةٍ مِنَ الإخوان، صدًى سيِّئًا، وردُّ فِعلٍ كبيرٍ في العالم الإسلامي، وحتى بين الجاليات الإسلامية المقيمة في أورُوبا، فكتبوا في التشنيع على ذلك في مختلف المجلات والصحف، وأرسلُوا برقياتِ الاستنكار والاحتجاج إلى جهاتٍ مختلفةٍ في المغرب. فكَشفَ الله بذلك عَورةَ الدَّسَّاسينَ الحاقدين، حيث ثَبَتَ أَنَّ بعضَ المسؤولين المُنصفِين اِعترفوا بِخطإِ تصرُّفِ رجلِ الإدارة في هذه المسألة وقالوا: إنَّه غَرَّنا حيث لم يُبيِّن لنا أصلَ القضية على حقيقتِها، وبذلك عاد مَكرُه السيِّءُ عليه، ولا يحيق المكرُ السيِّءُ إلَّا بأهلِه، ووقع في حفرتِه التي حفرها للعلماء المُخلصين الأشراف. ولم تمرَّ عليه إلَّا شهور قليلة حتى نُكِبَ نكبةً مُشينةً، وفُضِحَ فضيحةً عظيمةً، وأُبْعِدَ عن وظيفتِه طريداً شريداً، وقضَى في داره مدةً مقيماً تحت قانون الإقامةِ الإجباريةِ.

وهكذا جزاء مَنْ يعتدي علَى العلماء الصادقين، لأَنَّ اللهَ يُدافع عن الذين آمَنوا، وفي هذا عبرة لِأُولي الأبصار.

هذا، وأريد أَنْ أُشيرَ أَنَّ كتابتي لِمَقال: "أين هي رابطةُ العلماء؟"، لا تَرجع فقط إلى أوثقِ عُرَى المحبة التي تجمعني مع صاحب الترجمة، وإنما تَرجع أيضاً إلى تربية والدِي، رحمه الله، لنا منذ الطفولة علَى محبَّةِ العلماء، سِيَّما الشرفاء منهم، حيث كانت أبرزَ صفاتِه حبُّ العلماء، وإجلالُهم وإكرامُهم، خاصة مَنْ كان منهم مِنْ أهل البيت.

لهذا كانت تربيتُه لنا، جزاه الله عنا كل خيرٍ، الحافزَ القويَّ والدافعَ المُلِحَّ في كتابة هذا المقال، وقوفاً مع الحق، والْتِزاماً بِالصَّدعِ بما أَمَرَ اللهُ، وابتغاءَ مرضاة الله.

ولن أنسَى وصيَّةَ الوالد رحمه الله، التي وصَّانا بها قبل وفاتِه بِنحو أسبوعين، حيث المَشهد لا زال أمامي وكأنَّه هذه الساعة: فقد كُنتُ والوالدة حفظها الله، وجميع الإخوان، نُحيطُ بالوالد وهو يَستفيقُ مِنْ غيبوبةٍ، فلمَّا لاحَظَ علينا أثرَ البكاء

والفزع، قال رضي الله عنه: أُثْبُتوا واصبِرُوا، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون. أُوصيكُم بثلاثـةِ أمور:

أوَّلاً: حافِظوا على الصلاة في أوقاتها، ولا يَشغلْكُم عنها أيُّ شيءٍ. فإنْ حافظتم عليها سيحفظكم الله في الدنيا والآخرة، وإذا لم تحافِظوا عليها فليس لكم عند الله عهدٌ. وكُونُوا دائماً في أُلفَةٍ ومودَّةٍ بينكم.

ثانياً: خُصُّوا آلَ بيتِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم بِعظيمِ المحبة وفائقِ الإكرام، واعْلَمُوا أَنَّ مَنْ لَمْ يَجِدْ محبَّتَهم في قلبِه فهو لم يَجِدْ بعدُ طعْمَ الإيمان، لأَنَّ في محبتِهم حبَّ الحبيب مولانا رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم. وأنتم تَرونَنِي دائماً كيف أكونُ في غاية الفرح والسرور يوم يَدخلُ عليَّ مَنْ ينتسب إلى سيدِنا النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا مِنْ فضْلِ اللهِ العظيمِ عليَّ. فلِلَّهِ الحمدُ والشكرُ.

ثالثاً: اِلْزَمُوا الصِّدقَ ولو في أحرجِ الظروف، واجعلُوا دائماً نَصْبَ أَعْيُنِكُمْ قولَ الله تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾، ولْتَكنْ دائماً أقوالُكم وأعمالُكم مَبنِيَّةً علَى الصدق والإخلاص لله. واللهُ سبحانه وتعالى يتولَّاني ويتولَّاكم ويتولَّى جميعَ المؤمنين بِحِفظِه ورحمتِه، ويجعلنا مِنَ الذين قالوا ربُّنا اللهُ ثمَّ اِستَقاموا، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

ثمَّ اِفْتتح رحمه الله فاتحةَ الكتاب وقرأناها معه، وختمْنا بالصلاة الإبراهِيمِيَّةِ علَى مولانا رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فصل

قال لي صاحبُ الترجمة حفظه الله:

"ومِنْ مِنَنِ الله تعالى عليَّ أنَّه يُعامِلني في أمور الرزقِ كما كان يعامل به نبيَّهُ المختارُ صلى الله عليه وآله وسلم.

فتارةً يوجَدُ عندي منه الكفايةُ وما يزيد عليها، وتارةً أقضِي ما أحتاجُ إليه بِالدَّيْنِ والسَّلفِ. وبهذا يتمُّ لِلعبدِ الوقوفُ في مقامَيْ: الشكر والصبر، وتَبعُدُ نفسُه عن البَطَرِ والإعراضِ عن الله تعالى، ويَدوم القلبُ في مشاهدةِ الجمال والجلال، فيَخشعُ ويخضعُ ويَلِينُ ويَطمئنُّ.

وقد يأتي عليَّ وقتٌ يَكونُ لي فِيه مِنَ الملابس عددٌ كثيرٌ منها، ويأتي وقتٌ آخر لا يُوجَدُ عندي ما أُغَيِّرُ ما اِتَّسخَ منها. والحمدُ لله..".

وهنا قال لي: "إِنَّني الآن قد أَدَّيتُ فريضةَ الحجِّ ثلاثَ مراتٍ، واِعْتمرْتُ مرّاتٍ بِدُونِ سَعْيٍ لي في ذلك، وإنما هو بِمَحْضِ فضْلِ الله، وكرَمِ الله وإحسانِه. لِأَنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً﴾.

فلمَّا كان وللَّه الحمدُ اِستنادي إليه في أمْرِ الرزقِ والمَعاشِ مُمَحَّضاً في التعلُّقِ به سبحانه، والاعتمادِ عليه، عاملَنِي سبحانه وتعالى بِمقتضَى هذا الاعتقاد، فَسخَّرَ لي ما لا يُعطِيه لِأَحدٍ مِنْ ذَوِي اليَسارِ، لا في الحِلِّ ولا في الترحال، وفي كلِّ حجَّةٍ وعُمرةٍ كُنتُ أذهبُ إلى الحرمين إلَّا وأجدُ مِنَ الإكرام والاعتناءِ، وتَيْسيرِ جميعِ وسائلِ الراحة والرفاهية، مَسكناً ومأكلاً، ومركباً، ما لا يُدركُه ذَوُو الطَّوْلِ والمالِ العَريضِ، بل غيري مِنَ الناس يَلْزمُنِي لِيَشمَله ما أكرمني اللهُ به.

بحيث كان كلُّ مَنْ يصاحبني في رحلتي إلى الحرمين الشريفين، أو في جدَّة مثلاً، سواء كان مغربيًّا أو مِنْ أهل البلاد الإسلامية الأخرى، إلَّا ويُكْفَى جميع ما

يَهمُّه مِنْ مصاريف الركوب والإقامة، وجميعِ ما يحتاج إليه مِنْ مهمةِ السفر. وكلُّ هذا بكرمِ اللهِ سبحانه وتعالى، لأنَّه إذا أعطَى أغْنَى، ومع مَنْ تَكونُ بِحالِه تَكون.[1] وهذا كما قلنا بدون سعيٍ ولا طلبٍ.

ثم قال لي: لا أعلمُ منذ أدركتُ إلى الآن، أنني طلبتُ مِنْ أحدٍ طلَباً يتعلَّق بالدنيا ولو بالإشارة والتلويح، اِكتفاءً بِعِلم الله، مع أنَّه قد تأتي عليَّ ظروفٌ يَجوزُ شرعاً التصريحُ بذلك، ولكن يقِيني في الله سبحانه وتعالى يَمنعني أَنْ أسعَى في شيءٍ أراه مخالفاً لِمَا عقدتُ عليه قلبِي، مِنَ التعلق بالله سبحانه وتعالى وحده، والاكتفاءِ بما

---

1 - يضاف إلى هذا إقامةُ الحفلات والعُزومات مِنْ جانب علماء الجامعة، في الحرمين الشريفين، في الغذاء والعشاء، حتى إنَّه في بعض الأيام يَضيق الوقتُ عن إجابة الجميع، فيأتي العالِمُ أو الدكتور بمصروف الحفلة هديةً، حيث لم يتمكن مِنْ إقامة الحفل في داره. وفي بعض المرَّات كنتُ بالمدينة المنورة في شهر ربيع الأول، وعمل صاحبُ «الأوطيل» الفخم الذي كنتُ نازلاً فيه حفلةَ المولد النبويِّ، وحرص على أَنْ أَحضرَ الحفلةَ، فلمَّا حضرتُ طلب مني العلماء الحاضرون إلقاء كلمة بالمناسبة. فتكلمتُ بما فتح الله تعالى به، وأُعْجِب الجميعُ بما ذكرتُه مِنْ معجزات رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكانوا مِنْ أقطار شتَّى، وأغلبُهم مِنْ دِمَشق، وحَلَب. وحصل لهم وجْدٌ عظيمٌ حتى صار بعضُهم يَبكي. ولمَّا اِنتهيتُ، قاموا كلهم بإلقاء الخطبِ بالثناء على حديثي. وفي الأخير، أتَى صاحبُ «الأوطيل» فرِحاً مسروراً ومعه هدية عظيمة، ولم يَقْبلْ ما يَستحقه مِنْ ثمن الإقامة في «الأوطيل»، مع أننا كُنا جماعةً بحيث كان يجب له قدرٌ كبيرٌ مِنَ المال. وكلُّ هذا مِنْ فضلِ الله تعالى وإحسانِه، وجُودِه وسِترِه لي، وإلَّا فلو كَشف الله تعالى لهم حالي لَنَبذوني نَبْذَ النَّواة. فلله الحمد والمِنَّة على ما أنعَمَ.
وأمَّا الكُتب، فلا أعلمُ أنِّي دفعتُ فِلساً في كتابٍ، كبيراً كان أو صغيراً، فكلُّها تأتيني هديةً، حتى أنِّي أترك بعضَها هناك لِثِقل حمْلِها، وقد تركتُ لِبعض مَنْ يلازمني مِنَ الكُتب ما لا يستطيع شراءَه.
وكذلك هدايا الأهل، ما كنتُ أشتري منها شيئًا مطلقاً، وإنما هي مِنْ شراء المحبِّين المخلصين، حتَّى أَنَّ بعضَهم يأتي بالحِليِّ. وكان المكان الذي أنزل فيه يصيرُ مورداً للداخل والخارج، من العلماء وأساتذة الجامعة، وطلبة العلم من مختلف الأقطار الإسلامية.
وكلُّ هذا أذكره مِنْ باب التحدث بنعم الله تعالى عليَّ، والتحدث بها شُكرٌ وأنَّ الله تعالى يعاملني به فضلاً وجوداً وإحساناً. ولو ذكرتُ المِنَنَ التي منَّ بها الله تعالى عليَّ لَاحْتاج الأمرُ إلى طولٍ. ولكن سأخصص تأليفاً خاصًّا إنْ شاءَ الله تعالى، وقد أَلَّف أئمةٌ سابقون في هذا الباب كُتباً ذكروا فيها المنن التي منَّ الله تعالى بها عليهم. (هذه إضافات أضافها على حاشية الأصل الشيخ سيدي عبد العزيز بن الصديق رحمه الله تعالى، بِخطِّه).

قدَّر في الأزَلِ وصولَه إليَّ.

وبسبب هذا التعلق الذي أعطاني الله وأكرمني به سبحانه وتعالى، جعلني لا أنظرُ إلى مخلوقٍ بِصورة الإكرام لأجلِ نَوالِ ما عنده، وَالحصولِ على ما يتصرف فيه.

وقد وقع لي أَنْ قابلتُ المُلوكَ والناسُ أمامِي يَركعون ويُقبِّلون الأيدي، ويتسارعون إلى ذلك لِظَنِّهم أَنَّ في ذلك منفعةً دنيويةً والحصول على ما يُؤمِّلون مِنْ مراتب ومزايا دنيوية، وأنا لم أزِدْ في ذلك كلِّه على المصافحة العادية التي أقابلُ بها الرجلَ العادي في الشارع.

وفي هذه الأثناء، أَكونُ أحدِّثُ نفسي بأنني لا آملُ مِنْ هذا الشخص ولا أرجو منه نفعاً، واليأسُ منه ومما في يده أعظمُ في نفسي مِنَ الرجاء، فلماذا إذن أخرجُ عن عادتي وأخصُّه بمقابلةٍ دون سائر الناس؟ فلهذا أثْبُتُ في ذلك الحين وألْزَمُ ما هو سلوكي في مجاملة العامَّةِ.

وكذلك مما منَّ الله به عليَّ، عدمُ النظر إلى أهل الدنيا والجاهِ فيها بِعَينِ التعظيم والإكرام، ولم يجعل في قلبي كِبْراً، وفي نفسي تعاظماً على أحدٍ مِنْ خلقِه كيفما كان حالُه. ولا أرَى لِنفسي مزيَّةً ولا خصوصيةً على أحدٍ، لأنَّ عِلمي بنفسي وما أنا عليه يَدعني أنْ لا أرَى أحداً بعين الاحتقار.

وهكذا ينبغي لمن يخاف على نفسه، أنْ يكونَ دائماً على نفسِه لا لَها، ولا يُعطيها المزيةَ على الناس لِئَلَّا يعاقبه الله سبحانه وتعالى بأنْ يلجأَ إليهم، حيث اِحتقرهم وتَكَبَّر عليهم، ولهذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**بِحَسبِ المَرءِ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أخاهُ المُسْلِمَ**».

ولهذا لم يجعل الله في قلبي الحسدَ والحقدَ على أحدٍ مِنَ الناس، ولا أتمنَّى لأحدٍ الشرَّ وزوالَ ما فيه مِنْ نعمةٍ، ويكفِيني مِمن يُؤذِيني أَنْ أراه مُعْرضاً عن ربِّه، خائضاً فيما لا يَعنِيه، غيرَ مُقبِلٍ علَى ما يَنفعُه في آخرتِه، فذلك أعظمُ عقوبةً عندي، كما ورَدَ: «**كَفاكَ مِنْ عَدُوِّكَ قِلَّةُ دِينِه**». وأما حالُه مِنَ التوسعة ووُفورِ

النِّعمة فلا يَهمنِّي النظرُ إليه، لِمَا أعلمُ مِنْ زوال ذلك عمَّا قريب بالموت، وعدمِ نفْعِه له في الآخرة بالمرة مع عدم الاستقامة والرجوع إلى الله تعالى، كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «**إنَّ الدِّينَ لا يُعْطِيهِ اللهُ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، وأمَّا الدنيا فَيُعطِيها اللهُ لِمَنْ يُحِبُّ وَلِمَنْ لا يُحِب**».

وكذلك أكرمني الله تعالى بعدم تَتَبُّعِ عورات الناس والاطِّلاعِ على أسرارهم وما غاب عنِّي مِنْ أحوالهم، حَسَنِها وسيِّئِها، لأنَّ ذلك مِنْ حُسنِ إسلام المرء؛ وبِعَدم نظري إلى الناس وملاحظتِهم مِنْ ناحية التجمُّلِ وتحسين الثياب عند الخروج والاجتماع بهم. ورجالُ هذا الوقت يَتصنَّعون في الزِّينة كما تتصنَّع النساءُ، وهذا مِنْ وَهَنِ النفس وضُعفِها ووقوفِها مع العوائد المانعةِ لها عن التَّرقِّي في مدارج الروحانيات والخروج من ظلمات النفس..".

وقد حكَى لي أنَّ أخاً له كان يمشي معه، قال له مرةً: هل تستطيع المشيَ حافياً إلى المكان الفلاني؟ وكان يظنُّ أنَّه لا يستطيع، فما كاد يُتِمُّ كلامَه حتى نزع صاحبُ الترجمة الحذاءَ مِنْ رِجلِه وشرع في السيرِ، مِنْ جامِعِ "مُصلَّى العِيدِ" إلى "الجامِعِ الجدِيد"، وكان هذا حوالي سنة 1370هـ.

والعجبُ في هذا، أنَّ السائلَ لمَّا رأَى صاحبَ الترجمة يَمشي حافياً في الطريق لم يستطع أَنْ يُتابعَ السيرَ معه، وفارقه في الحين إلى أَنْ تَقابلَ معه في المحلِّ المُعيَّن فيه الاجتماع بجانِبِ "الجامع الجديد"، وقد مرَّ حافياً على أهمِّ طرق وشوارع المدينة وأسواقها، الأمرُ الذي كان مَثارَ عجبٍ لِمَنْ عَلِمه. والحمد لله على فضلِه.

وزاد يحدثني عمَّا أكرمه الله به فقال:

"وأكرمني اللهُ سبحانه وتعالى بالسخاء والكرم، والجودِ بما أملِكُ مع الحاجة إليه. وقد كنتُ في مِصْرَ أَصِلُ أصحابي وأهلَ الفاقَةِ بِما في يدي مِنَ المال مع شدَّةِ الحاجة إليه. لأَنَّ البلَدَ بلدُ غربةٍ، وحالُ الغريب في ذلك معلومٌ، ومع ذلك كنتُ أُوثِرُ ذَوِي الحاجة مِنَ الأصحاب وغيرِهم عن نفسي، لاسيما ذَوُو العِيال منهم. وقد

كان بعضُ الأصدقاء يَطَّلِعُ على ذلك منِّي، فَيَعجبُ مِنْ سماح نفسي بِبَذْلِ مِثل ذلك لهم، ويَطلُبُ منِّي التقصيرَ عن ذلك، فأقول له: ليس لي مِنَ الأمر شيءٌ، وإنَّما هو رزقُ الله يَصِلُهم علَى يدي، والحمدُ لله الذي جعلني واسطةً في وصولِه إليهم.

وفي هذا وَرَدَ عن الرسول عليه الصلاة والسلام: «**طُوبَى لِمَنْ جَعَلَهُ اللهُ مِفْتاحاً لِلْخَيْرِ**»، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ: اَلرَّجُلُ يَكُونُ لَهُ دِرهَمانِ، فَيُعْطِي واحِداً وَيُمْسِكُ الآخَرَ؛ وَالرَّجلُ لَهُ مالٌ كَثيرٌ فَيَأْخُذُ مِنْ عَرَضِهِ مِائَةَ أَلْفِ دِرهمٍ**».

قال: ومما يُبشِّرني بِقَبولِ ما يُظهِرُهُ اللهُ علَى يدي مِنْ إحسانٍ وخدمةٍ لِكثيرٍ مِنَ الناس في قضاءِ حوائجِهم، والسعيِ في تَوظِيفِهم حتَّى نال البعضُ منهم المناصبَ والمراتبَ الإداريةَ المهمةَ، مع اِقْتِناءِ المالِ الكثيرِ الذي ما كان يَحلُمُ به، أَنَّ اللهَ تَعالى يُنْسِي هؤلاء الناس معروفي وخدمتي، ويَكْفُرون بِإحساني ويقابلونه بالإعراض بل بالإساءة، وإلى هذا يُشير قولُه تعالى: ﴿**وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾".

وقد ذَكَر بعضُ رجال السَّلف في هذه الآيةِ أنَّها تُشيرُ إلى أَنَّ العملَ الصالحَ المقبولَ مِنْ صاحِبِه يَرفعُه اللهُ فَلا يَبقَى له ذِكرٌ في الأرض، حتَّى ممن وَصَلَ إليه أَثَرُهُ؛ كما حصل لِصاحبِ الترجمة مع كثيرٍ ممن أحسن إليهم وسعَى في صلاح حالهم المالي، وفي هذا أيضاً فضلٌ عظيمٌ مِنْ جهةٍ أخرى، فإِنَّ الرسولَ عليه الصلاة والسلام يقول: «**رَحْمةُ اللهِ علَى المُكَفَّرين**».

فالمؤمنُ الذي يُكْفَر معروفُه مرحومٌ بشهادة الرسول عليه الصلاة والسلام، وكذلك مَنْ يُكفَرُ معروفُه يكون له في ذلك دلالة على إيمانه لِقَولِ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**اَلْمُؤمِنُ مُكَفَّر**».

وحكَى لي صاحبُ الترجمة أَنَّ الكثيرَ ممن أحسنَ إليهم لم يَكْفِهم نِسْيانُهم لِمعروفِه، بل زادوا علَى ذلك الإساءةَ إليه. وعلَى هذا كان حالُ كِبارِ رجالِ السلف رضي الله عنهم، وكانوا يَفرحون بهذا إذا وقع لهم، لِمَا في ذلك مِنَ الفضل الذي ذكرناه.

ومِنْ أحوالِه التي أخبرني بها، أنَّه كانت له رغبةٌ عظيمة منذ الصغر في اِقْتناءِ الكتب، وهو لا زال في (المْسِيدْ). وكانت له كُتبٌ لم تكن عند كثيرٍ مِنْ عُلماءِ الوقت، حتَّى كان بعضُهُم يعيرُ منه ما يحتاج إلى ذلك.

فاِقْتنَى كُتباً في التفسير، والحديث، والفِقه، والسيرة، واللغة، والتاريخ، وغيرِ ذلك مِنَ الفنون.

قال: "وكان والدِي رضي الله عنه يُسَرُّ بِما يراه فِيَّ مِنَ الإقبال علَى اِقتناء الكتب، وبذْلِ المال في شِرائِها، مع الاعتناء بها وتجليدِها، وقد أخذ منِّي رضي الله عنه كُتباً كثيرةً أَعجَبَتْهُ، وأعطاني كُتباً أخرى بَدلَها مِنْ مكتبتِه. ولم يَزَلْ شأني على هذا الأمرِ إلى الآن، حتَّى مُدَّةَ إقامتي في مِصْرَ، حيث كان الإنسانُ في اِحْتِياجِ صَرْفِ ثمنِها فيما يَهُمُّ مِنْ أمور المعيشة، ومع ذلك كُنتُ أشتري الكتبَ وأَدَعُ ما أحتاج إليه مِنْ ذلك.

وكُنتُ وأنا صغيرٌ ـ يقول الشيخ ـ أَبحثُ في مكتبةِ مَنْ أزوره مِنْ أهل العلم، ويُعجِبني الاطِّلاعُ علَى ما في مكتبتِه مِنَ الكتب. وقد كانت في زاويتِنا مكتبةٌ صغيرة، فكُنتُ دائماً بعد فراغي مِنَ «المْسِيدْ» أذهب إليها وأُقلِّبُ أوراقَ كُتبِها، وأقضِي وقت الفراغ في الاطِّلاعِ عليها. وقد كتبتُ على كثيرٍ منها أسماءَها، وأسماءَ مؤلِّفِيها، لأنَّ الغالبَ منها كان بخطٍّ مغربيٍّ، والمغاربةُ لا يَضعونَ في الكتب التي يَنسخونَها أسماءَها، وأسماءَ مؤلِّفِيها في مقدِّمتِها كما هي عادة المَشارقة، فلا يُمكِنُ معرفةُ اِسْمِ الكتاب إلا بعد قراءة الخطبة كلِّها.

ولَمَّا كنتُ بِمِصرَ، كنتُ كثيرَ التردُّدِ جدًّا على دكاكين بيْعِ الكتب، والسؤال علَى ما ظهر مِنَ المطبوعات الجديدة، لا سيما منها ما كان في علم الحديث. ولا يَمرُّ عليَّ يومٌ بدون المرور علَى دكانٍ مِنْ دكاكين بيْعِ الكتب، والتنقيبِ على الغرائب منها، ومعرفةِ ما فيه مِنَ الكتب، وهذا حالي في كلِّ بلدٍ أدخلها، فلا بُدَّ مِنْ أَنْ أزورَ فيها محلَّاتِ بيْعِ الكُتبِ وشراءِ ما أحتاجُ إليه منها.

وكذلك لَمَّا كنتُ بِمِصْرَ، كُنتُ أُكاتبُ شقيقِي أبَا الفَيْضِ في طَنْجَةَ في المسائلِ الحديثِيَّةِ، وما يشكل عليَّ منها في بعض الأحيان، لِمَا له مِنَ الخبرةِ والمعرفةِ الكاملةِ بِمسائلِ هذا العلم وقضاياه، وما له فيهِ مِنْ مُصنَّفاتٍ مفيدةٍ للغايةِ؛ قرأتُ منها العدد الكثيرَ وانتفعتُ بـه.

وقد قرأتُ مِنْ كُتبه رحمه الله: -كتاب "اَلْمَثْنُوني والبَتَّار في نَحْرِ العَنيدِ المِعْثارِ الطَّاعِنِ فِيما صحَّ مِنَ السُّنَنِ وَالآثار"، ردَّ فيه علَى كِتاب الخَضِرِ الشِّنْقِيطِي في إنكارِ سُنِّيَّةِ القَبضِ في الصلاة علَى مذهبِ الإمامِ مالِكٍ، وهو في جُزءين -أعني كتابَ أبِي الفَيْضِ-، لكنْ لم يُطبع منه إلا الجزءُ الأولُ في مجلَّدٍ.

- وقرأتُ كتابه: "فَتْح المَلِكِ العَلِيِّ بِصِحَّةِ حديثِ: باب مدينَةِ العِلْمِ عَلِي" ثلاثَ مراتٍ.

- وقرأتُ كتابه: "تَشْنِيف الآذَانِ في اِسْتِحباب سِيَّادَتِهِ صلى الله عليه وآله وسلم في الإقامَةِ والأَذان".

- وكتابَه: "البُرهان الواضِح الجلِيّ في تحقيق اِنْتِسابِ الصُّوفيَةِ إلَى علِيٍّ".

- وكتابه: "إبْراز الوَهْمِ المَكنونِ مِنْ كلامِ اِبْنِ خَلدون"، ردَّ عليه في إنكاره لحديثِ المَهْدي، وقد طُبع عام 1347 هـ بِدِمشْقَ.

- وكتابه: "الاستِعاذَة والحَسْبَلَة مِمنْ صحَّحَ حديثَ البَسْمَلَةِ".

- وكتابه: "إرْشاد المُربعِينَ لِطُرقِ حديثِ الأَرْبَعِين".

- وكتابه: "شَوارِق الأنْوَارِ المُنِيفَةِ بِظُهورِ النَّواجِدِ الشَّريفة".

- وكتابه: "الحَنِين بِوَضْعِ حديثِ الأَنِين".

- وكتابه: "دَرْء الضَّعفِ عن حديثِ مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ"، ردَّ فيه علَى اِبْنِ القَيِّمِ في طعْنِهِ في صحَّةِ هذا الحديث في كتابِه "الهدْي النَّبوي"، وقد أجاد فيه غايةً.

- وكتابه: "الإِفْضال وَالمِنَّة بِرؤيةِ النِّساءِ للهِ في الجَنَّةِ".

- كما قرأتُ لِشقيقي أَبِي الفَيْضِ كتابَه: "الـمُغِير علَى الأحاديث الموضوعةِ في الجامِع الصَّغير".

- وكتابه: "مُسنَد الجِنِّ"، ذَكَر فيه الأحاديثَ المرويَّةَ مِنْ طريقِ الجِنِّ، مِثل شَمْهارُوش وأمثاله.

- وقرأتُ له كتاب "هَدِيَّة الصُّغراء إلى تصحيح حديث التَّوسعةِ يوم عاشوراء".

- وكتاب "تَبْيِين البُلْهِ مِمَّنْ أَنْكَرَ حديثَ: وَمَنْ لَغَا فَلا جُمعَةَ له".

- وكتاب "الـمُؤانَسَة بِالـمَرفُوعِ مِنْ حديثِ الـمُجالَسة".

- وتَآليفه في الأحاديث المتواترة، وهي نحو سبعة عشر كتاباً.

- وكتابَ "إزالَة الخَطَرِ عَمَّنْ جَمَعَ بين الصَّلَاتَيْنِ في الحَضَرِ".

- وكتاب "إِحْياء الـمَقْبورِ بِاتِّخاذِ الـمَساجِدِ علَى القُبور".

- وكتاب "صَفْع التَّيَّاهِ بِإِبْطالِ حديثِ: لَيسَ بِخَيرِكُمْ مَنْ تَركَ دُنياه".

- وكتاب "وسائل الخلاص مِنْ تحريفِ حديثِ: مَنْ فارَقَ الدُّنيا علَى الإخلاص".

- وكتاب "الإجازة لِلتَّكبيراتِ السَّبعِ علَى الجنازة".

- وكتاب "شَدّ الوَطأَةِ علَى مُنْكِرِ إمامَةِ الـمَرأَةِ".

- وكتاب "إظْهار ما كان خَفِيّاً مِنْ بُطلانِ حديثِ: لَوْ كان العِلْمُ بِالثُّرَيَّا".

- وكتاب "إِيَّاكَ مِنَ الاغترارِ بحديثِ: اِعْمَلْ لِدُنياك".

- وكتاب "الـمُسْهِم في طُرقِ حديثِ: طَلَبُ العِلمِ فريضةٌ على كلِّ مُسلمٍ".

- وكتاب "الأخبار الـمَسطورة في القراءة في الصلاة بِبَعْضِ السُّورة".

- وكتاب "العِقْد الثَّمِين في الكلام علَى حديثِ: «إِنَّ اللهَ يَبْغَضُ الحَبْرَ السَّمِين»".

- وكتاب "شُهود العِيَّانِ بِثبوتِ حديث: «رُفِعَ عن أُمَّتِي الخَطأُ وَالنِّسْيان»".

- وكتاب "تحقيق الآمَالِ في إخراجِ زكاة الفِطْرِ بِالـمَالِ".

- وكتاب "نَفْث الرّوعِ بِأَنَّ الركعةَ لا تُدْرَكُ بِالركوع".

- وكتاب "العَتْب الإعْلانِي لِمَنْ وثَّقَ صالِحَ الفلاَّني".. إلى غير هذا مِنْ كُتبِه الأخرى التي لا أستحضرُها الآن.

وقرأتُ شيئًا كثيراً مِنْ مُستَخرَجِه على "مُسنَد الشِّهاب" المسمَّى بِالإسهاب، وهو في مجلدين ضخمين، كما قرأتُ الشيءَ الكثيرَ مِنْ كتابه "المُداوِي لِعِلَلِ شَرحي المُناوي" وهو في ستَّةِ مجلدات، وكتاب "مَسالِك الدلالة" الذي شرح فيه رسالةَ اِبْنِ أَبِي زَيْدٍ القَيرواني بالدليل.

ولا يفوتني هنا أَنْ أخصَّ بالذكر كتابَه "فَتْح المَلِكِ العليِّ بِصحَّةِ حديثِ بابِ مدينةِ العِلمِ علِيّ"، فإنَّه مِنَ الكُتب النافعة لِمَنْ أراد التَّضلُّعَ في هذا العِلم، ومِنَ الكتب التي تُكْسِب الخبرةَ والدِّرايةَ بأصوله وفروعه لِمَنْ أَدْمَنَ النظرَ فيه، ولهذا اِنْتفعتُ به كثيراً، وقرأتُه مراتٍ، ولأهميتِه طُبع ثلاثَ مراتٍ، مرتين في القاهرة، ومرة بِطَهران. وقد تعلمتُ منه أموراً مهمةً في علم الحديث، وفَتَحَ لي باباً لا يُفتَح لِكلِّ أحدٍ إلَّا بعد مدَّةٍ مِنَ القراءة والبحث، وذلك الباب الذي فُتِحَ لي بسبب هذا الكتاب هو معرفةُ نقْدِ الأحوال في الرجال، وكيفيةُ الوصول إلى الحكم على سندِ الحديث بالقول السالم مِنْ دسائس الدَّسَّاسِين مِنْ أهلِ الفِرَقِ، وبعبارةٍ أخرى، توصلتُ به إلى الاجتهاد في هذا العلم. وقد صِرتُ ولله الحمدُ أقولُ قولي في سنَدِ الحديث وأنا مطمئنُّ البالِ، طيِّبُ الخاطِرِ، لا تَشوبُ نفسي شائِبة الخوف مِنْ أَنْ أكونَ قُلتُ قولاً تَبِعتُ فيه غيري مِنْ غير دليلٍ ولا برهان.

لأنني أخذتُ مِنْ هذا الكتاب الطريقةَ التي سهَّلتْ عليَّ الاجتهادَ في علم الحديث، والتي وقفتُ بِسَبَبِها على أمور راجَتْ بين أهل الحديث، واِعتقدوا صحَّتَها، واِتَّخذوها مذهباً وقولاً مُسلَّماً لا يَقبلُ الرَّدَّ والنَّقدَ، وهي باطلةٌ مردودةٌ لا تقوم على أساسٍ ولا يَنهَضُ بها دليلٌ ولا تـؤيِّدُها حُجَّة، وإنما اِختلقها رجلٌ ذُو غرضٍ، وزيَّنَها بِزُخرفٍ مِنَ القول، فأخذها عنه مَنْ أخذها مُسلَّمَةً لا نزاع فيها، مِنْ غير نظرٍ إلى دليلٍ ولا برهان، وجاء الآخرُ فأخذها كذلك، وهكذا تسلسل الآخذون

وتسلسل معهم الغلط والخطأ مِنْ غير أنْ ينتبهوا له. والسببُ في ذلك يرجع إلى التقليد وعدمِ الوقوف مع الدليل والبرهان، وتَمحيصِ أقوالِ الرجال قَبلَ أخْذِها والعملِ بها.

وقد حصل بسبب هذا أخطاء وأوهام، وأغلاط شنيعةٌ فِيما سمَّوه عقيدةً، نسأل الله الصَّوْنَ والعافيةَ.

وهناك كُتبٌ أخرى، كان لها أثرٌ كبيرٌ في تكويني مِنْ ناحية علم الحديث، والوقوف علَى خفاياه، الأمرُ الذي لا يُمكِنُ حصوله إلَّا بعد مدَّةٍ مِنَ البحث والتَّتبُّعِ، ومِنْ هذه الكتب كُتبُ التخريج، وفي مقدِّمتِها "تَخريجُ الحَبِير" لِلحافِظِ ابنِ حَجَر، وتخريجُه لأحاديثِ "الكَشَّاف" علَى صِغَرِهِ، وتخريجُ الحافظِ العِراقِي لأحاديثِ "الإِحْياء" علَى اِختصاره.

وقد تبين لي مِنْ بعدُ أنَّه وقع له فيه أوهام بَيَّنتُ بعضَها في بعض المواضيع التي تطرقتُ للكلام فيها حول بعض الأحاديث.

وكذلك اِنتفعتُ كثيراً بقراءة "المُحَلَّى" لِابْنِ حَزمٍ، فقد قرأتُه مرَّتينِ، واِستخرجتُ منه فوائدَ تتعلق بِالعِلَلِ ونقْدِ الأسانيد على طريقة المتقدِّمين.

ومِنَ الكتب التي لَزمْتُ قِراءتَها ومطالعتَها "اللآلي المصنوعة" للحافظ السيوطي رحمه الله، فقد أخذتُ منه معرفةَ جمْعِ الطرق وسَبْرِ المُتابَعات، واِطَّلعتُ بسببه علَى المتون، وتعلَّمتُ منه كيفيةَ الحكم على الأحاديث. ودَرَجَ بي ذلك إلى قراءة كُتبِ التخريج، والكُتبِ المُسندة مِنَ الأجزاء الحديثية وغيرِها، فحصل لي بذلك اِطِّلاعٌ واسعٌ، ووقفتُ في وقتٍ قليلٍ على مسائل كثيرة.

لأنَّ العلمَ عموماً والحديثَ خصوصاً لا يُمكِنُ التفوقُ فيه والتحقق بقواعده المقرَّرةِ إلَّا عن طريقِ التطبيق، وذلك لا يتيسَّر إلَّا بقراءة كُتبِ الحفَّاظِ المُعتَنِينَ بِنَقْدِ الرجال وبيانِ العِلل لِحالِ أسانيد الحديث؛ والكتبُ في هذا الباب قليلةٌ إلَّا النادر، وهو الذي أشرنا إليه مثل "المُحلَّى" لِابْنِ حَزمٍ رحمه الله، وكُتب التخريج،

لأَنَّ مهمَّتَها هي بيانُ حالِ الحديث المذكور في الكتاب الذي وقع عليه التخريجُ مِنْ غيرِ ذِكْرِ راوِيـهِ، فيحتاج المُخَرِّجُ إلى أَنْ يَذكرَ الحديثَ، وَمَنْ رواه مِنَ الصحابة، وبيان عِلَّةِ طريقِ كلِّ صحابِيٍّ ومَنْ رواها.

فهذه هي مهمةُ كُتبِ التخريج، ولأَجْلِها وُضِعتْ، وكِتابُ التخريج إذا خلَا عن هذه الصفة فيكون كالعدم. فلهذا ينبغي لِطالِبِ الحديث أنْ يَكونَ اِعْتناؤُه بِكُتبِ التخريج في الدرجة الأُولَى مما يشتغل به في علم الحديث.

ويضاف إلى هذا أيضاً كُتبُ العِلَلِ، فهي مِنْ أنفَعِ ما يُـقرِّبُ الأَقْصَى مِنْ قواعدِ عِلمِ الحديث لِطالِبِ الحديث، ولهذا وفَّقني الله تعالى للاشتغال بكِتاب "العِلل" لِابْنِ أَبِي حاتِمٍ، فقد قرأتُه مرّاتٍ واِنْتفعتُ به كثيراً. إذْ ليس كلُّ كُتبِ الفنِّ ينبغي الاعتناءُ بها وملازمةُ الاشتغال بها، فبعضُ الكُتب لا يحتاج إليها طالِبُ الحديث إلَّا للمراجعة أو لِلتوسُّعِ في الاطِّـلاع..".

فصل

وقد ظهر أثرُ اِشتغالِ صاحبِ الترجمة بالحديث، وصَرْفِ معظمِ زمانِه بالاشتغال به، علَى مؤلَّفاتِه في علم الحديث خصوصاً، فكلُّ مَنْ قرأها مِنْ أهل العلم في الشرق والغرب أثْنَى عليها ومَدَحَها وبالَغَ في الإطراءِ والتنويهِ بها.

وقد سمعتُ في هذا الموضوع شيئًا كثيراً، وفي مقدمة هؤلاء شقيقُ صاحبِ الترجمة أبُو الفَيضِ رحمه الله، فقد بلغني أنَّه اِطَّلعَ علَى أغلب مؤلفاتِه وأثنَى عليها، وقـرَّظَ بعضَها بِتقريظٍ حَسنٍ، مِنْ ذلك ما قـرظ به كتابَ "الباحث عن عِلَلِ الطَّعنِ في الحارث"، قال رحمه الله بعد الدِّيباجة:

((أما بعد، فإنَّ مَنْ قرأ هذا الجزءَ المسمَّى بالباحثِ، لِشقيقِنا العلَّامة المحدِّث الواعية، الناقدِ البصيرِ بالعلوم الأثرية والرِّوائيَّةِ، جمالِ الدِّينِ أَبِي اليُسرِ عبدِ العزيزِ اِبنِ محمدِ بنِ الصِّدِّيق أبقاه الله وأدام توفيقَه، وكان مِنْ أهلِ الفضل والإنصاف والتَّذوقِ لِطَعْمِ التحقيق في العلوم بِلَا تَعصُّبٍ ولا اِعْتِسافٍ، عَلِمَ أنَّه مِنَ العُدولِ الذين قال فيهم النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**يَحمِلُ هذا العِلمَ مِنْ كلِّ خَلَفٍ عُدُولُه، يَنفُونَ عنه تَحرِيفَ اَلْغَالِّينَ، وَاِنْتِحالَ اَلْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ اَلْجاهِلِين**»؛ ومِنَ الطائفة المنصورة الوارِدِ فِيهم بِالطريقِ المتواتر عن رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لَا تَزالُ طائِفةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ علَى الحَقِّ، لا يَضُرُّهُم مَنْ خَالَفَهم، وَلا مَنْ خَذَلَهُم، حتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ علَى ذلك**»؛ بل يَعْلم أنَّه مِنْ آياتِ اللهِ تَعالى التي قال عنها في كتابِه العزيز: ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾. فَلَئِنْ كان الله قد نَسخَ آياتِه الباهرةَ في هذه الأُمَّةِ مِنْ حُفَّاظِ الحديثِ، ونُقَّادِ رجالِه الذَّابِّينَ عنه في صدْرِ هذه الأمَّةِ، فهو سبحانه بِفَضلِه وجُودِه لم يَقْطع عن هذه الأمَّةِ آياتِه في تلك الباب، بل أظْهَرَ منها في آخرِها مِثلَ ما أظْهَرَ في أوَّلِها،

وفي كلِّ قَرنٍ مِنْ أمَّتِه صلى الله عليه وآله وسلم سابِقُونَ إلى الخيرات.

ولولا وُجودُ تعبٍ مُلِمٍّ بِنا في هذه اللحظة، لَأَمْلَيْنا في مدْحِ هذا الجزء وتأييدِه ما يَفوقُ حجمَه أو يُماثِلُه، علَى أَنَّ في كتابِنا "فتْح المَلِكِ العَلِيِّ"، وكتابِنا "البُرهان الجَلِيّ" ما فِيه كفاية لِتَأيِيدِ هذا الجزء الشريفِ والبحثِ المُنيف..)).

وكَتب أيضاً مِثلَ هذا التقريظ علَى كِتابِه "التَّحذير لِمَا ذَكَره النَّابُلْسِيُّ في رُؤيا فاطمة والحَسَنِ والحُسَين عليهم السلام مِنَ التَّعبير".

وتَنويهُ أَبِي الفَيْضِ بِصاحبِ الترجمة، يَتحدَّثُ به كلُّ مَنْ جالَسَ الحافِظَ أَبا الفَيضِ، لأنَّه ما كان يَخلُو له مجلِسٌ إلَّا وأشادَ فيه بِه. وقد سمعتُ هذا مِنْ كلِّ إخواني بِطَنْجَة وغيرِها. فمِنْ ذلك، ما كَتب به أحدُ المُحِبِّين مِنْ مدينة سَلَا إلَى شيخِنا الإمامِ، وهو لا زال في القاهرة سنة 1365هـ، يقول له في رسالتِه:

((قد مَنَّ اللهُ علَيَّ بنعمةِ الوصول إلى طَنْجَة بِقَصْدِ الزيارةِ وصِلَةِ الرَّحِمِ، فاِسْتغرقتُ فيها شهراً كاملاً مع الأَشْرافِ. وهذه مدَّة وأنا عند سيِّدِنا رضي الله عنه -يريد أبَا الفَيْضِ رحمه الله-، وغالِبُ الأوقات يَقطعُها في التَّنويه بِكُم وبمقامِكُم الأَسْمَى في الحديث، وبِعَدَدِ مؤلَّفاتِكم القيِّمة. فهنيئًا لكم سيِّدي بِوُصولِكم لِمقامِكم المعروف، فهذا شيءٌ معلومٌ عنكم مِنْ قَبل. فقد وصل وقتُكم وظهر نجمُكُم في أعلَى عِلِّيِّين..)). إلى آخِرِ ما جاء في الرسالة. ولو تَتَبَّعتُ نَظيرَ هذه الرسالة لَطالَ بِنا المَقامُ، وإنما ذَكرتُ ما يدلُّ علَى غيره.

هذا، وكان صاحبُ الترجمة لَمَّا كان بِمِصْرَ، أرسل إلَى أَبِي الفَيْضِ بِطَنْجَة مَقالةً كَتَبها في مسألةِ التَّقليدِ، وخروجِ العلماءِ عن طريقِ الصوابِ في ذلك، فكَتَبَ إليه يقول: ((وقد أَعجَبتْنِي مقالَتُكم المطبوعة لِلغاية، كما أُعْجِبَ بها كثيرٌ مِنَ الإخوان، لاسِيَما فُلان وفُلان..)).

وكَتب إليه أيضاً يقول في رسالةٍ كَتَبها لِشقيقِه العلَّامةِ الشيخ السيِّد عبدِ الله: ((وأمَّا مؤلَّفاتُ سيِّدِي عَبدِ العَزيزِ فَحَسنَةٌ، و"رفْعُ العَلَمِ" جميلٌ لِلغَاية. ولَعلَّه

يُوَفَّقُ لِتخريج أمثالِه مِنْ كُتبِ التَّصوفِ كَالعَوارِفِ، وغيره. وأمَّا إِسْتِدراكُه علَى "اللآلي" فَيَدلُّ علَى طُولِ باعٍ وشِدَّةِ عنايةٍ بالحديث. زاده اللهُ حِرصاً وعِنايةً به، آمين)).

وكَتب في ضِمْنِ جوابٍ له عن بعضِ المَسائلِ أثناء كلامٍ ما نَصُّه: ((التواترُ الذي يكفر مُنكِرُهُ هو التواترُ الضروريُّ الذي يَكونُ مَجبولاً علَى التَّصديقِ به كلُّ أحدٍ، بِخلاف النَّظريِّ الذي لا يَحصُلُ إِلَّا لِلْبُزَّلِ في الحديثِ كَسَيِّدي عبدِ العزيزِ، الذي زاده اللهُ حِرصاً وعنايةً بالحديثِ، ومعرفةَ طُرقِهِ ورجالِه..)). إِلَى غيرِ هذا وهو كثيرٌ.

وقد كان أَبُو الفَيضِ يُنَوِّهُ بِصاحبِ الترجمةِ وتَضلُّعِه ودِرايتِه الواسعةِ في عِلمِ الحديث في مختلفِ مَجالِسِه، مِنْ ذلك ما حكاه لي الشَّريفُ الجليلُ البَركَةُ سيِّدي عبدُ اللهِ بنُ الوَرِعِ سيِّدي الصَّادِقِ بن عَجيبة رحمه الله، أَنَّ جَمْعاً مِنْ بعض العلماء والطَّلبَةِ كان يوماً بِمنزلِ أَبِي الفَيْضِ بِطَنْجَة، ووصَلَ الحديثُ بِهم إلى الكلامِ عن المُحَدِّثِينَ، فقال أَبُو الفَيْضِ: "أمَّا أخِي سيِّدِي عبدُ العَزيزِ فهو مُتفوِّقٌ في عِلمِ الحديثِ، وهو في هذا العِلمِ شيءٌ كبير".

ولَمَّا اِطَّلعَ شقيقُ صاحِبِ الترجمة أَبُو الفَضْلِ العلّامة المحدِّثُ السيدُ عبدُ اللهِ علَى كتابِه "الباحِث"، المذكور، كَتب إليه مِنْ مِصرَ يقول: ((إِنَّه كتابٌ عجيبٌ سَلَكْتَ فيه مَسْلَكَ الاجتهادِ والنَّقدِ في التَّجريح، وهو حقيقٌ بالطبع)).

وكذلك أثْنَى علَى كتابه في الردِّ علَى النَّابُلْسِي وأَعْجبَه، وقال: «إِنَّه مِنْ أحسَنِ كُتُبه».

وكذلك وقف علَى كتاب "الباحث" الأستاذ عبدُ الوهّابِ عبدِ اللطيفِ، أُستاذُ الحديث في كلِّيةِ الشريعةِ بالأزهر، فأُعْجِبَ به جدًّا وقال: ((مِمَّا يُثِيرُ العَجَبَ فيه أَنَّ مُؤلِّفَه لم يَخْرُجْ فيه علَى القواعدِ الحديثِيَّةِ، مما يدلُّ علَى تَمَكُّنِ المؤلِّفِ في الفنِّ..)).

وأخبرني صاحبُ الترجمةِ أنَّه قرأ كثيراً مِنْ مقالاتِه التي كان ينشرها في "مجلَّة الإسلام" علَى شيخِه العلَّامةِ الشيخِ عبدِ السَّلامِ غُنَيم، فأُعْجِبَ بها غايةً، واِسْتَحْسنَها كثيراً، وقال له: "هذا مِنْ بابِ خَرْقِ العادةِ، والبَركَةِ العائدةِ عليكم مِنْ والِدِكم، وإلَّا فالعادةُ لا تُعطِي مِثلَ هذا لِمِثْلِك".

قال صاحبُ الترجمة: "وقد قال هذا لأنَّه يَرَى نفسَه وقد مرَّتْ عليه نحوُ أربعين سنةً أو أكثر في خدمةِ العِلمِ. ومع ذلك لا يَجِدُ القدرةَ علَى كِتابةِ خطابٍ، فضلاً عن تحرير مقالٍ.. والحمد لله".

وكَتب صاحبُ الترجمةِ مرةً مقالةً في "مجلةِ الإسلام" تتعلَّق بِأَبِي حَنِيفةَ رحمه الله، فاِطَّلعَ عليها الشيخُ محمد زاهد الكَوْثَرِي، وكيل مشيخة الإسلام بالبِلادِ التُّركِيَّةِ سابقاً، فأعجبَتْهُ، وأثنَى عليها في مجلِسٍ وصاحبُ الترجمة حاضرٌ.

كما أثنَى كثيرٌ مِنَ المِصْرِيِّين مِنْ أهلِ العِلمِ والأدب علَى ما وقَفوا عليه مِنْ مقالاتِه في المجلَّاتِ، وما اِطَّلعوا عليه مِنْ مؤلَّفاتٍ في الحديثِ وغيرِه.

ولَمَّا اِطَّلعَ بعضُ الإخوانِ الأفاضلِ علَى كِتابِه: "الإفادَة بِطُرقِ حديثِ: «النَّظرُ إلَى عَلِيٍّ عِبادَة»"، أُعْجِبَ به أَيَّمَا إعجاب، وقال له مشافهةً وبِدُونِ شعورٍ: "ما كُنتُ أظنُّكَ علَى هذه المعرفةِ والاطِّلاعِ". ورَدَّ الكتابَ إلى صاحبِ الترجمةِ مصحوباً بِورقةٍ مكتوب فيها ما نصُّه: ((إلَى العالِمِ العلَّامة، الدَّرّاكَةِ الفهَّامة، الجِهْبِذِ النِّحْريرِ، المُحدِّثِ الكبيرِ، سيدي عبدِ العزيزِ بنِ الصِّدِّيق.. -في كلامٍ طويلٍ في مدْحِ موضوعِ الكتابِ، وأنَّه تَبيَّنَ بِسببِه الحقُّ مِنَ الباطلِ، وزال عنه ما كان يراه صواباً وهو خطأٌ بِسببِ التقليدِ الجامدِ لِلَّذينَ لا يُميِّزونَ الحقَّ مِنَ الباطلِ- وقال بعد هذا ما نصُّه: وتعجبتُ مِنْ سعةِ اِطِّلاعِكُم علَى أحوال الرجال وأسانيدِهم، فَلَكُم المَكانَةُ العُلْيَا في الصِّناعةِ الحديثِيَّةِ كما أفاده تأليفُكم المُبارَكُ، المُسمَّى بالإفادة. وقديماً سمعتُ مِنْ شيخِنا سيِّدي الزَّمْزمِي شقِيقِكم يقول: "إنَّ سيِّدي عبدَ العزيز سَيُدْرِكُ مرتبةَ الأَخِ الأَكْبرِ في عِلمِ الحديث مع الاجتهاد فيه". وصدَقَ فيما قال، وأسألكم دعاءً صادقاً في مواطِنِ الإجابةِ. والسلام)).

فصل

إنَّ صاحبَ الترجمة حفظه الله، لَيُذكِّرنا بِحالِه ومَقالِه بِنجومِ علماءِ السَّلَفِ رضوان الله عليهم. إذْ نراه وقد جعل مِنْ كلِّ همومِه همًّا واحداً، يتمثَّلُ في العملِ الدَّؤوبِ والإجهادِ المتواصلِ لِنَيْلِ مرضاةِ اللهِ في خدمةِ عِبادِ الله، مُوثِراً مصالحَ الأُمَّةِ العُليا في الدِّينِ والدُّنيا علَى كلِّ شيءٍ، باذلاً راحتَه وكلَّ ما أتاه اللهُ مِنْ علمٍ في إصلاحِ أحوالِ المسلمين، ودعوتِهم حُكّاماً ومحكومِينَ إلى وجوبِ العملِ وفْقَ كتابِ الله تعالى وسنَّةِ رسولِه صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا يَلمسُه كلُّ شخصٍ أُتِيحَتْ له الفرصةُ بِالاجتماعِ بالشيخِ، أو الاستماعِ إليه في دروسِه أو خُطبِه. وكَتب إليه رجلٌ مرةً سمِعَ خُطبتَه، يقول فيها بالحرف: ((سيِّدي الإمام المحترم، لكُم أَلْف شُكْرٍ، أطلبُ مِنَ اللهِ سبحانه وتعالى أَنْ يَزيدَ مِنْ أمثالِكم، ويَزيدَ في عُمركم، نحن في الدَّاخلية (يعني وسط المغرب) نَفْتقر إلى علماءَ مِثْلكم يا حضرةَ الإمامِ المحترم..)).

ونَظِير هذه الرسالة كثيراً ما يتوصلُ به صاحبُ الترجمة مِنْ مختلف مُدُنِ المغرب، كما يتوصَّل بِاستمرارٍ بِتقدير وتنويهِ علماءِ المَشرِقِ.

ومع كلِّ هذا، فما رأيتُ منه حفظه الله دعوىً، ولا حُبًّا في الظهور بِشيءٍ يَرجعُ إليه شخصيًّا، ولا سعَى في الحصول علَى منفعةٍ ذاتيةٍ بين الناس؛ بل تراه يَهربُ مِنْ ذلك، وكلُّ مَنْ جالَسَه يَلْمس هذا منه، حتَّى مَنْ لا يَعرفه يَحسبُهُ عادياً غير مُهَيَّيءٍ لِأمرٍ كبيرٍ، في حين أَنَّكَ ترى البسطاءَ الذين لا نِسبةَ بينهم وبينه -عِلماً وعملاً- يتظاهرون بالدَّعاوي العظيمةِ، ويَسعوْنَ في الظهور بِما ليس لهم، ولا هُمْ أهلاً له.

ويدلُّ علَى هذا، أنَّه أخبرني بعد مدةٍ طويلةٍ مِنْ مصاحبتِي له وقِراءتي عليه، أَنَّ والدَه رضيَ الله تعالى عنه، أعطاه الإِذْنَ في تَلقِينِ الطريقِ لِلمُريدِينَ، وذلك عندما كان صاحِبُ الترجمة مسافراً إِلَى قبِيلَتَي: زْعَيْر، والسُّهُولْ، وعُمُرُهُ إِذْ ذاكَ لا يتجاوزُ أربعةَ عشرَ عاماً، ومع ذلك ما أفْصَحَ بهذا لِأَحَدٍ، ولا أخبرَ به قريباً ولا بعيداً، إِلَى درجة أَنَّ الناسَ يأخذون الطريقَ عمَّن ليْسَ لهم إِذْنٌ في ذلك، ويَقصدونهم لِأَجْلِ هذا؛ في حين أَنَّ صاحبَ الترجمة مأذونٌ في إِعْطاءِ الإذنِ بِورْدِ الطريقِ، وله الحقُّ في أَنْ يُخْبِرَ بذلك. ومع هذا كلِّه، ما أخبرَ أحداً زُهداً في الظُّهورِ، وحُبًّا في الخمولِ، ووَرَعاً في أَنْ يتعرضَ لِمَا يَراه أنَّه ليس له بِأهلٍ.

وهذه الخصلةُ الرفيعةُ والرتبةُ المنيعةُ التي تَسُدُّ الأبوابَ في وجهِ الشيطان وتَقطعُ الطريقَ علَى أهواءِ النَّفسِ، لَمْ أَرَ لها وجوداً في علماء عصرِنا، لِأنِّي أرَى كلَّ واحدٍ منهم يَلهثُ وراء الظهور والشهرة، بِحقٍّ أو بِباطلٍ. فسكوتُ صاحِبِ الترجمةِ عن مثلِ هذا، يدلُّ علَى خُصوصيَّتِه وَاِمْتيازِه بهذه الصفةِ العاليةِ التي لا توجَدُ إِلَّا عند أهلِ الوَرَعِ مِنْ أكابرِ السَّلَفِ.

الباب السادس

فصل
الاختيارات

وقَبلِ ختْمِ هذه الترجمة، أريدُ أَنْ أذكرَ بعضَ المسائلِ العِلمِيَّةِ التي وقع فيها الخلافُ بين السَّلَفِ والخَلَفِ، واِختار منها صاحِبُ الترجمة حفظه الله ما ظهر له أنَّه الأَوْلَى بِالأَخْذِ والصَّوابِ.

وبعضُ هذه المسائلِ سمعتُه مِراراً يُفتِي به ويتحدث به في المجالس، الخاصَّةِ والعامَّةِ. ولاشكَّ أَنَّ ذلك سيُفيدُ القارئَ ويَجِدُ فيه ما يَنفعُه في كثيرٍ مِنْ مسائلِ الفقه.

ومسألةُ الاختيارات لم ينفرد بها صاحبُ الترجمة؛ بل منذ عصر الصحابة رضي الله عنهم إِلَى أَنِ اِنْقرضَ التفكيرُ الحرُّ والنَّظرُ في الأدلَّةِ، والترجيحُ بين الأقوال مِنْ أهلِ العِلم والفِقه؛ إِلَّا وتَجدُ لِلواحدِ منهم قولاً أو أقوالاً اِختارها مِنْ بين ما وقع فيه الخلافُ بينهم، واِرتضَى العملَ بها والفتوَى بمضمونِها.

وإنما ضَمَّنَتُ هذه الاختيارات في هذه الترجمةِ، لأنَّكَ لا تَجدُ ترجمةَ إمامٍ مِنَ الأئمَّةِ في كُتبِ المتقدِّمين والمتأخِّرين، إِلَّا ويَذكرون في تَضاعِيفِ أخبارِهِ ومُجمَلِ أحوالِه، ما اِخْتاره واِرتضاه مِنَ المسائل في التفسير، والحديث، والفقه؛

حتَّى إنهم ربما اِقتصروا في بعض تراجم الأئمةِ علَى هذه الناحية لا غير، كمَا فَعل العَبَّادي في طبقات الشافعية. لِمَا في ذلك مِنَ الفوائد التي تَعودُ علَى الطالب بِأعظَمِ المنافِع.

إذْ ذلك يَفتحُ لِلطالبِ البابَ في معرفةِ الترجيح بين الأقوال، لاسيما ما وقع فيه الخلافُ بين جمهور الفقهاء. ورُبَّما يَكونُ الحقُّ مع ذلك الفقيهِ أو العالِمِ فيما اِخْتاره، فَيَجرُّ ذلك الطالبَ إلى الاستدلالِ له واِستخراجِ توجيهِ اِختياره. فيَتدرَّجُ بذلك إلى الدخول في ميدان المناظرةِ وتَبْيينِ القويِّ مِنَ الأقوالِ والضعيفِ منها.

فلهذا رأيتُ أَنْ أسلكَ مَسلَكَ هؤلاءِ الأئمَّةِ في صنِيعِهم الذي سلكوه فيما كتبوه مِنْ تراجم، فذكرتُ في هذه الخاتمةِ ما سمعتُه منه، حفظه الله، مِنَ الأقوال التي اِختارها واِرتضاها، وكان يُفْتِي بها.

◆ مِنْ ذلك: أنَّه يرَى أنَّ عَلِيًّا عليه السلامُ أفضلُ الصحابة على الإطلاق. والترتيبُ الذي وقع في الخلافةِ لا يَدلُّ علَى أفْضَلِيَةِ السابقِ علَى اللَّاحِق، لأَنَّ الترتيبَ الزمنيَّ لا يدلُّ علَى شيءٍ مِنَ الفضلِ مطلقاً، بل ربَّما كان اللَّاحِقُ أفضلَ مِنَ السَّابِقِ.

وهذا نبِيُّنَا صلى الله عليه وآله وسلم هو آخرُ الأنبياءِ بعْثاً، وهو مع ذلك سيِّدُ الأنبياءِ وأفضلُهُم بِإجماعِ المسلمين.

ثمَّ إِنَّ الأَحاديثَ الواردةَ في تفضِيلِ عليٍّ عليه السلام علَى سائِرِ الصحابةِ بِطريقِ النصِّ والتصريحِ، لا يأتي عليها الحصرُ. والأَشْعَرِيَّةُ، سامحهم الله تعالى، هُم الذين أدخلُوا هذا الدليلَ علَى التَّفْضيلِ في كُتبِهم. وزاد في الطِّينِ بَلَّةً، أنَّهم جعلوا ذلك مما يَجبُ أَنْ يَنْطَوِيَ عليه المُسلِمُ مِنْ عقيدةِ النَّجاةِ، والمُخالِفُ لها علَى خطرٍ عظيمٍ في عقيدتِه، مع أَنَّ الأمرَ لا دَخْلَ له في العقيدة مُطلَقاً. والسَّلفُ مِنَ الصحابة ومَنْ تَبِعَهم بِإِحسانٍ، كان أغلبُهم علَى خلافِ هذا الأمرِ الذي جعله الأشعريَّةُ مِنْ عقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ.

وقد ترتَّبَ علَى قَولِ الأشعريَّةِ هذا، أَنْ صار اليومَ الجمهورُ الغفيرُ في البلاد الإسلاميةِ يَرَوْنَ القولَ بِتَفضيلِ عليٍّ عليه السلام علَى غيرِهِ مِنَ الصحابةِ مطلقاً بِدعةً مُنْكَرةً وضلالاً في العقيدةِ. لأنهم نَشأوا علَى العقيدة الأشعريَّةِ، وأخذُوها عن آباءِهِم بِدُونِ تحليلٍ ولا نقْدٍ، ولا بحْثٍ عن دليلٍ، فكُلُّ مَنْ أتَى بخلافِها يَرَوْنَهُ ضالًّا بعيداً عن طريق الحقِّ والصوابِ. وفي الحقيقة، هُمُ الذين خرجوا عن الصواب واتَّبَعوا مِنَ الأقوالِ ما لا دليلَ عليه.

والعجب أنَّهم يُحرِّمون التقليدَ في العقائدِ، فما بالُهُم قلَّدُوا هُنا مَنْ بثَّ فيهم هذا القولَ الذي اِخترعه النَّواصبُ بِدعوَى أنَّه عقيدةُ أهلِ السُّنَّةِ؟! والأمرُ لله.

◆ كما أنَّه يَرى أَنَّ أَبَوَيِّ الرسولِ صلى الله عليه وآله وسلم مِنَ الصالحين النَّاجِينَ، وأنَّ مَنْ يقول بِعَدَمِ نجاتِهِما جاهلٌ مُظلِمُ القلبِ، سيِّءُ الأدبِ، يجب أَنْ يُؤدَّبَ ويُعَزَّرَ على قولِه. ويَرى فِسْقَ مَنْ أَلَّفَ في عدَمِ نجاتِهِمَا كَعَلِيٍّ القَارِّي الحَنَفِي، المعروف بِابْنِ سُلطان. لأنَّ ذلك فيه إذايةٌ لِرسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم بِنَصِّ الحديثِ: «**لَا تَسُبُّوا الأَمْواتَ فَتُؤْذُوا الأحياءَ**»، ومُؤْذِي رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم فاسِقٌ مارقٌ مِنْ غيرِ شكٍّ، لاسيما وأَنَّ الأدلَّةَ علَى نجاتِهِما كثيرةٌ جدًّا، وألَّفَ في ذلك عددٌ مِنَ الأئمَّةِ الحُفَّاظِ، كالحافِظِ السيوطي رحمه الله تعالى.

والأحاديثُ التي تُشيرُ إلى عدم نجاتِهِما فيها كلامٌ، وليست بصالحةٍ لِلحُكمِ علَى عدمِ نجاتهما؛ لاسيما والأدلَّةُ العامَّةُ القاضيَةُ بِنجاتِهِما وأَوَّلُها أنَّهما مِنْ أهلِ الفَترةِ لم تَبْلُغْهُما الدعوةُ قطْعيةٌ، والأحاديثُ المُشيرةُ إلى عدمِ نجاتِهِما ظَنِّيَّةٌ، والقطعيُّ مقدَّمٌ في العمل به إذا خالفَهُ دليلٌ ظنِيٌّ.

فلهذا كان القولُ بعدم نجاتهما خطأً محضاً، وجهلاً واضحاً مِنْ صاحِبِه، بل وضَلالاً وفساداً في العقيدة.

◆ ويَرى حفظه الله، أَنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم رأى ربَّه ليلةَ الإسراء، خلافاً لِـمَنْ نفَى ذلك مِنَ السَّلفِ والخلَفِ، لِصحَّةِ الأدلة بذلك. ويقول في هذا الشأن: "ولعلَّ أوَّل مَنْ أنكر ذلك السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها، التي كانت سريعةَ الإنكار لِمَا لَمْ يَـبلُغْها دليلُه. وقد خالفتْ في هذا القولِ اِبنَ عَبّاس وغيرَه مِنَ الصحابة؛ بل جمهورُ الأمَّةِ علَى قولِ اِبنِ عَـبّاس".

◆ وكذلك يَرى أَنَّ اللهَ سبحانه وتعالى كلَّم سيدَنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ليلةَ الإسراء مِنَ الـمُستوَى الذي سمِعَ فيه صَريفَ الأقلام، خِلافاً لِـمَا يَـزعـمُه مَنْ يَقولُ: لَا تجتمع الرؤيـةُ والكلامُ لأَحَـدٍ.

◆ ويَرى بطلانَ قولِهم إنَّ الإيمانَ لا يَصِحُّ إلَّا عن اِستدلالٍ وإيـمانَ الـمقلِّدِ فاسدٌ. وقد أطال كثيرٌ مِنَ الـمتأخِّرينَ في تأيـيدِ هذا القول، وهو فاسدٌ تخالـفُه قواعدُ الشريعة وما جاء عن السَّلَفِ في ذلك.

◆ ويَرى أَنَّ النبوةَ لا تختصُّ بالـذُّكور، بل كانت الـنُّبوةُ في النساء كما ثبت في القرآن. وقولُ صاحِبِ "الأمالي": ((وما كانت نبِيًّا قَطُّ أنثَى، ولا عبدٌ، وشخصٌ ذُو فِـعال))، لا دليلَ عليه. وقد بيَّنَ هذا صاحبُ الترجمة بِتفصيلٍ في موضعٍ آخَر.

◆ ويَرى أَنَّ الـميِّتَ في قبره عندما يَسألُه فَـتَّانُ القبر عن رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم بِقولِه: ما تَقولُ في هذا الرجلِ؟ يَكون ساعَـتَـئِذٍ يرَى النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم بِعَينِه، قريباً منه. لأنَّ لفظَ هذا لا يستعمل إلا في القريب، فالإشارةُ بهذا صريحةٌ في أَنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم يكون حاضراً، يَـراه الـميِّتُ. وبذلك تـصِحُّ الإشارةُ بهذا كما لا يَخـفى.

وفي هذا دليلٌ علَى أنَّ قدرةَ الله لا يقف دونها فهْمٌ، ولا يحـدُّها عقلٌ، إذِ الناسُ يـموتـون في الزمن الفردِ في أقطار الأرض شرقاً وغرباً، على اِختلافها في القُربِ والبُعدِ، وكُلُّهم يرَى النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم قريباً منه، كما تُـفيده الإشارةُ بهذا.

وقد أظهَرَ اللهُ تعالى في الاختراعات الحديثَةِ ما يَدفعُ اِعتراضَ الـمُعترِضِ واِسْتِبعادَ الجاهلِ لِهذا الأمرِ الواردِ في هذا، وهو التلفزيون الذي يشاهَدُ بواسطتِه الشخصُ الواحدُ في أماكِنَ متعدِّدة مِنْ بِقاعِ الأرض، مِنْ غيرِ أَنْ يَكونَ في ذلك حَـرجٌ لِأَحدٍ.

◆ ويَسْخَرُ حفظه الله مِنْ قولِ مَنْ يَذهبُ إلى أنَّ الـمِعراجَ كان بِرُوحِه صلى الله عليه وآله وسلم دُونَ جسدِه. لأنَّ القولَ بذلك زيادةٌ علَى كونِه مخالفاً للنصوص الصريحة، فإنَّه يُفرِغُ هذه الـمعجزةَ الباهرةَ لِنَبِيِّنا صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ معناها الـمُعجِزِ.

لأنَّ الـمِعراجَ بالروح قد يَدخلُ في حُكمِ الـمَنامِ، وذلك يَقَعُ لِسائِرِ الناس، بل ربَّما لغير الصالح منهم، فما الفائدةُ إذن بِوقوعِه بالروح دون الجسد؟! ولو كان بِالروح دون الجسدِ لَمَا اِعْترضَ عليه مُشْرِكُو قريش!! لأنَّ ذلك لا يستحيل عندهم ولا تَستبعدُه عقولُهم. ومِمَّنْ كان يقول إنَّ الـمِعراجَ كان بِرُوحِه صلى الله عليه وآله وسلم مُعاويةُ بنُ أبي سفيان، قال اِبنُ تَيمية رحمه الله: والناسُ على خِـلافِـه.

◆ ويُرجِّحُ حفظه الله في معنَى قولِه صلى الله عليه وآله وسلم في حديثِ سؤالِ جبريل في بيانِ أشراط الساعة: «..**إذا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّها**»، أَنَّ المرادَ بها أَنْ يَكثرَ العُقوقُ في الأولادِ، وسوء معاملتِهم لِلأبويْنِ، وعدم البُرورِ بِهما، ويُعامِلُهُما الابنُ أو البنتُ كما يُعاملُ الأجنبي مِنَ الإهانةِ والسبِّ والضربِ، وعدم إعطاءِ حقوقهما، وإلزامِهما بخدمتِهما لهم والقيام بمصالحهم. فَشابَهَ بذلك رَبَّ الأَمَةِ وسيِّدَها في الاستخدام لها، وعدم الاكتراث بها.

قال: "ويؤيِّد هذا أيضاً، الأحاديث الواردة مِنْ طُرقٍ في أَنَّ مِنْ أشراطِ الساعة أَنْ يَعُقَّ الرجلُ أَباهُ وأُمَّهُ، ويُطِيعَ زوجتَه. وقد صار هذا في هذا الوقت مِنَ الأمور العاديةِ بين الناس حتَّى لم يَبقَ يُلْفِتُ الأنظارَ لِكثرتِه وتَعدُّدِ حوادثِه. بل بلغ الحالُ أَنْ يَقتلَ الرَّجلُ والديْهِ كما حدث قريباً في مِصْرَ. وأَمَّا الإهانةُ فقد أصبحت حالَ كثيرٍ مِنَ الناس اليومَ، نَعوذ بِالله مِنَ السوءِ. وقد ذكر الحافظُ في "الفتح" (1/91)

في معنى الحديث وُجوهاً سَبْعة، واختار الوجهَ الذي ذكرتُـه. لأَنَّ الـمَقامَ يدلُّ علَى أَنَّ الـمرادَ حالة تكون مع كونها تَـدلُّ علَى فسادِ الأحوال مستغرَبَـة، ومُـحَـصَّـلُه الإشارة إلى أَنَّ الساعةَ يَقربُ قِيامُها عند اِنْعكاس الأمور، بحيث يَصيرُ الـمُربى مربِّـياً والسَّافل عالياً، وهو مناسبٌ لِقولِه صلى الله عليه وآله وسلم في العلامةِ الأخرى: «**أَنْ تَـصِيرَ الحُـفاةُ العُراةُ مُلوكَ الأرض**».

◆ ويَرى أَنَّ عَـوْدَ الرُّوحِ إلى الـميِّتِ في قبره يَكونُ كـحالِه في هذه الحياة، بل قد يكون أكمَلَ مِنْ بعضِ الـوجوهِ. لأَنَّ النصَّ الواردَ في ذلك يَجبُ حَـمْلُه على ظاهرِه مِنْ غيرِ تأويلٍ مطلقاً. والأحاديثُ الدالَّةُ على عوْدِ الروح إلى البدن كلّـه كثيرةٌ، وكلُّها صريحةٌ، ونصٌّ في أنَّ الروحَ يَعودُ إلى البَدَنِ كلِّه. وقـولُ مَنْ يقول إنَّها تعود إلى جزءٍ مِنَ البدن لا غير، لا دليل عليه، وهو مخالِفٌ لِنُصوص الأحاديث في ذلك، وإنما هو تصرُّفٌ عقليٌّ مِنْ صاحِبِه لا غير.

قال: "وأمَّا قـولي: إِنَّـه قد يكون أكملَ مِنْ بعض الوجـوه، فذلك لأمورٍ:

الأول: إنَّ الحياةَ في الدنيا تحتاج إلى الهـواء الـمُعبَّرِ عنه بِالأُكْسِيجين، وأمَّا في القَبر فقد أخبرَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الـمتواتر بِعَـودةِ الـرُّوحِ إلى الجسد، مع أَنَّ الجسدَ في القَبرِ لا مَنْفذَ له ولا هـواءَ يَصِلُـه. فهذا مِنَ الوجوه التي كانت الحياة بها في القبر أكـمل مِنَ الحياة في الدنيا.

الثاني: إنَّ الإنسانَ في الحياة الدنيا لا يَسمعُ الكلامَ وقَـرْعَ نِـعَالِ مَنْ حِيلَ بينه وبين ذلك بِـسُورٍ لا مَنفذ له كما هو معلومٌ لكلِّ أحدٍ. والـميِّتُ في القـبر ثَـبَتَ في الحديث الـمتواتر أنَّـه يَسمعُ كلامَ الـمُشَيِّعِينَ، وقَـرْعَ نِعالِـهم، وطلَبَ التَّـثْبِيتِ له، كما ورَدَ في أحاديثَ كـثيرةٍ.

الثالث: إِنَّـه يَرى في قبرِهِ مَنْ يأتي لِزيارتِـه كما وَرَدَ أيضاً، ويَستأنِسُ بالزائِر؛ وهذا لا يُمكِنُ في الحياة الدنيا، ولا يتـأَتَّى لِـمَنْ حالَ بينـه وبين زائـرِهِ سُورٌ أو حائطٌ أنْ يراه ويستأنسَ به ويَـفرحَ بِـزيـارتِـه. فلهذا فالحياةُ في القَبرِ أكملُ منها

في الحياة الدنيا".

◆ كما سمعتُ منه حفظه الله أنَّه يُرَجِّح أَنَّ المرادَ بِأُولي الأمْرِ في قولِه تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، هُم العُلماء، كما ذهب إلى ذلك اِبنُ عَباس، وجابرُ بنُ عبدِ الله، والحَسَنُ البَصرِيُّ، وعَطاءُ، والضَّحاكُ، ومُجاهِد إمامُ أهلِ التفسير، وأحمدُ بنُ حَنبل، وغيرُهم كثيرٌ. لأَنَّ الأمراءَ إنما يُطاعونَ إذا أمروا بِمقتضَى العِلْمِ، فطاعتُهم تَبَعٌ لِطاعةِ العلماء. لأن الطاعةَ التي أوجَبَها الله تعالى لِلأمراء تَكونُ في المعروف، والمعروفُ هو ما أوجَبَهُ عِلْمُ الشريعة.

فإذا أمر الأميرُ بما يخالف الشريعةَ فلا طاعةَ له، كما قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا طاعةَ لِمَخلُوقٍ في مَعْصِيَةِ الخَالِق»، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

◆ كما سمعتُ منه أَنَّ الطلاقَ بِلَفظِ الثَّلاثِ يَقعُ طلقةً واحدةً، وقد قال: "إِنَّ المسألةَ أخذَتْ دَوْراً مِنَ الخلاف والنِّزاع بين العلماءِ مِنْ أهلِ المذاهب الأربعة. وإستقرَّ القولُ فِيها بينهم علَى أَنَّ المُطلَّقةَ ثلاثاً بِلفظٍ واحدٍ تُعَدُّ بائِنَةً.

ولكنَّ الأمرَ الذي كان عليه العملُ في عهدِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، وخلافةِ أَبِي بكرٍ، وفي صدْرِ خلافةِ عُمَرَ رضي الله عنهما، أنَّها طلقةٌ واحدةٌ. وقد كَثُرَ الأخذُ والردُّ في هذه المسألة بين العلماء، إلى درجةٍ أَنْ صار بعضُهم يُبَدِّعُ مَنْ يَقولُ فيها بخلاف ما عليه الجمهورُ. وأَلَّفَ عددٌ كبيرٌ في شأنِها، وأطال الكلامَ فيها اِبنُ القَيِّمِ الجوْزِيَة وشيخُه اِبنُ تَيمية بِما يُعلَم بِمراجعة ذلك..".

◆ ومِنْ مذهبِه أنَّه لا يتقَيَّدُ في فَتواه بِمذهبٍ مِنَ المذاهب، ويَرى حفظه الله أَنَّ الاقتصارَ في الفتوى علَى مذهبٍ مخصوصٍ قُصورٌ وَضِيقُ عَطَنٍ مِنْ صاحبِه، أَوجَبَهُ ما نَشأَ عليه الناسُ منذ زمانٍ مِنَ الاقتصار علَى مذهبٍ واحدٍ في التديُّنِ

والتَّمذهُبِ، ولُزُومِ التقليدِ لِقَولِ رجالِ المذهب، بينما عصرُ السَّلفِ الزّاهرِ لم يكن علَى هذا المنوال؛ ولِهذا كَثُرَ لَدَى رجالِه الإنتاجُ الفكريُّ المُثمِرُ، والتَّحررُ مِنْ اِتِّباعِ الأقوالِ مِنْ غيرِ اِختيارٍ ولا نَظرٍ فيما قال. وكثيراً ما سمعتُه يقول:

"قَبْلَ أَنْ تَظْهر المذاهبُ الأَربعةُ، كيف كان الناسُ يتعبَّدون؟ هل كانوا علَى حقٍّ أَمْ علَى باطلٍ؟ وهل كانوا علَى جهلٍ بِشريعةِ الدِّينِ حتَّى جاءتِ المذاهبُ الأربعة؟؟!

الجواب: بالطبع أنهم لم يكونوا على جهلٍ بِدينهم وشريعتِهم، بل كانوا أعرَفَ الناسِ بالدِّينِ وأعلَمَهم بأحكام الشريعة؛ بل ما أتَى أصحابُ المذاهب الأربعةِ إلَّا بأقوالِهم التي اِختاروها، وظهر لهم العملُ بها. لأنَّهم كانوا أيضاً مِنَ السَّلف، يختارون مِنْ أقوال العلماء ما يُعطِيهم الفِكرُ والنَّظرُ الأخذَ به. ولكِنْ لِفَسادِ الأُمور، وتَدَخُّلِ الحكَّامِ في تأيِيدِ دولتِهم، صاروا يُلزِمُونَ الناسَ، علماءَ وغيرَ علماء، بالمذهب الواحدِ، والأخذِ به في التحليل والتحريم؛ كما حصل في مذهب مالِك، ومذهبِ أَبِي حنيفة.

ولهذا كان الأئمة أنفسُهُم يَعترضون علَى مَنْ يلتزمُ مذهبَهم بدون حُجَّةٍ، ويُقلِّدُ قولَهم بغيرِ دليلٍ، كما هو معلومٌ عنهم ومُقررٌ في أخبارِهم وأحوالِهم".

فلهذا كان مِنْ مذهبِ صاحب الترجمة واِخْتياره، أنَّه لا يتقيد بِمذهبٍ؛ وأخبرني أنَّه إذا نَزلتْ نازلةٌ، يَنظرُ فيها أوّلاً مِنْ جهةِ حُكمِ القرآن والسنَّةِ فيها؛ فإذا لم يَجِدْ نَظَرَ هل ورَدَ فيها عن الصحابة شيءٌ؛ فإنْ لم يَجِدْ نَظَرَ في أخبارِ التَّابعين؛ فإنْ لم يَجِدْ رأَى ما في مذهبٍ مِنَ المذاهب الأربعةِ ما يتعلّقُ بالمسألة مع إمْعانِ النَّظرِ في دليلِ المسألةِ من حيث قُربُها مِنَ الأصولِ المقرَّرةِ.

كما يَرى أَنَّ ما يَقولُه المقلِّدةُ مِنْ وجوب الالتزام بِمذهبٍ واحدٍ وعدمِ الخروج عنه -وقد أَلَّفوا في نُصرةِ هذا القولِ تآليفَ كثيرةً- هو قولٌ باطلٌ لا أصلَ له، وتحجيرٌ على الفكرِ مِنَ الجَوَلَانِ في معرفةِ الأقوال وأُصُولِها. بل يَرى أنَّه لا يَتِمُّ

لِلإنسانِ العملُ بِالاحتياط في دينِه حتَّى يَعمل بِجميعِ أقوالِ المذاهبِ.

◆ ويَرى الإقامةَ في بلادِ الكفار اليومَ لا شيءَ فيها مُطلَقاً، ولا يَدخلُها شيءٌ مِنَ المنعِ والحظْرِ. لأنَّ الهجرةَ اِنقطعتْ بعد الفتحِ، والرسولُ صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**البِلادُ بِلادُ اللهِ، والعِبادُ عِبادُ الله، فَحَيْثُما وَجَدْتَ الخيْرَ فَأَقِمْ**».

والمعنَى الذي حُـرِّم لأجله الإقامةُ في بلاد الكفار، هو الخوفُ علَى الدِّينِ، وعدمُ التمكنِ مِنْ إقامةِ الشعائر بكلِّ حريةٍ. وهذا، اليومَ مفقودٌ، فالمسلمُ اليومَ في بلاد أُوروبا له الحريةُ التامةُ في إقامةِ شعائر دِينِه، وإظهارِ كلمةِ التوحيد بِدُونِ خوفٍ مِنْ إذايةِ نفسِه ومالِه.

ولهذا أمَرَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم الصحابةَ لَمَّا أُوذُوا في مكَّةَ مِنْ أجلِ دينِهم، أنْ يهاجِروا إلى الحَبَشَةِ وهي بلادُ الكُفرِ، ولكِنْ لَمَّا كان حاكِمُهُم عدلاً يُعطي الحريةَ لِلمُسلِمِ، أَمَرهم رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم بالهجرة إليها، وقال لهم: «**إنَّ فِيها مَلِكاً لَا يُظْلَمُ الناسُ عِنْدَه**». وسُميَّ المهاجِرونَ إليها أصحاب الهجرتين، وأثنَى الله تعالى عليهم ورسولُه في ذلك. فالعلةُ اِنْتفتْ، والحكمُ يَدورُ مع علَّتِه وجوداً وعدَماً، بل قال كثيرٌ مِنَ العلماء: إذا كان المسلمُ المقيمُ في بلاد الكفار يتمكَّنُ مِنْ إظهار شعائرِ الإسلام، مِنْ غيرِ خوفٍ، تَصيرُ به البلادُ دارَ إسلامٍ، ويجب عليه أَنْ يُقيمَ بها. لأنَّه بِخروجِه منها تَصيرُ دارَ كُفرٍ. زيادة على كون إقامتِه في دار الكفار على هذه الصورةِ، يَجعلُه داعيةً إلى الإسلام، ومُعرِّفاً الكفارَ قواعدَ الدِّينِ. وهذا مِنْ أفضلِ الأعمال عند كلِّ مسلمٍ.

وأُوروبا اليومَ أصبحتْ بهذه الصورة، وكذلك أمريكا؛ فالمسلمون فيها يَدْعون إلى الإسلام، ويُعَرِّفُونَ الكفارَ بِشريعتِه. وقد دخل بسبب ذلك عددٌ كبيرٌ في الإسلام، فمِنْ هذه الناحية صارت الإقامةُ واجبةً.

وقد أخبرني صاحبُ الترجمة أَنَّ له تأليفاً في هذا الموضوع، أَلَّفه بِطلَبٍ مِنْ بعضِ طلبةِ العِلمِ الجزائريِّين، بِمكَّةَ المكرمة.

◆ ويُجِيزُ لَعْنَ مَنْ باشرَ قَتْلَ الحَسَنِ والحُسَينِ رضي الله عنهما، أو سعَى في ذلك مستحِلًّا حُرمةَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأجلِ الأغراضِ الدُّنيويَّةِ والحصولِ على المُلكِ، والسطوةِ والتَّربُّعِ على كراسيِّ الحُكم. لأَنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**سِتَّةٌ لَعَنْتُهُم، وكُلُّ نبيٍّ مُجابٌ..**»، فذَكَر مِنْ هؤلاءِ السِّتةِ: «**المُستَحِلُّ مِنْ عِتْرتِي ما حَرَّمَ اللهُ**».

فالذي يسمُّ الحسَنَ رضي الله عنه حتَّى يَرمِي كَبِدَهُ مِنْ فمِه أطرافاً، أطرافاً، لأجلِ أَنْ يَفرغَ له الجوُّ ويطمئنَّ مِنَ المعارضة المشروعةِ، وإسكاتِ صاحِبِ الحقِّ عن حقِّهِ الذي أعطاه الله سبحانه وتعالى له. أَلَا يَكونُ فاعِلُ ذلك مُستحِلًّا ما حرَّم اللهُ مِنْ عِترةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فَتَلْحَقُه اللعنةُ التي أخبرَ بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لِفاعِلِ ذلك.

وكذلك الحُسين رضي الله عنه، الذي مهَّد لِقَتلِه الماهدون لأجل الغرض نفسِه، وهو الحصولُ على المُلكِ والسيطرة غير المشروعة على الأمَّة المحمديةِ، مع التَّحقق بأنهم ليسوا أهلاً لذلك، ولا لهم الحقُّ في أَخْذِ ولايةِ العهدِ لِمَنْ هو بعيدٌ عن الإسلام، فضلاً عن أَنْ يتولَّى شؤونَ المسلمين. فكان هذا السبب في الكارثة التي ما حلَّ بالإسلام والمسلمين مِثلُها، وهي قطْعُ رأسِ الحُسين عليه السلام، بِأيدِي الفَجَرةِ الكَفَرةِ الفَسَقَة، ومنْعُ الماءِ عن أولادِه رضي الله عنهم حتَّى كادوا يموتون عطشاً مع تشريدِهم، وأخذِهِم إلى الشَّامِ، إلى يَزِيد اللَّعِين، في أَسْوَءِ حالٍ وأقبَحِ صورةٍ.

أَلَا يَكونُ فاعِلُ هذا، ومَنْ مهَّدَ له، ومَنْ سَعَى في تَمكين فاعِلِه منه، مُستحلًّا لِعِترةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم التي حرَّمها الله؟؟ فيَكونُ مِنْ أجلِ ذلك ملعوناً مطروداً مِنْ رحمةِ الله. ولِهذا ثَبَت في التاريخ أَنَّ قَتَلَةَ الحُسينِ المَلاعِينَ، لَمَّا اِنصرفوا مِنَ المعركة التي وقع الحُسين عليه السلام فيها قتيلاً، وَجَدوا في الطريق حجراً مكتوباً فيه:

أَتَـرجُو أُمَّـةٌ قَتلَتْ حُـــ ـسَيناً شَفَاعةَ جَدِّهِ يَومَ الحِسابِ

ووَرَدَ في الحديث: أَنَّ اللهَ قال لِرسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إِنِّي قَتلتُ بِيَحْيَى بنِ زكرياء سَبعِينَ ألفاً، وإِنِّي قاتلٌ بِالحُسينِ سَبعِينَ ألفاً وَسَبعِينَ ألفاً**»؛ ومعلومٌ أَنَّ يَحيَى اِبنَ زكرياء قَتلَه هِيرُودُوس بِسببِ إِرضاءِ فاجرةٍ كان يَزني بها، فكذلك الحُسينُ قَتلَه هِيرُودُوس العَرب، بِسببِ اِتِّباعِ نفسِه الفاجرةِ، وحبِّه للسيطرة والتسلط، فلذلك جزَى اللهُ قاتِلَه بِضِعْفِ ما جزَى به قَتَلَةَ يَحيَى بنِ زكرياء عليه السلام.

◆ وسمعتُه مِراراً يُجيزُ معاملةَ الكفار بِالرِّبا والقِمار، وأخْذِ أموالِهم بِالطُّرق غيرِ المشروعةِ، لأَنَّ مالَ الكافرِ لا يَحرُمُ علَى المسلِم إِلَّا بِأمرَيْنِ: الذِّمة والعهد، وهذا لا يوجد اليوم علَى وجه الأرض، إذِ الكفارُ كلُّهم أهلُ حربٍ لنا، كما شهد بذلك حالُهم معنا.

وعلَّةُ تحريم الرِّبا كونُه ظُلماً وغَبْناً، لِقولِه تعالى: ﴿**فَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ**﴾، وقال تعالى: ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ**﴾. فَنَهانا سبحانه أَنْ نأخذَ أموالَ بَعضِنا بَعضاً بالباطلِ، وهذا لا يَتناول الكافرَ كما هو ظاهرٌ لِكلِّ أحدٍ.

لأنَّ الأصلَ في هذا كلِّه هو إغاثةُ المؤمنِ ومعونتُه عند عُسرهِ ودفعُ الضرر عنه، فلهذا جعل الله سبحانه وتعالى القرضَ أفضلَ مِنَ الصدقة لِمَا فيه مِنَ المعونةِ لِلمُعسِرِ المحتاجِ. فكيف تزيده ضرراً وتُحَمِّلُه إرهاقاً وحاجةً علَى ما هو فيه، بِأَنْ تُقرِضَه وتَطلبَ منه الزيادةَ علَى ما أقرضتَه؟! والكافر ليس أهلاً لهذا أبداً، فالرسولُ عليه الصلاة والسلام يقول: «**أَطْعِمُوا طعامَكُم الأَتْقِياءَ، وأَوْلُوا معروفكُم المؤمنين**». بل قد أثنَى اللهُ تعالى علَى مَنْ يُغِيظُ الكفارَ في إفْسادِ مالِهم وما يتمتعون به، كما قال تعالى: ﴿**وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ**﴾؛ فَرفَعَتْ هذه الآيةُ الصِّلَةَ الحسنةَ في معاملةِ الكفارِ

الذين لا عهد بَيْننا وبينهم ولا ذِمَّة.

فلهذا كانت أموالُ الأُورُبِّيِّينَ اليوم لا حُرمةَ لها، لأنَّ الحربيَّ هو ومالُه لا حرمةَ له. وقد ورَدَ في مُرْسَلٍ رواه البيهقي عن مَكْحُولٍ: «**لَا رِبَا بَين أَهْلِ الكُفْرِ وأَهْلِ الإِسْلامِ**»، وهو وإِنْ كان ضعيفاً، اِحتجَّ به مَنْ أجاز ذلك، لأنَّ المُرسَلَ عندهم حُجَّةٌ.

وسمعتُه يقول: "وإِلَى جوازِ معاملةِ الكفارِ بالرِّبا وأخْذِ أموالِهم بالطُّرقِ غيرِ المشروعةِ، ذهب إبراهيمُ النَّخعِي، وسفيانُ الثَّوْرِي، وأبُو حَنيفَةَ، واستدلَّ له الطَّحاوِي في "مُشْكَل الآثار" بِما يُعلَمُ مِنْ مراجعتِه، وكذلك أشار إلى دليلِه اِبنُ رُشدٍ في "المقدِّمات".

قال صاحب الترجمة: ويَظهرُ مِنْ كلامِه أنَّه يَميلُ إلى هذا القولِ أيضاً، فليُراجَعْ..". والموضوعُ له ذيولٌ خصَّه صاحبُ الترجمة بكِتابٍ خاصٍّ.

◆ ومما يراه وسمعتُه منه كثيراً، أَنَّ البلادَ الإسلاميةَ اليومَ لا تُسمَّى بهذا الاسم إلَّا تَجَوُّزاً، وهي جديرةٌ بأَنْ تُسمَّى دارَ فِسْقٍ كما قال الفقهاءُ.

لأنها وإِنْ كان أهلُها يَجهرون بالإسلام ويدَّعُونَ اِتِّباعَه، لكنهم لا يَحكُمون بما جاء به الإسلامُ أولاً. وقد سُئل حُذَيفةُ عن النفاق فقال: «هو أَنْ تَقولَ بِالإسلامِ ولا تَعْمَلَ بِه».

ثانياً: لا يستطيع المسلمُ فيها أَنْ يُغيِّرَ المنكَرَ الظاهرَ في كلِّ مكانٍ وبين كلِّ الناس، ولا يَستطيع كذلك أَنْ يأمرَ بالمعروف الواجبِ الأمر به، كالقيام بالفرائض التي لا يَتِمُّ إسلامُ المرءِ إلا بِها.

ثالثاً: أنَّه يُؤذَى الإذايةَ الكاملةَ البالغةَ إذا دَعَا إلى أحكامِ القرآنِ واِتِّباعِ السُّنةِ، كما هو المُشاهَدُ لكلِّ أحدٍ في كلِّ البلاد الإسلامية.

وبعضُ هذه المذكورات الموجودة في البلاد الإسلامية اليوم، يُحكَمُ على صاحِبِها بِالفِسْقِ، فكيف بها مُجتمعة في كلِّ شخصٍ وفَردٍ مِنْ أفرادِها؟! فلهذا

قال صاحب الترجمة: "يَنبغِي اليوم لِلمُسلِمِ الهجرةُ مِنْ هذه البلاد إلى البلاد الأوروبيةِ، لِتَمَكُّنِه فيها مِنَ القيام بأحكام دينِه بِدُونِ تحجيرٍ عليه وتَقييدِه في ذلك، مع حريتِه في الجهرِ بالتعريف بشريعة الله تعالى على حقيقتِها، بدون مداهنةٍ ولا مجاملَةٍ للمخلوق، ولا خوفٍ مِنْ إذايتِه. وقد أمرَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم بالهجرة إلى أرض الحبشة.

وقد قال العلماءُ منهم الحافظُ السُّهَيْلِي في "رَوْض الأُنُف": ((هذا الحكمُ مستمرٌّ إلى الآن، في كلِّ بلدٍ لا يتمكَّنُ فيه المسلمُ مِنَ القِيامِ بأحكام الشريعةِ إلا خائفاً مختفياً، فينبغي أَنْ يهاجِرَ منه كيفما كان هذا البلدُ إلى البلدِ الذي يتمكَّنُ فيه مِنْ ذلك كيفما كان ذلك البلد))". وقد أخبرني صاحبُ الترجمة أَنَّ له بحثاً مفيداً في هذا الموضوع.

◆ ويَرى أَنَّ خُطبةَ الجمعة سُنَّةٌ لا غير، وأَنَّها ليست شرطاً في صلاة الجمعة ركعتين. لأَنَّ الرسولَ عليه الصلاة والسلام لَمْ يَأمرْ بها وإِنَّما فَعَلها. والفِعلُ لا يَدلُّ على الوجوب إِلَّا بدليلٍ وهو غيرُ موجودٍ في الخُطبة.

ولِهذا يَذهبُ صاحبُ الترجمة إلى أَنَّ الجمعةَ تُصلَّى ركعتين، سواءٌ بِخُطبةٍ أَمْ لا، وسواءٌ كانت في جماعةٍ أَمْ لا. وأَلَّفَ في ذلك كتاباً أجاب فيه عن سؤالٍ لِبَعضِ علماءِ تِطْوان في موضوعِ صلاةِ الجُمعة بِدُونِ خُطبةٍ.

◆ ويَرى في التيمُّمِ أَنَّه يجوز بِكلِّ ما صَعَدَ علَى وجه الأرض، وهو الذي يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾. والصعيدُ ما صعد علَى وجهِ الأرض، لا فرق في ذلك بين ما هو طبيعيٌّ وصِناعيٌّ، هذا ما يدلُّ عليه مدلولُ اللغةِ لِلصعيدِ. ولم يَأتِ نصٌّ بتخصيص الصعيد الذي نَصَّ اللهُ تعالى عليه في التَّيمُّمِ بِنوعٍ مِنَ الأنواع، فَيَبقَى علَى عمومِه في اللغة، وهو ما صعد علَى وجهِ الأرض.

وأَمَّا قولُه صلى الله عليه وآله وسلم: «جُعِلَتْ لِي الأرضُ تُربَتُها طهُوراً»، فهو نصٌّ علَى بعضِ ما يُتَيمَّمُ به لا غير، لأَنَّه لا يدلُّ علَى عدم صلاحِ غيرِه لِلتيمم إِلَّا

بِطريقِ مفهومِ اللَّقَبِ، وهو غيرُ حُجَّة؛ ولهذا قال الحَسَنُ البَصرِيُّ: ((إذا أدركَتِ الرجلُ الصلاةَ ولم يَجِد الماءَ، ولَمْ يَصِلْ إلى الأرضِ، ضَرَبَ بِيَدِه علَى سَرْجِهِ وعلَى لَبدِهِ ثم يَتيمَّمُ بِه)). وعن حَمَّادٍ[1] قال: ((كلُّ شيءٍ ضربْتَ عليه يَديْكَ، فهو صعيدٌ حتَّى غُبارُ لَبدِكَ)). وقد ذهب إلى هذا جماعةٌ مِنَ الأئمَّة.

◆ وسمعتُه حفظه الله يُنْكِرُ أشدَّ الإنكارِ علَى الدول الإسلاميةِ التي تَبِيع البترولَ لِأُورُوبا وأمِريكا، وهو مِنْ أعظمِ المواد التي يَستعِينُ بها الكفارُ علَى صُنعِ الأسلحة التي يُحاربونَنا بها عن طريق إسرائِيل.

والمتفَقُ عليه بين الفقهاء، أنَّه لا يَجوزُ لِلتُّجارِ المسلِمين أنْ يَبِيعُوا لِلكفار شيئًا يَستعينون به علَى مُحاربتِنا، وكلُّ كُتبِ الفقه تَنُصُّ علَى هذا. وقد غفل عن هذا اليومَ علماءُ المسلمين في البلاد البترولِيَّةِ، فأجازُوا لِحكوماتِهم هذا العملَ الذي حرَّمه فقهاءُ الإسلام، لأنَّ فيه المعونةَ الظاهرةَ والمساعدةَ التامةَ لأهلِ الحرب علَى قتْلِ المسلمين والتنكيلِ بهم. ويَكفِي في ذلك، ما تَفعلُه إسرائيلُ بالمسلمين في فِلسْطِين بِواسطة السلاح الذي تَصنعُه المَصانعُ الأُوربيَّةُ والأمريكِيَّةُ، والتي لا تَدور ولا تَتَحرك إلَّا بالبترول الإسلاميِّ، بحيث لو اِنْقطع هذا البترولُ عن تلك الدول لَضَعُفَ أمرُ هذه القوة التي تَتَمتَّع بها إسرائيل.

ولهذا يَتعجب صاحبُ الترجمة مِنْ علماء المسلمين الذين لم يَرفعوا صوتَهم ضِدَّ هذا الأمرِ المُنكَرِ، الذي تقرَّرَ تحريمُه عند السَّلفِ والخَلَفِ، في حين نراهم يُقِيمون القيامةَ ويُنكِرُونَ علَى المسلمين الأُمورَ التافهةَ التي لا ضَرَرَ فيها مطلقاً بل نَفْعُها ظاهرٌ، كَالاحْتِفال بِالمولِدِ النبويِّ الشريفِ، وشَدِّ الرحلةِ إلى زيارةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، والاجتماعِ علَى قراءةِ القرآنِ والذِّكرِ. وكلُّ هذا بطبيعةِ الحال مِنْ تَلاعُبِ الشيطان وتَمكُّنِه مِنْ عقولِ هؤلاء العلماءِ، حتَّى صَرفَهم عن صمِيمِ ما يتعلَّق بِالدِّينِ ونُصرةِ المسلمين إلى الاشتغالِ بِمَا لَا يَعودُ الخلافُ فيه

1 - حمَّاد بنُ أبِي سُليمان، فقيهُ العِراق، هو مِنْ شيوخ أبي حنيفة. توفي سنة 102هـ.

والكلامُ عليه بِفائدةٍ مطلقاً علَى الإسلامِ والمسلمين.

◆ ويَرى أَنَّ تاركَ الصلاة عَمداً حتَّى خرج وقتُها مِنْ غيرِ عُذرٍ، لا يُمكِنُ له قَضاؤُها. ويُنكِرُ قولَ مَنْ يقول بالقضاء لِمخالفتِه للنصوص والقواعدِ المقررة. فمَنْ فَرَّطَ في صلاةٍ حتَّى فات وقتُها بدون عُذرٍ شرعيٍّ، فعليه أَنْ يُكثِرَ مِنَ الاستغفار والأعمالِ الصالحة مِنْ صلاةٍ وغيرِها، حتَّى يثقل ميزانُ حَسناتِه ويكونَ ذلك سبباً في مغفرةِ ذنبِه الذي هو مِنْ أعظمِ الذُّنوبِ بعد الشِّركِ.

◆ ويَرى جَوازَ الجمْعِ بين الصلاتين في كلِّ يومٍ لِمَنْ لا يُمكِنُه أداءَ الصلاة في وقتِها لِأَعذارٍ قاهرةٍ تَمنعُه مِنْ ذلك، كالذين يعملون في المَصانِعِ التي تَدور بِالآلاتِ المِيكانِيكِيَّة ولا يُمكِنُهم الانصراف عنها عند وقتِ الصلاةِ، ولا يَنصرفون مع ذلك مِنْ شُغلِهم إِلَّا بعد خروج الوقتِ؛ كالذي يَدخلُ بعد الظُّهرِ مَثلاً لِعَمَلِه ولا يخرجُ إِلَّا بعد المَغربِ، فهذا إذا لم يَجْمعْ بين الصلاتيْنِ قَبْلَ الدخولِ فاتَه العَصْرُ، وذلك مِنْ أعظم الكبائر، فجاز له الجمْعُ لأجلِ هذا؛ وكذلك طَلَبةُ المدارس الذين يُدركهم وقتُ العَصْرِ وَهُم في الفَصْلِ ولا يَنتهون إِلَّا بعد المَغْرب، فَلَهُم أَنْ يُصَلُّوا الظُّهرَ والعَصْرَ جَمعاً، ثم يُباشِرونَ دُروسَهم، لأَنَّ الجمْعَ لِعُذْرٍ وَرَدَتِ الرخصةُ بِه، وإِخراجُ الصلاةِ عن وقتِها لا يَجوزُ مطلقاً.

وقد أجاز الشارعُ قَصْرَ أركانِ الصلاةِ عند ضرورةِ القِتالِ لِأَجْلِ المحافظةِ علَى الوقتِ، فكذلك يَجوزُ الجمعُ بِتقديم صلاةٍ أو تأخيرِها مخافةً عن إِخراجِ الصلاةِ عن الوقت. وقد أفتَى ابنُ تيمية بِمِثلِ هذا، والقاعدةُ المقررةُ أَنَّ المَشقَّةَ تَجلبُ التَّيسيرَ، والله تعالى يقول: ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، ورسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إِذَا أَمرتُكُمْ بِأَمْرٍ فَاءْتُوا مِنْه مَا اِسْتطَعتُم». والعاملُ والطالبُ المُكْرَهانِ علَى لُزوم عملِهما، لا يَستطيعان أداءَ الصلاةِ في وقتِها المفروضِ إِلَّا جمْعاً، فيجوز لهما ذلك.

◆ وسمعتُه يقول: "إنَّ المسلمينَ اليومَ في بلادِهِم يُعامَلُونَ معاملَةَ أهل الذِّمةِ في الصَّغارِ والذِّلةِ، لأنَّهم يُلْزَمونَ بِحُكمِ القانونِ المأخوذِ مِنَ النَّصارَى المُخالِفِ لِحُكمِ القرآنِ جملةً وتفصيلاً؛ وقد قال الشافعي رضي الله تعالى عنه: ((المُرادُ بِالصَّغار في أهلِ الذِّمة اِلْتِزامُ حُكمِ الإسلام، لأنَّ الحكمَ على الشخص بما لا يَعتقده ويَضطرُّ إلى اِحْتمالِه يَستلْزِمُ الذُّلَّ)). قال صاحب الترجمة: وهذا هو حال المسلمين في بلادهم اليوم، فَهُمْ في صَغارٍ دائمٍ بِسببِ حُكمِ الكفار الذي يَتحاكمون إليه. ولهذا أصبح الكفارُ لهم السلطانُ في الباطن لأجل حُكمِهم النافذِ على المسلمين في جميع شؤونهم، ولا حول ولا قوة إلَّا بِاللهِ العَلِيِّ العظيمِ..".

فَيجبُ علَى المسلمين أَنْ يَعملُوا في دفْعِ هذا الصَّغارِ وهذا الذُّلِّ المضروبيْنِ عليهم، لأنَّ العِزَّةَ للهِ ولِرسولِه ولِلمؤمنين.

◆ ويَذهب حفظه الله إلى أنَّ الإمامَ إذا صلَّى جالساً لِعذْرٍ، يَجبُ على المأمومِينَ وراءَه أَنْ يُصلُّوا جلوساً أجمعين، كما ورَدَ في الحديث الصحيح. ويَرى بطلانَ ما يدَّعِيهِ الفقهاءُ مِنْ نَسْخِ هذا الحكمِ. وسَمعتُه يُفتِي بهذا مَنْ سأله عن حُكمِ المسألةِ غيرَ ما مرَّةٍ.

◆ ويختار أَنَّ المسافرَ إذا صلَّى وراءَ المُقيمِ فَفَرْضُه ركعتان، خلافاً لِمَا يَقوله الفقهاءُ. ويَرى أَنَّ المسافرَ في ذلك علَى أمرين: إمَّا أَنْ يَنتظرَ سَلامَ إمامِهِ المُقيمِ، أو يُسلِّم ويُفارقه.

لأنَّ صلاةَ السفرِ فُرِضتْ ركعتين كما ورَدَ، والإمامُ لا أثَرَ له في تغييرِ أركانِ الصلاةِ، بِدليل أَنَّ المُصلِّي لو أدرك مع الإمام ركعةً أو ركعتينِ فَعَليه أَنْ يُتِمَّ صلاتَه، فلو كان لِلاقتداءِ تَعلُّقٌ بِتغييرِ أركانِ الصلاةِ لكان هذا أوْلَى حيث يَتَكرر في اليوم مرّاتٍ، وإنما الواجبُ في اِتِّباعِ الإمامِ هو ما بيَّنَه الحديثُ، وهو عدم مسابَقَتِهِ في الركوع والسجود وسائرِ الأفعالِ الأخرى، كما نصَّ علَى ذلك الحديث.

◆ ويختار وضْعَ الرّكْبَتَين قبل اليَدَين عند الهوِيِّ إلى السُّجود في الصلاة، ويقول: "إنَّ الحديثَ الذي إِستدلُّوا به علَى خلاف هذا فِيه ضعفٌ، ووَقَعَ فيه قَلْبٌ.."، إلى آخر ما سمعتُه منه.

◆ ويُفتِي بِإباحةِ الاستمناءِ بِاليَدِ لِمَن اِحْتاجَ إليه، مِنْ غيرِ كراهةٍ مطلقاً؛ كما ذهب إليه جماعةٌ مِنَ الصحابة والتابعين وغيرِهم، وقد قال اِبنُ عَبّاس إِنَّه خيرٌ مِنَ الزِّنا.

والآيَةُ التي اِستدلوا بها على تحريمِه غيرُ ظاهرةٍ في ذلك، كما قال غيرُ واحدٍ مِنَ الأئمَّةِ. والحديثُ الواردُ في لَعْنِ ناكِحِ يَدَيْهِ، وَاهٍ لا يُحتجُّ به في الفضائل والرغائب، فضلاً عن التحريم.

◆ ويُصحِّحُ الحكمَ بِثُبوتِ النَّسبِ وإلْحَاقِ الوَلَدِ مِمَّنْ يُنكِرُه، إذا ثَبَتَ عن طريقِ تحليلِ الدَّمِ أَنَّ دَمَ المولودِ مِنْ دَمِ الرجلِ المُدَّعَى عليه. ويَرَى الحكمَ بهذا أقوى بإلحاق الولد بِالقَافَةِ التي حَكَمَ الصحابةُ بِإِلْحاقِ الولدِ بها، كما رَوَى اِبنُ أَبِي شَيْبَةَ في "المُصنَّف" بِسنَدٍ صحيحٍ، عن أَنَس: أَنَّه شَكَّ في وَلَدٍ لَه، فَأَمَرَ أَنْ يُدْعَى له القَافَةُ.

ورُوِيَ أيضاً عن عبدِ الرحمنِ بنِ عَوفٍ: أَنَّه باع جاريةً كان وَقَعَ عليها قَبْلَ أَنْ يَسْتَبرِئَها، فظهر بها حَمْلٌ عند الذي اِشتراها، فخاصَمه إِلَى عُمَرَ، فسأله عمرُ: هل كُنتَ تَقعُ عليها؟ قال: نعم، قال: فَبِعْتَها قَبلَ أَنْ تَسْتَبرِئَها؟ قال: نعم، قال: ما كُنتَ بذلك بِخَلِيقٍ. قال: فَدَعا القافةَ، فنظروا إليه فألْحَقُوه به. قال: فَوُلِدَ له منها ولدٌ، فما عيَّروه بِه.

وثبت في الصحيح فَرَحُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم بِحُكْمِ القائِفِ الذي شبَّهَ رِجْلَيْ أُسامَةَ بن زيْدٍ بِرِجْلَيْ أبِيهِ. فإذا اِكتفَى الشرعُ بالقافة في ثُبوتِ النَّسَبِ، فَالاكْتِفاءُ بذلك بتحليل الدَّمِ لِإِثْبَاتِ النَّسبِ وإِلْحاقِ المولودِ أقوَى في ذلك مِنَ القَافَةِ.

◆ ويَرى بُطلانَ قولِ المتكلِّمِينَ إنَّ قدرةَ الله تعالى لا تَتعلق بِمستحيلٍ، وقال: "إنَّ هذا القولَ مِمَّا بَقِيَ مِنْ مذهبِ الاعتزالِ عند الأَشْعريَّةِ، ويقولون: إنَّ المستحيلَ هو ما يستحيلُه العقلُ.

قال صاحب الترجمة: وهنا نسألهم عن هذا العقل الذي يُقيِّدونَ به قدرة الله تعالى، هل هو عقلُ فلاسفة اليُونان؟ وقد كفروا في جميع ما أَتَوا به مِنْ أفكارٍ وأقوالٍ؛

أَمْ هو عقلُ العَرَبِ؟ الذين كانوا يَعبدون الأوثانَ مِنْ شجرٍ وحَجرٍ!!

أو هو عقلُ الأُورُوبِّيِّين؟ الذين يُجيزُ عقلُهم أَنَّ الخالقَ ثالِثُ ثلاثةٍ، وأَنَّ ربَّهم صُلِبَ وقُتِلَ وسال دمُه!! أَمْ عقلُ المعتزلةِ؟ الذين كفَّرهُم أهلُ السُّنةِ في أغلب ما أتَى به عقلُهم في العقيدة؛ أو عقل الأشعريَّةِ؟ الذين رأَى أهلُ الحديث ومَنْ كان علَى مذهب السَّلفِ أنَّهم جَهْمِيَّةٌ -(الذين ينكرون صفات الله)- مَرقُوا عن السُّنةِ والعقيدة؛ أمْ عقلُ غيرِهم مِنَ الفِرَقِ الضَّالَّةِ التي تَزيدُ علَى السَّبعينَ كما أخبر الرسولُ صلى الله عليه وآله وسلم؛ أَمْ ماذا؟

فلهذا، يَقولُ صاحبُ الترجمة، عليهم أَنْ يُعيِّنوا عقلاً مِنْ هذه العقول التي يُرجعُ إليها ويُحتَكَمُ لَها فيما يَجوز علَى قدرة الله وما لا يجوز. وهذا ما لا يُمكِنُهم أَنْ يأتوا به، لأَنَّ ما مِنْ طائفةٍ مِنْ هذه الطوائف وهذه الفِرَقِ التي بَلَغَتِ الثلاثَ والسبعينَ، إلَّا وكل واحدةٍ منها تَرى أَنَّ عقلَها هو الذي يَجب الرجوعُ إليه والاحتكامُ إليه.

مع أَنَّ الأشعريَّةَ أنفُسُهم يَحكمون بِبطلانِ ما فهِمَتْهُ عقولُ هذه الطوائف فيما يتعلَّق بِذَاتِ اللهِ تعالى وصفاتِه.

فلهذا كان هذا القولُ خطأً محضاً وغلطاً واضحاً لا يجوز للمؤمنِ أنْ يقولَ به، فقدرةُ الله صالحةٌ لكلِّ شيءٍ. وكلُّ ما يقع السؤالُ عنه مِنَ العقلِ مِنَ الممنوعاتِ فهو جائزٌ في قدرة الله، لأَنَّ الله سبحانه وتعالى يقولُ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾،

ويقول: ﴿وَلَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾. ولكن قدرته تعالى لا تتعلق بشيء لا يريده، ولهذا قال: ﴿لَوْ أَرَدْنَا﴾. وما ظهر اليوم من الاختراعات فيه الردّ الكافي على هذا القول الباطلِ..".

◆ ويرى أنَّ النبوَّةَ التي لا تُكتسبُ هي نُبوَّةُ التشريع والقيامِ بتبليغ دينِ الله تعالى للعبادِ، فهذه لا تُدرَكُ بعملٍ وعبادةٍ، وإنما هي مِنْ باب الاختصاصِ الإلـهيِّ الذي يصطفي له سبحانه مَنْ شاء مِنْ عباده.

وأمَّا مقامُها ومرتبتُها وحصولُ درجاتِها بالاجتهاد في العبادة، والعملِ بما يقرِّبُ العبدَ إلى الله، فهذا يُكتَسبُ مِنْ غير شكٍّ. وقد قال وَهْبُ بنُ مُنَبِّه فيما رواه الإمامُ أحمدُ في "الزهد"، قال: ((كان الرجلُ مِنْ بَني إسرائيلَ إذا تعبَّدَ أربعينَ سنةً أُوحِيَ إليه؛ فعَبَدَ رجلٌ لِغَيرِ رَشدَةٍ (ابنُ زنىً) أربعين سنةً، فلم يُوحَ إليه، فقال: يا ربِّ ما ذنبي فيما صنع أبوايَ. فلم يَزَلْ يدعو حتى أوحيَ إليه)).

فهذا الخبر يدلُّ علَى أَنَّ النبوةَ مكتسبةٌ، وأَنَّ العادةَ في بَنِي إسرائيلَ جَرَتْ بأَنَّ الرجلَ يُنبَّأُ بعد عِبادةِ أربعين سنة، ولكنَّ هذا اِنقطع بعد بِعثةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يَبقَ في هذه الأمة إلَّا الوصولُ إلى درجة النبوة مِنْ غيرِ وحيٍ، لأنَّ نبيَّنا هو خاتمُ النبيِّين. ولهذا اِشتهر علَى ألسنة السَّلف، وذكَر الشيخُ الأكبرُ في "الفتوحات" أنَّه حديثٌ ثابتٌ مِنْ جهة الكشف، وهو: «عُلماءُ أُمَّتِي كَأَنبِيَاءِ بَنِي إِسْرائِيل».

وورَدَ ما يَشهدُ ويدلُّ علَى ثُبوتِ درجة النُّبوةِ لِأفرادِ هذه الأُمَّة في الحديث الوارد في الصحيح: «قَدْ كان قَبْلَكُمْ مُحَدَّثون، فإِنْ يَكُنْ في هذه الأُمَّةِ فَعُمَر».

قال صاحب الترجمة: "وعندي أَنَّ عليًّا عليه السلام ممن نال هذه المرتبةَ، يَعني درجة النُّبوةِ التي تُكتَسبُ بالعمل. ويدلُّ علَى ذلك قولُه صلى الله عليه وآله وسلم مخاطِباً له: «أنتَ مِنِّي بِمَنزلةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى».. ثم أضاف الشيخُ الإمامُ صاحبُ الترجمة يقول: ولِعُلماءِ الكلام في هذا الموضوع قولٌ يحتاجُ إلى

تحريرٍ ولا أَقولُ به..".

◆ ويَرى أَنَّ الخمرَ طَاهرةٌ غيرُ نَجِسَةٍ، فإِنَّ النَّجِسَ ما وقع الإخبارُ به عن الشارع في ذلك، والخمرُ إنما قال الله تعالى عنها إِنَّها رِجْسٌ؛ والرِّجسُ غيرُ النَّجِس حتَّى عند مَنْ يَقول بِنجاسة الخمر، لأَنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

والقائلون بِنَجاسةِ الخمر لا يَقولون بِنجاسة ما ذُكِرَ بَعدَها في الآيةِ، فَمِنْ أين جاءَهم تخصيصُ الخمر بالنجاسة لِكَونها رِجساً عن المَيْسِرِ والأَنْصابِ والأَزلام، اللهم إلاَّ الدَّعوى، والقول بالفهم المُجرَّدِ.

قال: "ولِهذا يَجوزُ إِستعمالُ (كُولُونْيا)، والصلاة بها، وطَبْخُ الأكلِ والشَّاي علَى الآلَةِ التي تُوقَد بالكحول..".

ثم قال: "وإِنْ قالوا: العلَّةُ في النجاسة هي الإِسْكارُ، قُلنا لهم: فَلِماذا لم تَقولوا بِنجاسة ما يُسْكِرُ مِنْ غيرِ الخمر كَالبِنْجِ، والأَفْيُون، والمُورْفِين، والكُوكايين، وربما كان إِسكارُ هذين الأخيرَيْنِ أشدَّ مِنَ الخمر؛ فَتَخصيصُ الخمر بذلك دُونَ غيرِها مِنَ المُسْكِرات تَحَكُّمٌ بِدون دليلٍ..".

ثم قال حفظه الله: "فإِنْ قالوا: الخمرُ فيها الحدُّ. قُلنا: الحدُّ لأجلِ إِقْدامِ شارِبِها على ذهابِ عقلِه، ولأَنَّه إذا سَكَرَ هَذَى، وإذا هَذَى اِفْتَرَى، ومَنِ اِفْتَرى وَجَبَ عليه حدُّ المفترين كما قال الإمامُ عليٌّ عليه السلام.

ولو كانت الحدودُ يَدخلُ فيها القياسُ والنظرُ، لكان يَجب الحدُّ أيضاً علَى الذي يَتَعاطَى الكُوكايين والمُورفِين لِشِدَّةِ إِسكارِهِما وعظيمِ ضررِهِما، بل شَذَّ اِبنُ تيمية رحمه الله فقال بالحدِّ في الحشيش.

فالحدُّ لا يَدلُّ علَى نجاسةِ الخمرِ، لأَنَّ القولَ بذلك تَقَوُّلٌ محضٌ، بل الحدودُ غيرُ مُعلَّلَةٍ، وإِنَّما هي شيءٌ أوجَبَه اللهُ تعالى فَوجَبَ الإذعانُ والتَّسليمُ مِنْ غيرِ بحثٍ عن علَّتِه. لأنَّ الذي يَلتمس العِلَلَ لِأَحكامِ الشرع يَخونُه فهمُه غالباً في

الأحكام الأخرى التي لا يُمكِنه أنْ يُدركَ لها علَّةً. مثال ذلك: الرجلُ الذي تَزوَّجَ يوماً واحداً مِنْ عُمرِهِ البالِغِ مائةَ سنَةٍ، يُعدُّ في حُكمِ الشارع مُحْصَنًا يَجبُ رَجْمُه بالحجارة إذا زَنَى مرةً واحدةً.

فلو كان الرَّجمُ مُعلَّلاً تَغليظُه لأجل وجودِ الزوجة المانعةِ مِنَ الوقوع في الزِّنا، لَما اِعْتَبر الشارعُ هذا مُحصَنًا، ولكان حُكمُه في ذلك حُكمَ الرجلِ غيرِ المتزوجِ وهو جَلْدُ مائةٍ وتَغريبُ سَنَةٍ عن بلده.

ولكن هي الحدودُ لا تُعلَّلُ، بل أحكامُ الشريعة لا يَدخلها التعليلُ مُطلقاً. ومَنْ حاول ذلك إنما يَخوضُ فيما لا يَستطيعُ أنْ يُقيم عليه الدليل، كما تَرى ذلك في كلام مَنْ حاول هذا الأمرَ الذي ما ظهر إلَّا مع ظهور تحكيمِ العقل بين المسلمين، وتَعلُّقِهم بالتعقل في كلِّ شيءٍ مِنْ أوامرِ الله ونواهيهِ، حتى أتوا في ذلك بالمنكَرات التي لا يَرضاها الله تعالى.

وصدَقَ الإمامُ عليٌّ عليه السلام حيث قال: ((لو كان الدِّينُ بِالرأْيِ لَكانَ مَسْحُ أَسفَلِ الخُفِّ أَوْلَى مِنْ أَعْلاه)). فقد أشار عليه السلام إلى عِلمٍ كبيرٍ في هذا الباب بهذه الكلمةِ الصغيرة المختصرة، ولو تَعرَّضَ المرءُ لتفسيرها وذِكْرِ ما يَدخل تحتها مِنْ قضايا الشرعِ التي تُماثِلها في الحكم، مما يدلُّ علَى أنَّ الدِّينَ لا يَدخلُه العقلُ والفهمُ بِالرأيِ العاري عن الدليل، لَأَتَى بِما يَصعُبُ حَصْرُهُ.

ويكفي الإنسان في ذلك أَنْ يَتَتبَّعَ أحكامَ العِدَّةِ مِنْ أبوابِ النكاح، في كُتبِ الفِقه، لِيَعلم أَنَّ العقلَ لا دخْلَ له في العبادات، ولا في المعاملات التي يَزعمون أَنَّ أمورَها غيرُ تعبُّديةٍ ولِلعقلِ فيها نصيبٌ. وآخِرُ مَنْ حاول تعليلَ أحكامِ الشريعةِ وَلِيُّ اللهِ الدِّهْلَوِي في كتابه "حُجَّة اللهِ البالغة"، ومَنْ راجعه يَرى فيه التَّكلُّفاتِ البالغَةَ في كثيرٍ مِمَّا أتَى به مِنَ التعليلات..".

ثم أضاف صاحبُ الترجمة يقول: "وقد اِختلف العلماءُ بين الحُكمِ المُعلَّلِ وغيرِ المُعلَّلِ أيُّهما أفضل؟ فقالوا: إنَّ الحكمَ التَّعبُّدِي الذي لا تُعلَمُ له علَّةٌ

أفضلُ، لأنَّه يَدعو إلى الإذعان بِدون تَعَقُّلٍ، وذلك مَحْضُ الإيمان".

◆ ويُنكِرُ قولَ الفقهاء: "الخِلافُ رَحْمة"؛ ويراه مخالِفاً لِقولِه تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾. فقد رَفَع الله تعالى الرحمةَ عن أهلِ الاختلاف كما هو نصُّ الآية؛ وقد جعل الفقهاءُ قَولَهم هذا ذريعةً ووسيلةً إلى تركِ العمل بالنصِّ إذا خالفه مذهبُهم، ويَستدلون علَى ذلك بالحديث الموضوع الذي لا يُوجَد له أصلٌ وهو: «اِخْتِلافُ أُمَّتِي رَحْمَة».

وكيف يكون الاختلافُ رحمةً واللهُ تعالى يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾؟ فأهلُ الرحمةِ غيرُ مختلِفينَ ولا يُوصَفون بالخلاف بِنصِّ الآية التي يدلُّ نصُّها علَى أَنَّ أهلَ الخلافِ غيرُ مرحُومِين، كيفما كان هذا الخلافُ، لا سِيَما ورسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «الجَماعةُ رَحمةٌ وَالْفُرقةُ عَذابٌ»، ويقول عليه الصلاة والسلام: «الجماعةُ بَركَةٌ».

◆ ويُنكر علَى الفقهاءِ إِستدلالَهم علَى جوازِ القياسِ في الأحكام بِقولِه تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾، ويراه إِستدلالاً بعيداً للغايةِ جدًّا.

قال: "وهو مِنْ أفسَدِ الاستدلالاتِ وأسقَطِها في نظري، وما رأيتُ إِستدلالاً أفسَدَ منه، ولاأبعَدَ عن الحقِّ والصوابِ منه، وأضاف يقول،: نَعم، الاعتبارُ هو قِياسُ شيءٍ بِشيءٍ، ولكنَّ الآيَةَ تدلُّ بِمنطوقِها علَى أَنَّ الاعتبارَ هُنا هو الاتِّعاظُ، لأنَّ اللهَ تَعالى يقول: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

والاستدلالُ بها علَى قياس الأُرْزِ علَى البُرِّ، وَالشَّعيرِ على الزَّبيبِ في الربَويَّاتِ مثلاً يُخْرِج الآيَةَ مِنْ نظامٍ ونَسقٍ إلى نظامٍ ونسقٍ لا علاقةَ لَهُما بِموضوعِ الآيةِ، ولا يَرتبطُ أَولُه بِباقِيهِ، وبذلك تَحصلُ الركاكةُ في الكتاب القيِّمِ العزيزِ، تعالَى اللهُ عن ذلك. علَى أَنَّ بعضَ الأئِمَّةِ أَنْكَر أَنْ يَكونَ: اِعْتَبِروا، في لغة العرب بِمَعنى: قِسُوا..".

◆ ويَرى أَنَّ تعليمَ البِنتِ وتَفقُّهَها في دِينِها مطلوبٌ إذا كان علَى الطريقة الشَّرعيةِ، بل يُستحَبُّ لها ذلك، كما أثْنَتِ السيدةُ عائشةُ رضي الله تعالى عنها علَى نساءِ الأنصارِ بِقولها: ((نِعْمَ النِّساءُ نِساءُ الأنْصارِ، لم يَمنَعْهُنَّ الحياءُ أَنْ يَتفقَّهْنَ في الدِّينِ)). وقد كان عصرُ الصحابةِ والتابعِين ومَنْ بَعْدهُم يَأخذُ العِلمَ والحديثَ عن النِّساء، وما ذلك إلَّا لِتَعلُّمِهِنَّ وَرِوايَتِهِنَّ الحديثَ؛ وكُتُبُ التاريخِ شاهدةٌ بذلك لا يُنكِرُهُ أحدٌ، وحديثُ: «طَلَب العِلْمِ فَريضَةٌ علَى كلِّ مُسْلِمٍ»، دليلٌ علَى هذا.

وقد قال حفظه الله في هذا الموضوعِ: "ولكن إذا كانَ تعليمُ البِنت على الطريقة المتَّبعةِ اليومَ، فإنَّه لا يجوز شرعاً، لِعَدم صَلاَحِيَةِ الوَسطِ الذي تتعلَّم فيه البنتُ داخل المدرسة وأماكن التعليم. لأنَّ حالَ الفِسقِ والمرُوقِ عن الدِّينِ صفةٌ غالبةٌ فيها، ولا مكانَ للأخلاقِ والفضيلة فيها.. وهذا أمرٌ يَلحظُه الجميعُ بِما فيهم أهلُ التعليم، ولا يُنكره أحدٌ.

وإذا وصَلَ الحالُ بالمجتمع إلى هذه الصِّفة، فإنَّه لا يجوز للمرأةِ أنْ تذهبَ إلى المسجِدِ الذي في الذهابِ إليه الفضل والأجر، وأداءُ الفريضةِ مع ذلك. وقد أذِنَ لها رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم في الذهابِ إليه وقال: «لا تَمنَعُوا إِمَاءَ اللهِ مساجِدَ الله».

ومع ذلك قالت السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها: ((لو رأى رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أحْدَثَ النساءُ بَعْده لَمَنَعهنَّ إِتْيَانَ المساجِد)).

فكيف لو رأَتِ السيدة عائشة البِيئَةَ المحِيطَةَ بالمرأةِ اليوم والوَسَطَ الذي تتعلَّمُ فيه؟!؟!

فالبيئة المحيطةُ بالتعليم العصري تُعارض أمرَ الله بوجوب حجاب المرأةِ وابتعادها عن الرجل الأجنبيِّ عنها؛ وتؤدِّي إلى ما حرَّم الله تعالى كالخلوةِ، والاختلاطِ والمحادثة، والاحتكاك... إلى غير هذا ممَّا حرَّمه الله ورسوله.

ثم إنَّ المرأة ليست لها المناعة الكافية التي تمنعها مِنَ الاستسلام لمن يُراودها إذا رأت أنَّ مصلحتَها في النجاح قد تضيع بعدم إجابة المسؤول عن ذلك، كما قال عُمرُ رضي الله عنه: ((إنَّما النساءُ كَلَحمٍ عَلَى وَضَمٍ إلاَّ مَا ذُبَّ عنه)). ولهذا نهَى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن كسبِ الإماءِ، وعلَّلَ ذلكَ بأنهنَّ إذا عجزْنَ عن العملِ سعيْنَ بفروجهنَّ.

وهذا الأمر أصبح محقَّقاً في الوقت الحاضر، لا يشكُّ فيه عاقلٌ.. فكم مِن خبرٍ واقعٍ نُشِرَ عن المراوَدات للبنات في التعليم مِن هيأتِه من أجلِ النجاح... إلخ.

فتعليم البنت بالطريقة المعاصرة التي نراها الآن أمرٌ لا مريةَ في تحريمه، إذ كُلُّ وضعٍ للبنتِ داخل المؤسسة التعليمية فيه نَصٌّ شرعيٌّ على عدم جوازه بدءاً من الخلوة بالمعلِّم وأهلِ الإدارة، إلى المحادثة، فالاختلاط المشِينِ الذي لا يسلم من فسادِه أحدٌ. فرسول الله صلى الله عليه وسلم أمرَ أولياءَ الأمور إذا أدركَ أبناؤهم العَشْرَ أَن يُفرِّقُوا بينهم في المضاجع، هذا وهم إخوةٌ، وهُم أشقّاء. وهُم مع ذلك صغارٌ لا صبوة لهم وليسُوا مِن أُولِي الإربَةِ.

ومع ذلك لمَّا كان دينُنا الحنيفُ ينظُر قبل كلِّ شيْءٍ إِلَى دَرْءِ المفَاسِدِ قبل جَلْبِ المصالح، وإِلَى سَدِّ الذرائِعِ فِي وجه مداخل الشيطان، خَطَّ الرسولُ عليه الصلاة والسلامُ وأَمَرَ بالتفريق بين الإخوة الأَشقَّاءِ في المضاجِع، فقال عليه السلام: «**مُرُوا أَبناءَكُم بِالصَّلاةِ أبنَاءَ سَبْعٍ، وِاضربُوهُم عليها أَبْنَاءَ عَشْرٍ، وفَرِّقُوا بينهم في المضَاجِعِ**». لاحتمال أن يقع في ذلك التقارب في المضاجع رغْمَ صِغَرِهم مَا لاَ تُحْمَدُ عُقباه. لأَنَّهم صاروا مَظَنَّةً لذلك، حيثُ قاربُوا البلوغَ.

فكيفَ بِالبنتِ الأَجنبيةِ البالغةِ المستوفيَةِ لشُرُوطِ الملاَعَبَةِ والإغراءِ، وهيَ جالسةٌ أَمَامَ شَابٍّ مِثلِها طائشٍ مراهِقٍ، لعلَّ حالَه يدعوه إِلَى أَنْ يَعملَ جميع الوسائِل لِيَصل لموَاعَدَتِها؟ وكيف بِها وقد جالسَتْه محتكَّةً به، وهو بِها؟!

فَظُنَّ ما تَشاءُ في هذه الجلسةِ التي جمعت بينهما في كرسيٍّ واحدٍ ممَّا يُسَوِّله الشيطان ويأمرُ بِه عندما يجلس الشابُّ مِن الشابةِ هذا المجلِسَ. فإذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام لمَّا كانَ في حجَّةِ الوداعِ، وكانَ مُردِفاً الفضلَ بنَ العبَّاسِ رضي الله عنه، وكان شابّاً، وجاءت إمرأَةُ خُثَعْمِيةٌ وهي شابةٌ كذلك، تسألُه، فَصار رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يَصرفُ وجْهَ الفضْلِ عنها، وقال: «**رأيتُ شَابّاً وشَابَّةً فلَم آمَنِ الشيطانَ عليهما**».

فكيف إذا جَالَسَها وتحدَّثَ إليها، ولانَتْ له في الكلامِ ولاَنَ لَهَا، ثم غَازلته وغَازَلَها... ومع هذا التفسخ الخلُقي، والفِسقِ الغالب؟!..

لهذا أجزمُ بأنَّ تعليمَ البنت في المدارس المختلطة أمرٌ محرَّمٌ شرعاً... بل فيه المجاهرَةُ بالمعصية.. ومعلومٌ حال مَن يُجاهِر بها..".

◆ ويُـنكِر ما شاع بين الناس مِنْ تسميةِ مُعاويـةَ خليفةً، ويَرى القولَ بذلك بعيداً عن الحقِّ والصوابِ، بَعْدَ أَنْ قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**الخلافَةُ بَعْدِي ثَلاثُونَ سَنَةً ثُمَّ تَكونُ مُلْكاً عَضُوضاً**». وقد تَـمَّت هذه الثلاثونَ بِـخلافة الحَسَنِ عليه السلام، ومُدَّتُـها سِتَّة أشهرٍ.

فالحديثُ ظاهرُ الدلالةِ ونَـصٌّ في أَنَّ معاويةَ كان مَلِكاً ولم يَكُنْ خليفةً، فكيف نَتركُ ونَدَعُ الدليلَ ونَتَّبعُ الرأيَ الـمُجردَ عن الدليل؟! هذا ما لا يقوله عاقلٌ. ومع الأسف فقد اِشتهرَ واِنْتشر هذا الخطأُ الشنِيعُ بين أهلِ العِلم في شرقِ الأرضِ وغربِها، فصاروا يُعبِّرون عن أيامِ مُلْكِ معاويةَ بِخِلافةِ مُعاويـة.

وقد قال حُـذَيْفَةُ بنُ اليَمَانِ فِيما رواه نُعَيْمُ بنُ حَـمّاد في "الفتن": ((يَكونُ بَعدَ عُثْمانَ اِثْنَا عَشَرَ مَلِكاً مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ، قِيلَ له: خُلفاء؟ قال: بَل مُلوك)).

وسيرتُـه تدلُّ على بُعدِه عن وصفِ الخلافةِ الشرعيةِ، فقد قالوا مِنْ صفةِ الخليفةِ ما رواه اِبنُ سَعْدٍ في "الطبقات": أَنَّ عُمرَ بنَ الخطَّابِ رضي الله تعالى عنه قال لِسَلْمانَ الفَـارِسِيِّ: أَمَلِكٌ أنا أَمْ خليفـة؟ فقال سَلمانُ: إنْ أتاكَ مِنَ الـمُسلِمِينَ دِرْهَمٌ،

أو أَقَلَّ أو أكثر، ثم وضعْتَه في حقِّهِ، فأنت خليفةٌ غيرُ مَلِكٍ. -ورواه اِبنُ جَرِيرٍ في "تاريخه"-.

وروى أيضاً عن عُمَر قال: واللهِ ما أدري أَخليفةٌ أنا أَمْ مَلِكٌ؟ فإنْ كُنتُ مَلِكاً فهذا أمرٌ عظيمٌ؛ قال قائلٌ: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ بَيْنَهما فَرقاً. قال: ما هو؟ قال: الخليفةُ لا يأخذُ إلَّا حقًّا، ولا يَضَعه إلَّا في حَقِّه، وأنت بِحمدِ الله كذلك. والمَلِكُ يَعْسف الناسَ فَيَأخذُ مِنْ هذا ويُعْطِي هذا.

ويدلُّ علَى بُعدِ معاويةَ عن هذه الصفة، وأنَّه ملِكٌ كما قال سَلْمانُ وغيرُه، أنَّه كان يُعطِي الشعراءَ ويُغْدِقُ عليهم الأموالَ الطائلةَ، الأمرُ الذي يدلُّ علَى أَنَّهُ كان يَضَعُ أموالَ المسلمين في غيرِ حقِّها. وقد صرَّح العلماءُ أَنَّ أوَّل مَنْ حَوَّلَ الخلافةَ مُلكاً معاويةُ.

◆ ويخالف مَنْ يقول في حديث: «**يُوشِكُ أَنْ يَضرِبَ الناسُ أَكْبادَ الإِبِلِ في طَلَبِ العِلْمِ فَلا يَجِدونَ عالِماً أَعْلَمَ مِنْ عالِمِ المَدينَةِ**»، أَنَّ المرادَ بالعالِمِ في الحديث الإمامُ مالِك رضي الله عنه، كما اِتَّفقَ عليه المالكيةُ، وفَتَحَ لهم البابَ في ذلك سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَةَ.

قال صاحبُ الترجمة: "وهذا حَمْلٌ غيرُ صحيحٍ ولا يؤيِّده الواقعُ، وذِكرُ أدلةِ بطلانِ هذا الحمْلِ يَطولُ، ولكن نُشِيرُ إلى ما يَدفعُ هذا البطلانَ في معنَى الحديث:

فالمرادُ بِعالِمِ المدينةِ في الحديث هو النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم نفسُه، وهو يُشيرُ إلى ما ظهر في وقتِنا مِن اِلْتِماسِ الدولِ الإسلامية وغيرِ الإسلاميةِ الحلولَ لِمَشاكِلِها الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وغيرِها، عن طريقِ أقوال مَنْ يُسمُّونَهم بِفلاسفةِ الغربِ ورجالِ الفِكر، وعلماءِ الاجتماع، والأخذ بأفكارهم في الوصول إلى حلِّ مشاكلِ الحياةِ التي أحاطت بالعالَمِ مِنْ كلِّ جانِبٍ، واِعتناق المذاهب التي ظهرتْ مِنْ جِهَتِهم، وجاءت عن طريقِ أفكارهم الفاسدةِ، كالشيوعية، والاشتراكية، والرأسمالية؛ كما فَعَلَ كثيرٌ مِنَ الدُّولِ التي تدَّعي الإسلامَ

في السَّيرِ علَى هذه الأنظمة الفاسدة، فأخفقوا إخفاقاً عظيماً، وخسروا خسراناً مُبيناً، كما هو ظاهرٌ لِكلِّ مَنْ تَـتَبَّعَ أحوالَ هذه الدول، وما تعيش عليه مِن اِنحلالٍ وفسادٍ، وظُلمٍ واستبدادٍ.

وسببُ ذلك، أنَّهم تركوا حُكمَ الإسلام في إصلاحِ المجتمعِ وحمْلِه على شريعةِ القرآنِ والتشريعِ النبويِّ القويمِ، كما قال تعالى لِنَبِيِّه عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. فوقعوا في الكوارث التي لم يَجِدوا مَخرجاً منها إلى الآن.

فأخبرَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الحديث أَنَّ أهلَ الأرضِ عموماً لا يَجِدون عالِماً بِحلولِ جميعِ المشاكلِ الاجتماعية، والاقتصاديةِ، والسياسية وغيرها، التي يتخبطون فيها، والتي تطورت وكَثرتْ بِتطوُّرِ الزمانِ وكثْرةِ العُمرانِ، سِواهُ صلى الله عليه وآله وسلم؛ وذلك فِيما بَـيَّـنَـه في سُنَّتِه وشريعتِه، وفيما أنْزلَه الله سبحانه وتعالى عليه في كتابِه الذي لَمْ يُفَرِّط فيه مِنْ شيءٍ يحتاج إليه العِبادُ.

ومَنْ رجع إلى كُتبِ السُّنةِ وأَدْمَنَ النظرَ فيها يَجِدُ فيها البُغْيةَ والكفايةَ، والنِّبراسَ الذي يُضِيءُ السُّبلَ للخروج مِنْ ظلماتِ هذه المشاكل.

وزاد صاحبُ الترجمةِ حفظه الله قائلاً: ولِهذا لَمَّا اِطَّلَعَ كثيرٌ مِنْ علماءِ أُورُوبا اليومَ، حتَّى الشيوعيِّين منهم، على حُكمِ الشريعةِ وشُموليَتِه لِبَيانِ الخلاص مِمَّا يَـنزلُ بالإنسان في كلِّ زمانٍ ومكانٍ مِنْ أزماتٍ في الحياة، أَسْلَموا وأَذْعَنوا، واِعْترفُوا بِأَنَّ جَميعَ النُّظُمِ التي تَنهجُها الدولُ لا تَفِي بالغرضِ، إِلَّا الشريعة الإسلامية..".

◆ وكذلك يقول في حديث: «**لَا تَسُبُّوا قُرَيْشاً فَإِنَّ عَالِمَها يَمْلَأُ طِبَاقَ الأَرْضِ عِلْماً**»، "ليس المرادُ به الإمامَ الشافعي رضي الله عنه كما ذهب إليه الشافعيةُ، وإِنَّما المرادُ به النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم نفسُه، لأنه هو الذي ملأ طِباقَ الأرضِ عِلماً كما يَشهدُ بذلك الموافِقُ والمخالف، وفي ذلك يَقولُ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أَنَا مَدِينَةُ العِلْمِ..**»". وقد بَيَّن هذا صاحبُ الترجمةِ

بِتفصيلٍ في كتابه: "السَّوانِح" بِما يَرفعُ كلَّ إشكالٍ.

إلى غيرِ هذا مِنَ الاختياراتِ الكثيرةِ في الفقهِ والحديثِ، التي خالف فيها ما اِشتهر بين أهلِها.

وإنَّما ذكرتُ بعضَ ما عَلِقَ بِذهني مِمَّا سمعتُه منه في مجالِسِنا الخاصةِ والعامةِ، حتَّى لا أَحْرِمَ القارئَ مِنْ فائدتِها.

أَمدَّ اللهُ في عُمُرِه، وحفظه وتولَّاه، وجزاه عنَّا وعن جميع المسلمين خيرَ الجزاء، ونفعَنا بعلومِه. آمين.

وبِحمدِ الله وفضلِه أختَتِم هذه الترجمةَ سائلاً اللهَ الحليمَ الكريمَ أَنْ يَتقبَّلها خالصةً اِبتغاءَ رِضاه، إخلاصاً لِدينِه، وإيقاظاً لِهِمَمِ المجاهدين مِنْ عبادِه، وأَنْ يَنفعَ بها، ويُثِيبَ عليها، وأَنْ يوفِّقَنا دائماً لِاتِّباعِ كتابِه وسنَّةِ رسولِه صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾. ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾، وَاجْعلِ اللَّهُمَّ لَنَا عِنْدكَ زُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ.

والصلاةُ والسلامُ علَى رحمةِ العالَمِينَ، ورائِدِ المُصْلِحِينَ سيِّدِنَا محمدٍ خاتِمِ الأنبياءِ والمُرسلِينَ. والحمدُ للهِ ربِّ العالَمِين.

وكان الفراغُ مِنْ كِتابتِه: ضحوةَ يومِ الأحد ثالِث عَشَر مُحرَّم، سنة سِت وأربعمائة وألف، 1406. موافق 29 شتمبر1985، بِمنزلِنا في الجبل الكبير، بِطنجة.

عبد اللطيف بن عبد الغني جسُّوس

غفر الله له

مُلحَق

بَعد الفراغِ مِنْ هذه التَّرجمة، عرفَتِ الأُمَّةُ الإسلاميَّةُ أكبرَ كارثةٍ في تاريخِها الحديث، مِنْ خلال حرب الخلِيجِ، المُندلِعَةِ ليلةَ 17يناير1991، التي أثارتْها أمريكا بِحلفائها، وتولَّت قيادتَها في حربٍ صلِيبيَّةٍ يَهوديةٍ مشنونةٍ بِمنتهَى الفظاعةِ والوحشيةِ علَى العرب والمُسلمين، الذين اتَّخذتْ أمريكا مِنْ قادةِ الحُكمِ فيهم كلَّ الإمكانات والترتيبات التي بَنَتْ عليها مختلفَ جسورِها المادِّيةِ والمعنوية لِضمانِ إنجاح غزْوِها لِدولةِ العِراق، باعتبارها الدولة العربية المُسلِمة الوحيدة التي رفضَتِ الخضوعَ لسياسة الطَّاغوت الأمريكيِّ الذي أراد بِغزوِه تدميرَ قواتِها المسلَّحة، حتَّى لا تَبقَى مصدرَ خطَرٍ علَى المصالح الأمريكية في الخليج، وخطراً علَى أمْنِ وسلامة إسرائيل، ثم السيطرة على منابع البترول، لِضمانِ استمرار تدفُّقِهِ بِالكمِّيّات وبالأسعار التي تُريدها أمريكَا، لِيَتِمَّ لها بذلك إخضاعُ الدولِ العربيةِ بِرُمَّتِها لِلوصاية الأمريكية.

وقامت شعوبُ كلِّ الدولِ العربيةِ والإسلاميةِ بِمظاهراتٍ صاخبةٍ عارمةٍ، تَستنكرُ وتُندِّدُ بهذه الحربِ التي تُعتبرُ بِكلِّ المقاييس، سواء في حاضِرِها أو في أبعادِها، حرباً تستهدف إذلالَ العرب والمسلمين بالسيطرة على ثرواتِهم، والتحكم في سياستهم، وتَنْحِيَتِهم عمَّا يقتَضِيهِ الإسلامُ والإيمانُ.

كما اِسْتَنكرَتِ الشعوبُ الإسلاميةُ وندَّدتْ بِموقِفِ الخيانةِ العُظمَى للهِ ولِرسولِه ولِلمؤمنين، الذي تَلَبَّسَ به حُكَّامُها مع حُثالَةٍ مِنْ علمائِهم الأشرار، وطالبَتْ بِاستمرارٍ أَنْ يَفسحوا لها المجالَ للقيام بفريضة الجهاد في سبيل الله، الذي هو في مِثل هذه الظروف، التي تَرسُمُ مصيرَ الإسلام والمسلمين، يكون فرضَ عينٍ علَى كلِّ مسلمٍ، كما نصَّ على ذلك كتابُ الله وبيَّـنَته سنَّةُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي خضمِّ غليان خطورة هذه الأحداث، كان الإمام سيدي عبد العزيز بنُ الصِّدِّيق رحمه الله، فارسَ الميدان، في ثُلَّةٍ مِنْ علماء المغرب الصَّادقين، رفعوا صوتَهم بحكم الإسلام، وصدعوا بكلمة الحقِّ في مواجهة الكفر وزبانيتِه وعملائِه الذين اِتَّبعوا غيرَ سبيلِ المؤمنين، وتخندَقُوا مع الكافرين.

وكان، رضي الله عنه، في طليعة الموقِّعين على "بيان حقيقة" لِفريقٍ مِنْ علماءِ المغرب حول حُكمِ الإسلام مِنَ الاستعانةِ بالمشركِين في قِتالِ المسلمين، وعن الغارة الصليبيَّةِ العالمية الجديدة علَى الأمَّةِ العربية الإسلامية.

وهو أولُ ردٍّ صريحٍ صدر في كلِّ العالم العربي والإسلاميِّ ضدَّ فتاوى فقهاء السلطة، في السعودية ومِصْر، الذين أفْتَوا بِجواز الاستعانةِ بِالنَّصارى واليهود في قتال المسلمين!! وقد نشرت هذا البيان جميعُ صُحفِ المعارضة الوطنية: "العَلَم"، و"الاتِّحاد الاشتراكي" و"أنوال"، الصادرة بتاريخ: فاتح ربيع الأول 1411، 22 شتنبر 1990، بعد تقديمها له بِعُمق التحليل وكاملِ التنويه.

وواصل رحمه الله جهادَه الذي اِستغرق كلَّ وقتِه في اِستنهاض أُمَّةِ القُرآن، بِما يَفرضه عليها الإسلام ويقتضيه الإيمانُ، ويُلقي بِصراحتِه المعهودة كاملَ المسؤولية في هذه الحرب علَى الحكَّام وحُثالةِ علمائِهم الأشرار، وأبان عن قِمَّةِ الشجاعة الدِّينيَّةِ في معارضتِهم، وجعل موضوعَ خُطبِه الجُمَعِيَّةِ بما يَستجدُّ مِنْ فواجع وطَوامّ حربِ الخليج بِاِعتبارها فتنة، أراد الله تعالى جلَّت حِكمتُه، لِنَعلَم

مِنْ خلالها فريقَ المؤمنين الصادقين مِنْ فريق المنافقين الكاذبين، مصداقاً لِقوله تَعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَاذِبِينَ﴾.

إنَّ شُموخَ مواقف الصِّدقِ لِشيخِنا الإمام سيدي عبدِ العزيزِ بنِ الصِّدِّيق في هذه الفتنة لَهِيَ أكثرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى وتُسْتَقْصَى، ونكتفي بِذِكرِ بعضِها علَى سبيلِ المثال:

فَمِنْ ذلك نصُّ الحديث الذي أجرتْه معه جريدةُ "الخضراء" الصادرة بطنجة، وقد نقلَتْهُ عنها جريدة "العَلَم" بتاريخ 3 فبراير 1991، وهذا نصُّه:

الفتاوى الصَّادرة في السعودية
هِيَ مِنْ إِيحاءاتِ أمريكا

الخضراء: شكراً فضيلة العلَّامة علَى ترحيبِكُم.. ونحن نرحِّبُ بآرائكم حول قضيَّةِ الساعة التي لَها صِبغةٌ عسكريةٌ، ولكن أيضاً لها صِبغة عربية إسلامية.. كيف تَروْنَ إشكاليةَ الخليج؟

اِبن الصِّديق: أراها مِنَ الزاوية الدِّينيَّةِ وأقول: وقَعَ تصدُّعٌ في الأمةِ، وهناك عدوٌّ.. والعدوُّ الأولُ في نظري هو: أمريكا. فرغم أَنَّ رُوسيا شيوعية ومهْد الإلحاد، لم تَصِل في إذايتِها للإسلام والمسلمين إلى ما وصلَتْ إليه أمريكا...

الخضراء: ولكن ما يَتِمُّ حالياً علَى أرضِ الخليج هو بِتَواطُئٍ وتزكيةٍ مِنَ الاتحاد السُّوفياتي.

اِبن الصدِّيق: كان بِتواطئٍ مع روسيا، نعم. ولكنَّ العاملَ الأكبرَ فيه -كما يدل الواقع- هو الولايات المتحدة الأمريكية، بحيث أصبحت الآن روسيا عبارة عن إسبانيا أو البرتغال في الميدان. ولكنْ مَنْ بِيَدِهِ زمام المعركة؟ إنَّها الولايات المتحدة الأمريكية، فمؤتمر مالْطَا واجتماع بُوشْ وغُورْباتْشُوفْ الهدفُ منه هو القضاءُ علَى الأمَّةِ الإسلامية. فالولايات المتحدة الأمريكية تُبيِّتُ وتُدبِّر وتُفكِّر في عملٍ يَقضي علَى الصحوة الإسلامية.

الخضراء: تُذكِّرني بِتصريحٍ سبَقَ لِلمهدي المنْجرة أَنْ أدْلَى به لِلخضراء، وقال فيه: إنَّ المعركةَ المستقبليةَ مع الغرب ستكون حضاريةً.

إبن الصِّديق: الواقعُ الآن أَنَّ المسلمين شرقاً وغرباً مطلوبٌ منهم أَنْ يَعودوا إلى مجدِهم وإلى تاريخهم، وتاريخِهم في القِيَمِ الإسلامية.. ولا يُمكِن أَنْ تَكونَ هناك دعوةٌ تَقوم عليها الأمةُ الإسلاميةُ أو أَنْ تُنتج نتيجةً إذا لم تكن مبنيةً علَى أساسِ الشريعة..

الشريعة الإسلامية أعطَتْنا كلَّ خيرٍ، وكلَّ نورٍ نَمشي به في الطريق، مع أنفُسِنا ومع عدوِّنا.. والواقع يَشهدُ بهذا. فنحن عندما تخلَّينا عن الشريعة أصبحنا فِرَقاً، شِيَعاً في الأرض. والدليل على ذلك أزمة الخليج، فالمغرب له خُطة، الجزائر لها خطَّة، ولِيبْيا لها خطةٌ أخرى، ومِصر أكثرُ وأكثر، وسُوريا كذلك..

الإسلام لا يدعو إِلَى هذا، اللهُ تعالى يَقول: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾. وهل هناك مُنكرٌ أعظمُ مِنْ أَنْ تَرى أخاك المسلمَ يُقتلُ وتُسبَى نِساؤُه، وتُفسَدُ أعراضُه، وأنت تَتفرَّج بِحُجَّةِ "القوانين الشرعية".

الحكومة السعودية نَشَرتْ بياناً يُفيدُ أَنَّ كلَّ مَنْ تُسوِّلُ له نفسُه إحداثَ ضجَّةٍ عند وقوع الحرب، فسوف يُعاقَبُ بِمقتضَى القوانين الشرعية الإسلامية.. أين هي القوانين الشرعية؟ وهل مِنَ الشريعة الإسلامية أَنْ تَدخلَ اليهودُ والنصارَى إلى جزيرة العرب؟ وهل مِنَ الشريعة الإسلامية أَنْ يُسمَحَ لِـ 250 طيَّار إسرائيلي بالدخول إلى الحِجاز؟

الخضراء: 250 طيار إسرائيلي؟ هل هذا صحيح؟

إبنُ الصدِّيق: نَعم، 250 طيار يهودي إسرائيلي، دخلوا السعودية بِحُجَّة أنَّهم يُتقِنون حربَ الصَّحراء، وبِحُجَّة أنَّهم يَستعملون الطائراتِ الأمريكية. فأين هي القوانينُ الإسلاميةُ الشرعية؟ أَبِهذا أمَرَنا الله؟ فلِهذا يَجِبُ علينا أَنْ نُصحِّحَ

الأوضاعَ.. وهل يقول الإسلامُ بِاِجتماع 35 دولة على دولةٍ واحدةٍ هي العراق؟

اللهُ تَعالى أعطانا الحلَّ، حيث قال: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية.. فعَلَى المُسلِمين أَنْ يُباشِروا عمَلَ الخليج.. فعندما نقول الإسلامُ فمعناه أَنْ نَضعَ عمليةَ الصُّلحِ أمامَنا.. فهل يا تُرى: الإسلامُ قاصرٌ علَى المسجد والصلاة والحج؟ لا، الإسلامُ دينٌ ودنيا. الإسلام أنْزلَه الله لِيُقيمه الإنسانُ في الأرض، اللهُ تَعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾. فهل هناك معروفٌ أكبر مِنْ أَنْ تدافعَ عن أخيكَ المُسلمِ.. هل هناك منكرٌ أكبرُ مِنْ أَنْ تُسلِّطَ الكافرَ علَى أخيك المُسلِم.. وهل يُعقَلُ أَنْ نَسمحَ لِلقواتِ المتعدِّدةِ الجنسياتِ، وكلُّهم كَفرةٌ صليبيُّونَ أعداء الله، بِقتلِ الشيوخ في العراق، والكهولِ والنساءِ والأطفالِ؟ هذا لا يُعقَلُ.. وَلا يُمكِنُ.. فلو كان المسلمون في مواجهة العراق لَمَا جاز لَهم أَنْ يقاتلوهم بسلاحٍ يَعُمُّ الصغيرَ والكبيرَ، الإسلامُ أعْطانا خطَّةً في القتال، وهي أَنْ نُقاتل مَنْ يقاتلنا : ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ .. فكيف يَجوزُ لَنا أَنْ نُقاتِلَ هؤلاء بِأيدِي الكُفَّار ونحن نشاهد؟

لذلك أنا أعتقد أَنَّ كلَّ مسلمٍ في الأرض مرتدٌّ بِموافقتِه وسكوتِه عن قتلِ النَّصارى واليهود للشيوخ والأطفال والنساء في العِراق.

الخضراء: ولكنَّ العلماءَ في المملكة السعودية اِجتمعوا وأصدَرُوا بِشأنِ ذلك فتوَى......

اِبنُ الصدِّيق: تلك فتوى التَّدجيل والتَّدمير والتَّضبيع.. كلُّها علَى ضلالٍ.. فكما أفْتَوا أوّلاً بأنَّه يجوز لِلمسلمين أَنْ يَستعِينُوا بالكافرين، كذلك أفْتَوا هذه الفتوَى، مع أنَّكَ لن تجد في كتاب الله ولا في سنَّةِ رسولِه، ولا في قولِ عالِمٍ مِنَ العلماء أنَّه يَجوز قتلُ المسلم اِستعانةً بالكافر.. فالفتاوى الصادرة في مكَّةَ كلُّها مِنْ إيحاءِ الولايات المتحدة الأمريكية.

الخضراء: هل يعني هذا أَنَّ أمريكا هي التي تُوحِي فعلاً بهذه الفتاوى؟

اِبنُ الصدِّيق: نعم، ولا شكَّ. وهذا عرفناه وباشرناه، ففي الحرب العالمية الثانية كانت إنجلترا تُوحِي إلى علماء مِصْرَ بِفتاوى ضِدَّ الألْمَانِ وضِدَّ النَّازية، وضدَّ الدِّيكتاتورية. وألْمانْيَا كانت تُوحِي إلى حلفائِها بِفتاوى ضدَّ الرأسمالية وضدَّ صَهْيون اليهود..كلٌّ لِغرضٍ في نفسِه.. فَيَومَ اِنتصر الحلفاءُ سلَّموا فلسطين لِليهود.

الخضراء: إنَّ الحربَ بين العراق وأمريكا هي حربٌ في الحقيقة بين الشمال والجنوب، بين الدول الفقيرة والدول الغنية، لأنَّه إذا اِنتصرتِ العِراق، وهذا ما نتمنَّى، فستنقلب الكفَّة،كَفَّة الموازين الدولية، بحيث أَنَّ الدولَ الفقيرةَ يُمكِنُ لها أن تَسيرَ في اِتِّجاه تحسين وضعِها الاقتصاديِّ وإستقلاليَتِها مِنَ التَّبعِيَة الغربية.. هذا التحليل للدكتور المَنْجْرة، فما هو تحليلكم؟

اِبنُ الصدِّيق: ما يظهر لي أنَّ هذه المعركة ستؤدي إلى صحوةٍ إسلاميةٍ أشد مما عليه الآن، ويؤيِّد هذا، وهو مما يُفرح، أَنَّ إيران أعلنتْ أنَّها لا يُمكِنُ أن تسكتَ.. وصرحتْ بنفس هذا التصريح الجزائر...

الخضراء: ووقع أكثرُ مِنْ هذا وهو أَنَّ إيران دعَتْ إلى عقْدِ القمَّة الإسلامية على أساس أنَّ القِمَّة يُمكِنها أَنْ تحلَّ هذا المشكل.

اِبنُ الصدّيق: نعم، دعتْ إلى عقدِها، ولكن أين هي القمَّة الإسلامية؟

الخضراء : هذا سؤالٌ نَطرحه عليكم.

اِبنُ الصدِّيق: القمة الإسلامية الآن معناها إِفشالُ مواجهة أمريكا، وإِفشالُ القيام في وجهِها.. وحتَّى لو عُقِدت فسوف نجد فيها مَنْ رُوحُه أمريكيةٌ، ومَنْ رُوحُه روسيةٌ، ومَنْ يُحبُّ الحفاظَ علَى الظهورِ والرِّياسةِ.. و...، فعندما يجتمعون فهل يا تُرى لهؤلاء الناس الشجاعة الدِّينيَةُ والكفاءة الإسلامية لِيقولوا: نحن مع العراق ضدَّ الولايات المتحدة الأمريكية، وإِنَّنا لا نَرضَى ولا نُحبُّ ولا نساعد علَى أَنْ تَضربَ أمريكا العراق، لأنَّ الدِّينَ يُحرِّمُ ذلك.. ليس عندنا مِثل هؤلاء.. ومعنَى هذا أَنَّ

هذه القِمَّةَ ستكون اِنتصاراً للأوربيِّين، وسوف يقولون: لقد اِجتمع المسلمون ولم يَفعلوا شيئاً. فَمِنْ رأيِي أَنْ لا تَكونَ هذه القمَّة الآن.

الخضراء: وما هو الحلُّ إذن؟

اِبنُ الصدِّيق: هو أَنْ يَعودَ الحكَّام إلى إسلامهم ويَنْسوا ما بينهم مِنَ الخلافات.. فاللهُ لَمْ يُخرجْنا لِنَعيشَ فقط في هذه الدنيا، بل أَخْرجَنا لِنَموتَ في سبيلِه.. فينبغي أَنْ نَضَعَ الخلافاتِ ونَرمي المظاهرَ ونَتركَ الراحةَ والملَذّاتِ وراء ظُهورنا، لأَنَّ المعركةَ الآن معركةُ المصيرِ، معركةُ الدفاع في سبيل الله، يَجِبُ علينا أَنْ نضع يداً في يدٍ لِنقضيَ على العدوِّ المشترَكِ.

فالعراقُ الآنَ مصيبٌ مِنْ جهة كونِه ربَطَ القضيةَ الفلسطينيةَ بأزمة الخليج، فإسرائيل كم مِنْ قرارٍ دوليٍّ وأُمَمي ضربتْ به عرضَ الحائطِ، ولم تَحرِصْ إِلَّا علَى تطبيقِ ما تَعلَّقَ بالعِراق.. فأنتم جميعاً أيها العربُ قد جاءتكم الفرصةُ للقضاءِ علَى العدوِّ المشترَكِ الذي يَنْخُرُ عِظامَنا، ويقتل نِساءَنا وأطفالَنا منذ أربعين سنة.. فأتَتْكُم الفرصةُ لِلقضاء عليه.. فعلَى بركةِ الله نَقضِي عليه، وبعد ذلك نَنظرُ مشاكلَنا...لا، العرب قالوا: لا، حتَّى قالت مِصْرُ وبِكلِّ وقاحةٍ: لِإسرائيل الحقُّ في أَنْ تَردَّ علَى مَنْ يَضربُها، أَنَسِيَتْ 40 سنةً وهي تُحرِقُ المسلمين؟ ولا زالت إلى الآن، وتُصرِّحُ بهذا التصريحِ الذي يَستحِي بُوش مِنَ التصريح به حتَّى لا يُثِيرَ مشاعر العرب ضدَّه.. وهذا لا يُمكِنُ إِلَّا إذا تَولَّتِ الشعوبُ أمْرَها بِيدِها.

الخضراء: وماذا تقصد؟

اِبنُ الصدِّيق: معنَى هذا أَنْ نَخوضَ المعركةَ حتَّى لا يُذِلُّونا.. رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**لَا يَنْبَغِي لِلمُؤمِنِ أَنْ يُذِّلَ نَفْسَه، يَرَى عَلَيهِ مِنَ الحقِّ مَقالَةً فَلَا يَقُولُها**».

بالأمسِ، رأيتُ في إحدَى الصحف أَنَّ أمريكا أعانت إسرائيل بِجميع ما يَلزم مِنَ القوة للدِّفاع عن نفسِها.. في هذه الساعة، يجب علَى المسلمين أَنْ يَقفوا

صفّاً واحداً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾، صفًّا واحداً مِنْ طنجة إلى باكستان ضِدَّ أمريكا في هذه اللحظة، وضِدَّ خروج العراق حتَّى تَخرجَ إسرائيل.

الخضراء: لقد ذكرتم في إحدى خُطَبِكم أَنَّ العدد الهائلَ مِنْ أهلِ الكتاب الموجودِينَ في الجزيرة العربية لم يتوفَّرْ مِثلُه منذ عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فما هي مبررات العلماء الذين أفْتوا بِجواز وجودِهم في البقاع المقدَّسة؟

اِبنُ الصدِّيق : لا يوجد في الشريعة الإسلامية مبرِّر لذلك، كونُ المسلمِ يَستعينُ بالكافر ويُدْخِلُه بلادَه لِيدافعَ عنه، غيرُ جائزٍ في دينِنا أَنْ نَستعينَ بالكافر. ولهذا يقول الرسولُ عليه الصلاة والسلام في شأن العلماء.. «**أَخْوَفُ ما أَخافُ عَلَيكُمْ كلُّ منافِقٍ عَلِيمِ اللِّسانِ**».

الخضراء: هل ترون أَنْ تخرج القواتُ المتعددةُ الجنسيات مِنَ الخليج بالسرعة التي دخلَتْ بها؟

اِبنُ الصدِّيق: لقد صرَّحوا بعدم خروجهم بسرعةِ دخولِهم.. فحتَّى لو وقع صلحٌ أو مهادنةٌ فلا يُمكِنُ لأمريكا أَنْ تَنسحبَ أبداً.. وقالت: لا نخرج إِلَّا بعد سِنِين.. وهل يُعقَلُ أَنْ يَخرجوا غداً بعدما صرفُوا الملايِير مِنْ الدولارات، لاسيما وخَطرُ إيران يتهدَّدهم، فأمريكا لن تَنسَى إيران أبداً، ولا يُمكِنُ أَنْ تَصرِفَ عنها النَّظَرَ، لا بُدَّ أَنْ تتربَّصَ بها الدوائر، وقد تكون أنها رأت هذه فرصة لذلك، حيث ستقاتل إيران بِحُجة الدفاع عن الكويت، وغرضُها وبيت قصيدِها هو إيران التي تراها ممثلة للإسلام لدَى شعوب العالم.

الخضراء: في ظِلِّ هذه الأوضاع، تُرى ما هي إِرتساماتُكم حول الحجِّ هذه السَّنة إِنْ شاء الله؟

اِبنُ الصدِّيق: إِنْ بَقِيَت الأوضاعُ على ما هي عليه الآنَ، فلا يَصِحُّ لِلمسلم أَنْ يَحجَّ، وكيف يُمكنُ لي أَنْ أحجَّ تحت ظِلِّ دولةٍ أنا أحارِبُها.

أغلب الدول الأوروبية تَحملُ الصليبَ في راياتِها، منها بريطانيا، والسويد، وغيرهما، وهي ترفرف الآن في الأراضي المقدَّسة، فكيف أباح العلماء السعوديون هذا العملَ الشنيع؟[1].

الخضراء: إذن نستطيع القولَ بِأَنَّ أزمةَ الخليج كشفتِ القِناعَ عن كثيرٍ مِنَ "الناس"، كُنَّا نَظنُّ بهم خيراً إلى عهدٍ قريبٍ.

اِبنُ الصدِّيق: طبعاً، أَوَّلُهم مِصر وعلماؤُها.. فالأزهر الذي يُعتبر مَرجِعَ المسلمين، ومَنبعَ العِلْمِ خان الأمانةَ، فَالشيخ جَاد الحقّ ومَنْ معه أيَّدوا الهجومَ على العراق، ودارُوا مع فَلَكِ المادِّيةِ والمظاهر؛ فمَنْ صرَّح بِوجوب مهاجمة الكفار وأعداءِ الإسلام العِراقَ وبوجوب القضاء عليه فقد مرق مِنَ الدِّين.. اِبنُ تيمية شيخُ الوهابِيِّين يقول: "كلُّ مَنْ يَعتقدُ أو يَرَى أَنَّ السَّلفَ قاتَلُوا مع الكُفَّارِ فهو مُرتدٌّ كافرٌ"..!!

الخضراء: وما موقفكم والحربُ مشتعلةٌ؟

اِبنُ الصدِّيق: ينبغي لِكلِّ مسلمٍ أَنْ يَمدَّ يده للمساعدة بأيِّ شيءٍ يستطيع: بِصوتِه، بِإرشادِه، بكِتابتِه، وإذا اِقتضَى الحالُ يَكتَتِبُ لِجَمْعِ المالِ بِأَيِّ شيءٍ، كلٌّ علَى جهده وطاقته. هذا واجبٌ دينيٌّ إسلاميٌّ لابدَّ منه، لايهمُّنا فيه خوفٌ ولا جبروتُ جبَّارٍ.

الخضراء: ولكن مثل هذا الاكتتاب يتطلَّب تأطيراً.

اِبنُ الصدِّيق: نعم، ولكن ما يقع في الأمة الإسلامية هو بسبب أنظمتها، فلا يُسمَحُ للشعوب بالعمل.. ومَنْ أراد أَنْ يَكتتِبَ فليكتتب، ومَنْ أراد دعايةً أو تظاهرةً له ذلك، بأيِّ أمرٍ كان. الغرض هو أَنْ تساعدَ أخاكَ المسلمَ بما تستطيع. ومِمَّا يُؤسَفُ له أَنَّ الإعلامَ المغربيَّ لِصالح اليهود وأمريكا.. فالتلفزة الإسبانيَّةُ رغم

---

1 - لاحَظَ الجميعُ أَنَّ نِسبةَ الحُجَّاجِ هذا العام مِنَ العالم الإسلاميِّ كانت ضئيلةً، وفي المغرب كانت نسبةُ الحُجاجِ أقلَّ مِنْ ثُلُثِ العام الماضي، ونِسبةٌ كبيرةٌ مِنْ هذا الثلث دُعِيَتْ لِلحَجِّ مجاناً. (الخضراء).

مشاركة دولتِها، فلا تُظْهِر مِنْ قوات أمريكا إِلَّا قليلاً، في حين لا نَرى في تلفزة المغرب سِوَى الأساطيل وحاملاتِ الطائرات الأمريكية، ولا تُرِينَا عن العراق إِلَّا لَمحةً يسيرةً. فهذه دعايةٌ، والدِّعايةُ حربٌ.. فلا شكَّ أَنَّ ما تَعملُه التلفزة المغربية نوعٌ من الدعاية للعدوِّ، وكذلك إذاعة ميدي1 عمالة لليهود.

الخضراء: إذن، فالإعلام العربيُّ والإسلاميُّ يجب أَنْ يُسَخَّر مِنْ أجل القضايا العربية.

اِبنُ الصدِّيق: ولو كَذِباً إِنِ اِقتضى الحالُ، لأنَّ الحربَ خدعةٌ كما في الحديث، فيجب أَنْ نَبُثَّ في إعلامنا ما يُظهِرُ عِزَّ العَرَبِ وكرامتَهم وكبرياءَهم، حتى يَقْوَى ضعيفُنا وترتفع معنويات جنودنا، لا أَنْ نحطِّمه بإظهار قُوّاتِ غيرنا.. فلهذا على الصحوة الإسلامية أَنْ تَسيرَ في خطٍّ مستقيمٍ، والخطُّ المستقيمُ هو غسل الأدمغة مما دخل في الإسلام وليس منه. فأولُ شيءٍ يجب التحذيرُ منه همُ العلماء والبُعد عنهم إذا أردنا النجاح في خطَّتِنا..

الخضراء: ولكن مَنْ هؤلاء العلماء الذين يجب أن نَبتعدَ عنهم؟

اِبنُ الصدِّيق: العلماء الرسميون الموجودون في الأرض.. ففي المغرب يُوجَدُ علماء مُضلِّلون، يَسيرون في هوَى الحكومة ولا يَصِفون لِلنَّاسِ الدواء.. فكم مجلِسٍ عِلميٍّ في المغرب، ورغم ذلك فلا أَحَدَ منهم اِستطاع أَنْ يُدليَ برأيِه في أزمة الخليج، وسكتوا.

الخضراء: الصراع علَى ما يظهر هو صراعٌ ذُو أبعادٍ.. فهناك دولٌ إفريقيةٌ غيرُ إسلاميةٍ ودولٌ في أمريكا اللاتِينية تُساند العراقَ..

اِبنُ الصديق: هذا مهمٌّ أَنْ ينضمَّ إلى صوتِنا أجنبيٌّ.. إنَّ الدولَ الفقيرةَ المؤيِّدة للعراق ذاقت مرارةَ سُمِّ الولايات المتحدة الأمريكية.. إلخ.

وكَتب رحمه الله تعالى عن الحرب الخليجية مقالاتٍ كثيرة، أَسهَمَ بها في توعية المسلمين بفداحة الجريمة التي اِرتكبها المتحالفون والمستعينون بالكفار ضد شعب

العراق، ووجَّـه الخطاب منها لأمراء الخليج، والسعودية خاصةً، وكشف بها عُـوار وكذِبَ ونِفاقَ علمائهم الذين أفتوا بجواز الاستعانة بأهل الصليب لقتل المسلمين. وقد اِنتقيتُ من هذه المقالات مقالين، أجاد فيهما رحمه الله تعالى وأفاد بعُـمقِ تحليلِه وقوةِ بُرهانه وكبيرِ اِطِّلاعه، مبيناً فيهما بالأدلة الـمنقولة والعقلية عدمَ جوازِ اِستعانة الـمسلمين بالكفار، وموضحاً للمسلمين الخيانةَ العظمى التي اِرتكبها حكام السعودية وعلماؤها ومن سار في فلكهم. وهذا **نصُّ المَقالِ الأول:**

«لا حِلفَ في الإسلام»
بقلم العلَّامة الشيخ عبد العزيز بن الصدِّيق

لقد كشفت هذه الحرب القائمة في الخليج لِقَتل المسلمين أموراً كثيرةً، لم تكن في البال، وأظهرتْ -وبئس ما أظهرتْ- أَنَّ المسلمين ماتت فيهم الغيرةُ الإسلاميةُ !! وكَفروا بالرابطة الدِّينيةِ التي ربط الله تعالى بها بين المسلمين شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، لِيَكونوا جسداً واحداً إذا اِشْتكى منه عُضوٌ تداعَى له سائرُ الجسد بِالحمَّى والسَّهَر، وفَقدوا الضميرَ الإسلاميَّ الحيَّ، الواجب على كلِّ مسلمٍ أنْ ينطويَ عليه، وفقدوا رُوحَ التآزر، والتضامن والتعاون، وعدم خذلانِ المسلم لأخيه المسلم، كما في الحديث: «**المُسلِمُ أَخُو المُسلِمِ لَا يُسْلِمه وَلَا يَخذُلُه**». وفَقدوا القيامَ بِما أمر اللهُ تعالى به مِنَ الإصلاح إذا نزغ الشيطانُ بينهم، ووقع التخاصم بل والقتالُ بين طائفةٍ وأخرى منهم، كما قال الله تعالى. وأظهرَتْ هذه الحربُ المَهانةَ والمذلَّةَ التي سكنَتْ في قلوبِهم، وإستحوذتْ على مشاعرهم، فصاروا كَاليَتامَى في كفالةِ أعدائهم، يلجأون إليهم في الكبيرة والصغيرة مِنْ شؤونهم. وكَشفَت الكِذبةَ التي يَعيشون فيها، وهي أنَّهم مستقلُّون، لهم سيادةٌ في بلادهم وأرضِهم، فكشفت هذه الحربُ أنَّهم غير مستقلِّين أبداً، وإنما يتوهَّمونَ ذلك ويَظنونَ، والظنُّ لَا يُغنِي مِنَ الحقِّ شيئًا. وأظهرَتْ أنَّهم ليسوا وطنِيِّين كما يزعمون في شعاراتهم وأناشيدهم،

وأنَّهم يُقَدِّمون مصالح الأجانب وأصحابِ الاستعمار الجديد، على مصلحة بلادهم وأهلِ دينِهم. وأظهرَتْ أنَّهم يُقدِّمون دُنياهم علَى كرامتِهم، ويَكرهون الموتَ في الدِّفاع عن دِينِهم وشرفِهِم، وهذا الذي جعلهم كَغُثاءِ السَّيْلِ كما وصفهم بذلك الحديثُ النبويُّ. وأظهرتْ أنَّهم بُلَداءُ، أغبياءُ، لا يستغلُّونَ الأحداثَ والمواقفَ التي تُعِينُهم علَى النصر على عدوِّهم. وكشفتْ هذه الحربُ أنَّهم أَغْرار تَخدعُهم الأقوالُ الكاذبةُ العُرقُوبيَّة، ويُلدَغون مِنْ جُحرٍ واحدٍ مرتين.. بل هل غاب على هؤلاءِ العلماء أنَّ التحالف مِنْ شريعةِ الجاهلية التي حرَّمها الإسلامُ عندما أباحوا لِحكوماتِهم التحالفَ مع عَبَدَةِ الصلِيبِ لِقَتلِ المسلمين مرّاتٍ، وهذا ليس مِنْ صفاتِ المؤمنِ. ولِهذا مكثت إسرائيلُ في أرضهم مدَّة أربعين سنة وإلَى ما يَزيد فِيما بعد، ركوناً منهم إلى المواعيد وعقْدِ المؤتمراتِ مِنْ أعدائِهم.

وأظهَرَتْ أنَّهم يُؤمنون بسياسة الأعداء التي تُلهِيهِم عن المعركة المصيريَّةِ تحسيناً للظنِّ بهم، ولهذا نجح اليهودُ وخسر المسلمون بسبب سياسة الثِّقةِ في الأعداء الذين يتربَّصون بهم الدوائر كلَّما سَمحت الفرصة بذلك، ونجح اليهودُ لأَنَّ مبدأَهُم هو ما حكاه اللهُ تعالى عنهم أنَّهم يقولون لإخوانهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾.

ولهذا كان كلُّ يهوديٍّ بسبب هذا المبدإِ جندياً صلباً في سبيل الدفاع عن أمَّتِه، سواء كان في الميدان بسلاحه أو في دكان تجارته، فالحذر مِمَّن ليس علَى دينِه هو شعارُه، فرفضوا لأجل هذا الدَّخيلَ بينهم، ورَمَوا وراءَ ظَهرِهِم كلَّ مَنْ يَرَون أنَّه يضرُّ دِينَهم ويُفسد عقيدتَهم؛ وأين المسلمون اليومَ مِنْ هذا؟!.

وأظهرتْ هذه الحربُ أَنَّ المسلمين لا يَعرفون حقيقةَ السياسة، لذلك تَضيعُ عليهم الفرصُ، ويفوتُهم قطارُ النجاح والفوزِ بِعَدُوِّهِمْ وهم غافلون. لأَنَّ السياسةَ مِنْ أَوَّلِها إلى آخِرِها نجاحُ الماهِرِ فيها مبنيٌّ على اِغتنام الفرصةِ، فرُبَّ فرصةٍ أغنَتْ عن كفاحٍ أو حربِ سِنين لِلسِّياسيِّ الماهِر!! لأَنَّ السياسةَ في الحقيقةِ

ونفسِ الأمرِ لا تخرج عن حربٍ باردةٍ بين الخصمين، «والحربُ خُدعَةٌ» كما في الحديث، إلى غير هذا مما يطول شرحُه وبيانُه، مِنَ الكلّيات والجزئيات التي أظهرتْها حربُ الخليج المُعلَنَةِ على المسلمين في العراق، وصدق الشاعرُ القائلُ:

سَتُبدِي لَكَ الأيَّامُ ما كُنتَ جاهلاً وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّد

ولكنْ الذي هو أعظمُ مِنْ هذا كلِّه سوءاً، وأفحشُ جُرماً، وأقبحُ منكراً هو ما كشفَتْه هذه الحربُ الصَّليبيَّةُ مِنْ أَنَّ المسلمين فَقدوا العلماءَ الذين يَكونُونَ نوراً في ظُلماتِ الفِتَنِ، وسراجاً منيراً في الليالي المُدلَهِمَّةِ القاتِمةِ، وسفينةً لِلنَّجاةِ في البحور المتلاطمةِ الأمواج بالباطلِ والخروجِ عن الحقِّ؛ فيَكونُ العلماءُ في مثل هذا البلاء الذي تَحارُ فيه الألبابُ عن المَخرَجِ مِنه مناراً يَهدي إلى سواءِ السَّبيل، ودليلاً يَقودُ الحائرَ إلى الحقِّ الذي لا يَشوبُه باطلٌ، ولا يَعتريه اِنْحرافٌ يُشوِّهُ الصورةَ المُشْرقَةَ لِلإسلام والمسلمين. فهذا الوصف الذي أخذ الله تعالى العهدَ به علَى العلماءِ، نَقَضوه وراءَهم ظِهْرِياً، وآثروا به ثمناً قليلاً، فَبِئْسَ ما يَشترون، والأمرُ لله، ومالُوا مع الأهواء والأغراض، بدَّلوا وحرَّفوا الكَلِمَ عن مواضعِه، ولم نَكُنْ نَعْلَمُ أَنَّ هذا الوصفَ عَمَّ العلماءَ شرقاً وغرباً حتَّى جاءت حربُ الخليج، فكشفتْ لنا هذه الحقيقةَ المُرة وهذا الدّاءَ العُضالَ، وأظهرتْ أَنَّ العالمَ الإسلاميَّ وقع في فراغٍ عظيمٍ، وضَياعٍ كبيرٍ مِنْ جهة العلماء !! ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولولا هذه الحربُ لم نكن لِنَتيقَّنَ هذا، وهذا مِنْ فوائد الفتن والحروب، وقد ورَدَ في الحديث: «لَا تَكْرَهُوا الفِتْنَةَ فإنَّ فِيها حصادَ المُنافِقِين». والحصادُ يشمل الحصادَ المادِّي، والمعنوي، أو الحصادُ الحقيقي والمجازي.

العلماءُ في حربِ الخليج تَجنَّدوا مثل ما تجنَّدتِ الجيوشُ المُتحالِفةُ، هؤلاء بالقنابلِ المدمِّرة، وهُمْ بالفتاوى المُضلِّلةِ المخدِّرة لِلعقولِ عن النهوض إلى ما

فَرَضَ اللهُ تعالى علَى المسلمين، مِنَ القيام بِدفْعِ الأذَى عن إخوانِهم المسلمين في العراق. ولعلَّ هذه الفتاوى أشدُّ وقعاً وضرراً على المسلمين مِنَ القنابل المدمِّرةِ، لأنَّ القنابلَ ضررُها قاصرٌ علَى تدمير الأبدان، وأمَّا الفتاوى المُضلِّلةِ فإنَّها تدمِّر العقولَ وتَمسخُ القلوب، وشتَّانَ ما بين الضرَرَيْنِ، ولهذا ورَدَ في الحديثِ: «**سَتَكونُ في آخِرِ الزَّمانِ فِتنَـةٌ: اللِّسانُ أشدُّ فِيها مِنَ السَّيفِ**».

وها هم العلماءُ سلُّوا سيف اللسانِ، وأخذوا يُحِلُّونَ ما حرَّم الله تعالى مِنْ قتلِ المسلمين على يد الكفارِ الأعداءِ، وذلك وقع تحريمُه في الكتاب والسنَّةِ، وانعقد عليه الإجماعُ. ولم يكتفوا بهذه الجريمة الشنيعةِ والمنكرِ العظيمِ، بل أباحوا لِحكوماتِهم التَّحالفَ مع عَبَدَةِ الصَّلِيبِ لِقَتلِ المسلمين، وأصدروا في هذه الموبقةِ المُهلِكَةِ الفتاوى الطنَّانةَ الرنانةَ التي ملأتِ البلادَ، وأسكَرَتِ العِبادَ. وهل غاب عن هؤلاء العلماء أَنَّ التحالفَ مِنْ شريعةِ الجاهليةِ التي حرَّمها الإسلامُ، بل مَا جاء إلَّا لِهَدْمِ كلِّ ما بَنتْهُ الجاهليةُ مِنَ العادات القبيحة، والأخلاق الفاسدة التي تدعو إلى الشِّقاق والنِّزاعِ والتخاصم، والعنصرية البغيضة. وأوَّلُ ما حرَّمه دينُنا الحنيفُ مِنْ أعمالِ الجاهلية تحالُفَ المسلمين بعضَهم مع بعضٍ، فكيف إذا كان مع الكفار أعداءِ الإسلام، وفي الانتصار بهم علَى المسلمين؟!

فالعلماء الذين أباحوا هذا التحالفَ رجعوا بالمُسلمين إلى شريعةِ الجاهلية الأُولَى، والعياذ بالله تعالى، وهذا أقبحُ ما يكون في الخروج عن الشريعة السمحاء المطهَّرةِ. واللهُ تعالى حرَّم التحالفَ لأنَّه يترتَّبُ عليه ما لا يَخطُرُ علَى البالِ مِنَ الأحقادِ والضغائنِ، والاستعانة بِالحليفِ في الخصومات ولو علَى الباطلِ والمنكر، فحرَّم الله تعالى على المسلمين التحالفَ لأنَّهم إخوةٌ، وهُمْ كلُّهم حِزبٌ واحدٌ تَربِطُهم رابطةُ الدِّينِ وعِزَّة الإيمان، صِفَتُهُم التواصلُ والتعاطفُ، والتآلفُ وإصلاحُ ذاتِ بَيْنِهِم إنْ نزل ما يُفسِدُ ذاتَ البَينِ، فَلا يَجوزُ لِلمُسلِمِ أَنْ يُنادي يَا آلَ فُلان، ولكن يَقولُ كما قال عُمرُ: "يَا الله وَيَا لَلْمُسلِمين".

وعلماءُ عصرِنا الذين فَقدوا الضميرَ قبل أَنْ يَفقِدوا العِلمَ غَفَلوا عن هذا كلِّه، وسكتوا عنه سكوتاً تامًّا شاملاً، ولم نَرَ أحداً منهم في بلادِ الإسلامِ قال لِلْحُكّام: لا يَجوزُ في الإسلامِ التحالفُ مع بعض المسلمين لأجلِ الاعتزازِ بِقوَّةِ الحليفِ المُسلِمِ، فكيف مع الكفار عَبَدَةِ الصلِيب لِقَتلِ المسلمين!!؟ حتَّى صِرنا نَسمعُ البلاغاتِ الحربيةَ لِلقوةِ المتحالفةِ تَصدُرُ في بلدٍ يَدَّعي أهلُه محاربةَ البِدعِ وأعمالِ الجاهلية في الأمور التافهة، بِصرامةٍ بالِغةِ الشِّدَّةِ، فما بالُهم تَمسَّكوا بِشريعةِ الجاهلية في صمِيمِ وأعظمِ ما أمَرَتْ شريعتُنا بِمخالفتِه وحُرمتِه، نسأل الله تعالى العافية. روَى البخاري ومسلم وأبُو داود، عن أَنَسٍ قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لَا حِلْفَ في الإِسْلامِ». قال اِبنُ القَيِّم في "شرْح السُّنن": ((المُراد بالحديث أَنَّ اللهَ تعالى قد أَلَّفَ بين المسلمين بالإسلام، وجعلهم به إِخوةً متناصرين متعاضدين يداً واحدةً، بِمنزلةِ الجسدِ الواحدِ. فقد أغناهم بالإسلام عن الحِلْفِ، بل الذي تُوجِبُهُ أُخُوَّةُ الإسلامِ لِبَعضِهِمْ علَى بعضٍ، أعظَمَ مِمَّا يَقتضِيهِ الحِلْفُ. قال: فالحِلفُ إن اِقْتضَى شيئاً يخالفُ الإسلامَ فهو باطلٌ، وإن اِقْتضَى ما يَقتضيه الإسلامُ فلا تَأثيرَ له.. ولا فائدةَ فِيهِ..)) إلخ كلامه. فهذا حُكمُ الإسلام في تحالُفِ المسلمين بعضِهم مع بعضٍ، نَهَى عنه الرسولُ عليه الصلاة والسلام وحرَّمه، فكيف إذا وقع هذا التحالفُ مع الكفار لِقتلِ المسلمين؟؟؟ فهو كُفرٌ وَرِدَّةٌ بلا خلافٍ مِنْ أحدٍ. وبالله التوفيق.

جريدة "مجمع البحرين"
عدد 17 يبراير 1991.

وهذا نصُّ المَقال الثاني:

حَربُ الخليجِ هجمةٌ صليبيةٌ علَى الإسلامِ يَجِبُ علَى المُسلِمِينَ التَّصدِّي لها

للعلامة الشيخ عبد العزيز بن محمد بن الصديق

هذه الحربُ الضَّرُوس المدمِّرةُ التي أعلنتْها الدولُ الصليبيَّةُ مِنْ شرقِ الأرض وغربِها، بِحُجة الدِّفاع عن المشروعية الجائرة الصادرة عن الأمم المتحدة ومجلسِ أمنِها، لا يَشكُّ عاقلٌ ذُو نظرٍ صحيحٍ، أَنَّ المرادَ بها والمقصودَ منها أولاً و أخيراً هو محاربةُ المسلمين، ومَنْ تَوَهَّم خِلافَ هذا فهو غِرٌّ غافلٌ عمَّا يَكيدُه أعداءُ الإسلام لِلمسلمين. لأَنَّه ليس مِنَ المعقولِ أبداً أَنْ تَقومَ ثلاثون دولةً بِأساطِيلِها وطيَّاراتِها علَى اِختلاف أنواعها وجنودها المجهَّزةِ بِأحدثِ الأسلحة وأفْتَكِها، لأجلِ إخراجِ دولةٍ صغيرةٍ كالعراق مِنَ الكويت. هذا لا يُصدِّقه عاقلٌ، ولا يَرُوج إِلَّا علَى البُلْهِ مِنَ الناس. لأنَّ العراقَ لا يحتاج إلى مِثْلِ هذه القوةِ الكافرةِ، ولأَنَّ عمَلَه لا يحتاج إلى هذه العقوبةِ التي تجاوزت الحدَّ، وخرجتْ حتَّى عن توصيةِ الأُمم المتحدة.

وإنَّما الغرضُ الأكبرُ والمرادُ الأهمُّ هو القضاءُ على القوة الإسلامية في الشرقِ، كيفما كان حالُها ووصفُها، ومصدرُها؛ لأنَّهم يَعلمون ويتحقَّقون أَنَّ المسلمين قوةٌ يُحسَبُ لها ألف حسابٍ رغم ما هُمْ فيه الآن. ولا أَدَلَّ علَى هذا مِنْ ثورة إيران التي أَقضَّت مضاجعَ الولايات المتحدة الأمريكية، وأفسدتْ عليها خُطَطَها

الجائرةَ، وصمودِ العراق في هذه الحربِ الضَّروس؛ ويريد الأعداءُ مع هذا، الدفاعَ عن إسرائيل عزيزتِهم الـمُدَلَّلَةِ التي لا يَألُون جهداً في البرور بها والقيام بجميع ما تحتاجه في الحرب والسِّلم كما نرى الآن. ولأجلِ هذا أقول: إنَّ الجهادَ المقدَّسَ أصبح اليومَ مِنَ الواجبات على المسلمين في الشرق والغربِ، لِأَنَّ مِنَ المقرر في شريعتِنا أَنَّ الكفار إذا دخلوا بِلادَنا ونزلوا بِأرضِنا، كما وقع الآن في الجزيرة العربيةِ مِن إحتلالهم لها بِإسم الدِّفاع عن المشروعية الجائرة المصطنَعَة، فإِنَّ الجهادَ يتعيَّن علَى المسلمين لِقِتالهم، وإِخْراجِهم مِنْ أرضِنا؛ لا فَرْقَ في ذلك بين القويِّ منا والضعيف، كلٌّ علَى قدر جهدِه وطاقتِه، كما قال تعالى:

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

فمَنْ ساعَدَ، أَوْ وَافَقَ، أَوْ رضِيَ، أو أَقَرَّ، أو سَكتَ ولم يَرفع صوتَه ضِدَّ هذه الحربِ المُعلَنةِ علَى الإسلام في العراق، فهو ضالٌّ مارقٌ، خارجٌ عن دائرة الإسلام؛ وهذا معلومٌ لِكلِّ مسلمٍ يَعلمُ ما قرَّره علماءُ الشريعة في هذا الموضوع، وإِنْ كان الذين لا ضميرَ لهم مِمَّنْ يَدَّعِي العِلمَ طَبَّلوا وزَمَّروا وصاروا يُفتُون بِأَنَّ هذه الحربَ عادلةٌ، وأنَّها لِردْعِ الظالم وردِّ الحقِّ إلى أَهلِه؛ وهذه كلمةُ حقٍّ أُريدَ بها باطلٌ .

وأقول لهؤلاء العلماء، لقد ضللتُمْ سواءَ السبيلِ، وخرجتم عن شريعة الله تعالى، وأغْمَضَ أَعْيُنَكم الدُّولار عن قولِ الحقِّ المُبينِ في هذه الحربِ الصَّليبيَّةِ، ولهذا ورَدَ في الحديث: «**إِنَّ الصَّفا الزُّلالَ الذِي لا تَثْبُتُ عَلَيْهِ أَقْدامُ العُلَماءِ الطَّمَع**»، فَلَولا الطمعُ لَمَا أفتيتُم هذه الفتاوى الكاذبة المؤيِّدة لِلغَزْوِ الصَّلِيبِي لِبلادِ الإسلام تحت سِتار (المشروعية المصطنَعَة لِمحاربةِ الإسلام).

بِالأمسِ سمعتُ في إذاعةِ صوتِ أمريكا الصباحية حديثاً لِمراسِلِها في القاهرة مع وكيل شيخ الجامع الأزهر، في شأنِ حُكمِ الإسلام في هذه الحرب، ومِمَّا جاء

في كلام هذا الوكيلِ أَنَّ الإسلامَ يُجِيزُ محاربةَ الظالِمِ.. إلخ كلامه الساقط البعيدِ عن كلِّ تحقيقٍ علميٍّ. وأقولُ لهذا الوكيل الذي لا ضمير له: هل وجدتَ في الإسلام جوازَ محاربةِ الظالم بِقَتلِ النِّساء والأطفال والشيوخ، ومَنْ لا يَدَ له في القِتال؟؟ فهذا يا حضرةَ الوكيلِ لم يُجِزْه الإسلامُ حتَّى عند قِتال الكُفّار. فكيف تُجِيزه في قِتال الأُمَّةِ الإسلامية المؤمنة؟! يا شيخُ راجِعْ ضميرَك، واتْرُكْ هواكَ وراء ظهْرِك، بعد ذلك تَكلَّمْ!!

وجميعُ هؤلاء العلماء أجازوا قِتالَ المسلمين في العراق بِالتحالف مع الكُفار، ورسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**لَا حِلْفَ فِي الإِسلامِ**». فالتحالف لا يَجوز بين المسلمين بعضهم مع بعض، لِمَا يترتَّب عليه مِنَ الأحقاد والضغائن، فكيف مع الكفار وفي محاربة المسلمين؟! وتحت رايةِ الصَّليبيِّين؟! مِنَ العار العظيم أَنْ يُحيِيَ العلماءُ سنَّةَ الجاهلية التي جاء الإسلام لِمحاربتِها والقضاءِ عليها؛ ويَتركوا شعارَ الإسلامِ: الأَمرُ بالتناصر علَى الكُفر، والتَّآزرُ، والصُّلحُ بين الإخوة كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**﴾. فأين هذا مِنَ التحالف مع عَبَدَةِ الصَّلِيبِ لِقَتلِ المسلمين؟؟ يقول اِبنُ تَيمِيَةَ في الفتاوي (ج 28/ص 20) ما نصُّه: ((وقد كانوا في الجاهلية يُحالفُ الرجلُ قَبِيلةً، فإذا وَجَدَ أقوَى منها نَقَضَ عهدَ الأُولَى وحالَفَ الثانيةَ، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿**وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا، وَقَدْ جَعَلْتُم اللَّهَ عَلَيْكُم كَفِيلاً، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ**﴾..)).

فهَا أنتم أفْتيتُم بِتَركِ عهدِ الإسلام في التَّآزر والإصلاح بين الإخوةِ عند التنازع، وتحالفتُم مع الصليبيَّةِ، فَنقضْتُم عهدَ الله تعالى، حتَّى صِرتُم تُعادُونَ مَنْ يُعادي حُلفاءَكم، وتُوالُونَ مَنْ والَاهُم؛ يقول اِبنُ تيمية في فتاويه: ((وَمَنْ حالفَ شخصاً علَى أَنْ يُوالِي مَنْ وَالاهُ ويُعادِي مَنْ عاداه، كان مِنْ جِنْسِ التَّتارِ المُجاهِدين في سبيلِ الشيطان. ومِثلُ هذا ليس مِنَ المجاهدِين في سبيلِ الله، وَلا مِنْ جُندِ

المسلمين، وَلا يَجوزُ أَنَّ مِثلَ هؤلاء مِنْ عسكرِ المسلمين، بل هؤلاء مِنْ عسكرِ الشيطان..!!)).

ومِنْ كلام اِبنِ تيمية هذا، تَعلمُ جَهْلَ مَنْ يُطلِقُ الشهادةَ علَى مَنْ ماتَ في صفِّ المتحالِفين علَى الكُفر.

كيف أجزتُم أيُّها المُفْتونَ المُضَلِّلون، لِحلفائِكم الصَّليبِيِّين أَنْ يُلقُوا آلافَ الأطْنانِ مِنَ القنابل علَى المدن الإسلامية لِتَفْتِكَ بِالمؤمِنين؟؟ واللهُ تعالى أخبر في كتابه العظيم أنَّه كفَّ أيدِي المسلمين عن كُفَّارِ مكَّةَ لِوجود جماعةٍ مِنَ المؤمنين والمؤمنات بين كُفَّارِ مكَّةَ لم يَستطِيعُوا الهجرةَ، فربَّما جَهِلَ أمْرَهم جيشُ الرسولِ فَقَتلوهم مع مَنْ يُقتلون مِنَ الكفار، وذلك لا يَجوز وفيه مَعَرَّةٌ، وسوءُ مقالةٍ مِنَ الكفار أنهم فعلوا بأهلِ دِينِهم المسلمين مِثلَ ما فَعلوا بِهم، فقال الله تعالى في سورة الفتح: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. فبَيَّنَ الله تعالى أَنَّ قتْلَ المسلمين الموجودين مع الكفار في مكَّةَ ولو بِغيرِ عِلْمٍ وعن جهْلٍ، فِيهِ مَعَرَّةٌ ومكروهٌ، كوجوبِ الدِّيةِ والكفَّارة بِقَتلِهم والتأسف عليهم، والمعنى: لولا كراهة أَنْ تَقتلوا أناساً مؤمنين بين أظْهُرِ الكفار جاهِلِين بِهم، فَيُصِيبكم بِقتلِهم مكروهٌ وسوءٌ، لَمَا كفَّ أيديَكُم عنهم. فكيف أفْتيتُم يا علماءَ التَّحالفِ الكافِرِ وأجَزتُم لِأَنفسِكم ولِحلفائِكم قتْلَ المسلمين بالقنابل الفتَّاكةِ رجالاً ونساءاً، شيوخاً وأطفالاً ؟؟؟ فقد جهِلْتُم كِتابَ الله تعالى وأعرضتم عن أحكامِه الإلاهية وتعاليمِه القويمةِ، بسبب طاعتِكم لِحلفائِكم الصَّليبِيِّين، كما أخبر الله تعالى عن حالكم هذا بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ، وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ، وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

فنرجُو أَنْ يُراجِعَ علماءُ المتحالِفين نَظَرَهُم في هذه الفتاوى التي شوَّهوا بها وَجْهَهم، ويَعُودوا إلى رُشْدِهم، فَيَأمروا رؤساءَهم بِالكَفِّ عن ذبْحِ المسلمين بِأيْدِيهِم وأيْدِي المتحالِفين معهم، اِتِّباعاً لِشريعةِ الإسلامِ الغَرّاءِ. والرجوعُ إلى الحقِّ فضيلةٌ، وتصحيحُ الصوابِ خيرٌ مِنَ التَّمادِي في الباطِلِ.

«أنوال»، عدد 575، في: 91/2/19.

وهكذا كان رحمه الله يُجسِّد دائماً دورَ الصفوة مِنْ علماءِ الإسلامِ القلائلِ العِظامِ، الذين يَرفضون الخضوعَ لِلْحُكّام كلَّما اِنحرفوا عن شرع اللهِ، وعطَّلوا الحكمَ بِما أنزل اللهُ، والذين يَجعلون الصَّدعَ بِحكم الإسلام فوق كلِّ اِعتبار، ولا أَدَلَّ على ذلك مِنْ رَفْعِ صوتِه مِنْ فوق مِنبرِ مسجدِ المُحْسِنين بِحيٍّ بني مَكادَة بِطنجة، مُطالِباً بِوجوب[1] محاكمةِ حاكِمِ السعودية بِتهمة الخيانةِ العُظمَى ومُجرم حربٍ، لِدعوتِه القوات الأمريكية وإفساحِه المَجالَ لها ولِحلفائِها دخولَ الجزيرة العربية، لِتَنطلِقَ منها في قِتال الشعبِ العراقيِّ المُسلمِ.

---

1 - إثرَ وُقوعِ مجزرة مَلْجإِ العامريَّةِ، ببغداد، والتي قُتل فيها المِآت من النساء والأطفال والشيوخ مِن أهل العراق، حيث قصفت الطائرات الأمريكية هذا الملجأ بأسلحتها الفتاكة منطلقة مِن أراضي السعودية، قام العلامة الشيخ سيدي عبد العزيز رحمه الله تعالى بتحميل مسؤولية هذه الجريمة في حق المسلمين والإنسانية كاملةً للملِك فهد بن عبد العزيز، الذي سمَحَ لِلأمريكان بِاستغلال أراضي السعودية لِضرب المسلمين في العراق، بل طالب بمحاكمته بتهمة الخيانة وإرتكابه جرائم حرب في حقِّ الأبرياء في العراق، وقد صرَّح بهذا في مقالةٍ له، كما خصَّص خطبةً جمعة في مسجد المحسنين، أعلن فيها مسؤولية فهد بن عبد العزيز في وقوع هذه الجريمة البشعة النكراء في حق الأبرياء في العراق،، فكانت آخر خطبة له في هذا المسجد..
وقد زاره في بيتِه المُلحق الثقافي للسفارة السعودية برفقة رئيس المجلس العلمي لمدينة طنجة، في زيارة خاصة، كان غرضها محاولة (إرشاء) الشيخ للتراجع عن موقفه وفتواه في التحريم، والوقوف في صف علماء السعودية، حيث عَرض عليه الملحق الثقافي عرضاً مُغرياً، يتمثل في راتبٍ شهريٍّ سخيٍّ، والسفر للسعودية - حجاً وعمرةً -.....إلخ. لكن الشيخ رحمه الله تعالى اِعتذر عن عدم قبول العَرضِ، بالحُسنى. (عبد المنعم).

ولا يَخفى ما لِشِدَّةِ وخطورة هذا التصريح، حيث تَنطبق وتشمل التُّهمة فيه -بطبيعة الحال- كلَّ الذين ساندوا الاستنجادَ بالكافرين في قِتال المسلمين..

وجاء الردُّ سريعاً عن طريق وزارة الأوقاف بِتوقيفِه عن خطبةِ الجمعةِ التي كان يتولَّاها في المسجد المذكورِ لأكثر مِنْ رُبعِ قرنٍ.

وقد سبق لشيخنا الإمام سيدي عبد العزيز بن الصديق أَنْ تصدَّى لِوزيرِ الأوقاف عبدِ الكبيرِ العَلَوي بِرَدٍّ عِلميٍّ مُفحِمٍ علَى درسِه الذي اِفْتَتح به الدُّروسَ الحسنِيةَ في رمضان 1410/ أبريل 1990، حيثُ اِنْتقدَ رحمه الله سَنَد حديثِ «اَلسُّلْطانُ ظِلُّ اللهِ في اَلأَرْضِ»، الذي اِعتمده الوزير وبَنَى عليه موضوع درسِه، فَأوضحَ له شيخنا رحمه الله تعالى بِأنَّ الحديثَ المذكورَ هو مِنَ الأحاديث الموضوعةِ، وأتَى في ذلك بالدلائل القطعية التي أجْمعَ عليها أهلُ الحديث قاطبةً، وقد نشرتْ ردَّه جريدةُ "العَلم" في حِينِه، بعنوانٍ بارزٍ بتاريخ 10 رمضان 6/1410 أبريل 1990. وقامت مختلفُ الصحف والدوريات الوطنية والعربية والإسلامية بِاقتباسه منها، وأثار هذا الردُّ ضجَّةً علميةً كبيرةً بين مختلف الأوساط، السياسية والعلمية والمثقفة، وأصبح حديثَ عامَّةِ الناس، حتى أنَّ بعض الإذاعاتِ العربيَّةِ أذاعت خبرَ هذا السِّجال العلميِّ الدائر في المغرب عن هذا الحديث، وكذلك بعض الصحف الكبيرة في العالم العربي. فلم يَجد وزيرُ الأوقاف بُدّاً مِنَ الاستعانة[1] بعددٍ مِنَ العلماء الرسميِّين

---

1 ـ وللتعريف بأمرٍ حدَثَ أثناء نشر تعقيبه على وزير الأوقاف، فإنه يومَ نُشر الجزء الأول من تعقيبه عليه في حديث: «السلطان ظل الله في الأرض»، تلقَّى فضيلة الشيخ بعده «اِستدعاءً» لمقابلة ناظر وزارة الأوقاف لِمدينة طنجة، فقابله يوم الأربعاء 15 رمضان 1410، الموافق 11 أبريل 1990، وكان الغرض مِنَ المقابلة ترهِيبَ الشيخ رحمه الله تعالى وتخويفه بالمتابعة القَضائية مِنْ طرفِ وزارة الأوقاف، إنْ لم يرجع عمَّا كَتب عن موضوع حديث:«السلطان..»، أو يتوقف عن الكتابة فيه. لكنه رحمه الله تعالى لِاعتماده على ربِّه جلَّ وعلَا في شؤونه كلِّها، كان لا يَعبأ بمثل هاته الأساليب «التَّرهيبيَّة»، ولا يلتفتُ إلى مخلوقٍ أبداً، فَقَناتُه في الحقِّ صلبةٌ، بل تابع رحمه الله سبيل التبيين والتوضيح في الدفاع عن حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى لا يصبح عُرضةً لكلِّ أحدٍ أراد أن يُرسِّخ باطله تحت مِظلَّةِ الشرع الحنيف، فَكتَبَ الجزء الثاني مِنَ التعقيب، على الوزير وعلى رئيس المجلس العلمي للأقاليم الجنوبية الذي كتب ينتصر لوزير

في المجالس العِلمية، حيث (كان يُطلب منهم بصيغة الأمر) الكتابة في بيان حال هذا الحديث، اِنتصاراً وحفظاً لمكانةِ الوزيرِ[1]، وكانت الوزارة تقوم بِنشر ردودِهم على صفحات مجلَّتِها.

ولا عجب في درس الوزير المذكور، فقد دأب علماءُ السلاطين على ترويج مِثلِ هذا الحديث الموضوع، وأحاديث موضوعةٍ مكذوبةٍ أخرى، اِسترضَاءاً لِملوكهم، وتزَلُّفاً إليهم لِينالوا ما عندهم مِنْ متاع الدنيا، وهذا موجودٌ في تاريخهم ومعروفٌ، إذ بالرجوع إلى كتب الأحاديث الموضوعة، والتي تَشرحُ أسبابَ الوضعِ والكذِبِ على رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، نجد أمثلةً كثيرةً لِهذا النوع، حيثُ يكون النِّفاق دافعاً للكذب والوضعِ..

وعند توقِيفه رحمه الله عن خطبة الجمعة، ندَّدت مختلفُ الهيئات المدنية والحقوقية، وكثيرٌ مِنَ الأحزاب السياسية الوطنيةِ حتَّى الأحزابَ اليساريةَ مِنها، بهذا العملِ المُشينِ الذي أقدمتْ عليه وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وقد نُشرت بيانات التنديد والاستنكار والاستهجان في مختلف الصحف الوطنية، مفسِّرةً عملَ الوزارة هذا بالظُلمِ البيِّن، والانتهاك السَّافِر للدستور، في حقِّ عالمٍ كبيرٍ، أفنَى عمره في خدمة العِلم ونشرِه، والدعوة إلى الله، والجهرِ بالحقِّ في زمنٍ أُخْرِسَت فيه الألْسنُ عن كلمة الحقِّ الصادحة بنشر العدل ونُصرةِ المظلومين، ومحاربة كلِّ أنواع الحيف والاستغلال، ورفْعِ البُؤس عن الضعفاء والمحتاجين مِنْ أبناء الأمة.

الأوقاف.. كذلك كتب جماعةٌ من العلماء والفضلاء يؤيدون السيد الوالد في ردِّه على الوزير وفي مقدِّمتهم عمِّي وشيخي العلامة المحدث سيدي عبد الله بن الصديق رضوان الله عليه. (عبد المنعم)

1 - أودُّ الإشارة إلى أنَّ والدي السيد عبد العزيزبن الصديق رحمه الله تعالى تعقَّبَ وزيرَ الأوقاف الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري في أكثر مِنْ مناسبة في دروسه الحسنية الرمضانية. إذ كان السيد الوزير يتقحَّم لِأجل تحقيق المبتغى المطلوب مِنْ درسه، مواضيع يأتي فيها بِإستشهاداتٍ إما بأحاديث موضوعة كما هو الحال في حديث السلطان، وإما بأقوال مخالفة لعقيدة أهل الإسلام كقوله بِرَدِّ العمل بالحديث الشريف لأجل التقريب بين المذاهب، وإمَّا بأمور فقهيةٍ خالف فيها الدكتور العلوي الفقهاء.. إلخ. وقد جُمعت هذه المقالات وستُصدر محققةً إن شاء الله تعالى قريباً، لتعمَّ بها الفائدة. (عبد المنعم)

ومعلومٌ أَنَّ توقيفَه رحمه الله عن الخطبة كانَ مسبوقاً ومتبوعاً بتوقيفِ عددٍ غيرِ قليلٍ مِنْ خطباء صلاةِ الجمعة في مختلف المدن المغربية، الذين رفضوا الخضوعَ لتعاليم وزارة الأوقاف، وأَبَوْا إِلَّا أَنْ يَقوموا بِمهمَّتِهم بِما يَقتضيه كتابُ الله وسنَّةُ رسولِه صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي تَحدٍّ سافرٍ لِمَا أَلْزَمَ اللهُ تعالى به العلماءَ، مِنْ عظيمِ مسؤولياتِهم في رسالتِهم التي طوَّقَهم بها في إقامةِ هذا الدِّينِ، الذي لا مجال فيه إطلاقاً لِفَصلِه عن الدولة، اِنطلقتْ وزارةُ الأوقاف تتعاملُ مع العلماء وخطباءِ صلاةِ الجمعة على مبدئِ علمانية الدولة، متناقضةً بذلك مع الدستور الذي يَنصُّ علَى أَنَّ الإسلامَ دينُ الدولةِ، وهذا يَعني بِوضوحٍ أَنَّ المغربَ ليس دولةً علمانيةً. ورغم هذا، عمدتْ إلى تنحيةِ وغصْبِ اِستقلاليةِ العلماء، وحريتِهم في التعبير، ومنعِهم القيامَ بِمهام مسؤوليتهم التي عليها يَدورُ صلاحُ الأمةِ في دينِها ودنياها، لِتَجعلَ منهم مجرد أبواقٍ لتلاوة خُطبِها، أو بعبارةٍ منشوراتِ هذه الوزارة التي فَرضتْ نفسَها وصيَّةً عليهم، مُصِرَّةً علَى توجيهِهم، بَدَلَ أنْ يَكونَ العلماءُ -كما تَفْرِضُ عليهم مسؤوليتهم- هم الذين يُوجِّهونَها. وهو الأمرُ الذي اِستمرَّ عليه علماءُ الإسلام وحكَّامُ المسلمين في كلِّ عصرٍ، وعرفه المغربُ كذلك طوال تاريخِه الذي لم يَحدُثْ فيه قبل عصرنا تَدخُّلُ أيَّةِ سلطةٍ إداريةٍ في فرْضِ رقابتِها علَى العلماء وخطباء الجمعة، فأحرَى أنْ تتجرأ علَى توقِيفهم، وتعطيلِ مهمتهم التي أمرهم الله تعالى بها واِستأمنهم عليها.

هذا مع العلم، أَنَّ لِخطبةِ الجمعة مِنَ الشروط التي أَجْمَعَ عليها علماءُ الإسلام بحيث إذا اِفتقدَتْها الخطبةُ لَمَا صَحَّتْ شرعاً، وذلك ما بَيَّنه شيخُنا العلَّامة المحدِّث سيدي عبد العزيز بن الصديق رحمه الله تعالى، فقال في جريدة "مَجْمَع البحريْن" العدد الخامس، بِتاريخ نونبر 1988:

"ورَدَ علينا سؤالٌ مِنْ جهاتٍ متعدِّدةٍ، ومرّاتٍ متكررةٍ مِنْ سائر الطبقاتِ، المتعلِّمة وغير المتعلِّمةِ، عمَّا اِعتادته نظاراتُ الأوقاف في الأقاليم عند المناسبات غيرِ

الدِّينيةِ، مِنْ تكليفِ خطباءِ المساجدِ بِإلقاءِ خطبةٍ في موضوعِ تلك المناسبات، وتُرسَلُ لهم تلك الخطبةُ في ثلاثِ ورقاتٍ أو أكثر. مع العِلم أَنَّ تلك الخطبةَ تكون غيرَ متعلِّقةٍ بِأمْرٍ يَهمُّ المصلِّين مِنْ ناحيةِ دينِهم، لِهذا نَرفعُ إليكم السؤالَ لِتُفيدونا هل تَصِحُّ صلاةُ الجمعة بتلك الخطبةِ أم لا؟ والله تعالى يوفقكم، والسلام.

وجوابُنا عن هذا السؤال، هو أَنَّ خطبةَ الجمعة اِتَّفق جمهورُ الفقهاءِ مِنَ المذاهب الأربعة أنَّها تَنوبُ عن الركعتيْنِ مِنَ الظُّهرِ الرُّباعية، وقالوا: قُصرتِ الصلاةُ لأجْلِ الخُطبة؛ هذا لا خلافَ فيه بينهم، ورَوَوْا في ذلك آثاراً عن الصحابة، ولِهذا اِشترطوا في الخطبة التي قُصِرَتِ الصلاةُ لأجلِها شروطاً ذكروها في كُتبِهِم الفقهيةِ، وقالوا: إذا فُقِدت تلك الشروطُ فلا يُعتمد عليها في إِسْقاطِ الركعتين مِنَ الظُّهر الرُّباعية، ويَجِبُ أَنْ يُصَلَّى الظُّهرُ أربعاً. قالوا: لأنَّ المقصودَ مِنَ الخطبةِ هو التذكيرُ وتعليمُ أمْرِ الدِّينِ، وتعريفُ المؤمنين بِما يَنفعهم في آخرتِهم، ودنياهم مِنْ معرفةِ الحلال والحرام، فإذا لم تتوفر هذه الأمورُ في الخطبةِ سقط اِعتبارُها في كونها عوضاً عن الركعتين. ولهذا قالوا: الخطبةُ المشروعةُ هي ما كان يعتاده النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ تقرير أصولِ الإيمان، مِنَ الإيمان بالله وملائكتِه وكُتبِه، ورُسلِه، ولقائِه، وذِكرُ الجَنَّة والنَّارِ، وما أعدَّ اللهُ تعالى لأوليائِه وأهلِ طاعتِه، وما أَعَدَّ لأعدائِه وأهلِ معصيتِه؛ فَيَملأ القلوبَ مِنْ خطبتِه إيماناً وتوحيداً، ومعرفةً بالله وآياتِه. فهذا هو المقصودُ مِنَ الخطبة، وهذه حقيقةُ روحِها التي شُرِعَت لأجْلِها، وإذا لم يَتحقَّق هذا في الخطبةِ فهي لاغِيَةٌ لا تُعتبرُ عند الفقهاء، حتى قالوا: إنَّ الكلامَ واللَّغوَ ولو بِمَسِّ الحَصَى يَحرمُ أثناء الخطبةِ لِئَلَّا يَفوت سماعها والانتفاع بها في الإرشاد والتعليم. ومع ذلك إذا تكلَّم الخطيبُ بِما هو خارجٌ عن موضوعِ الخطبةِ بِذِكرِ ما ليس له علاقةٌ بِأمور الدِّينِ، فَيَجوزُ لِلسَّامعِ ساعتَئِذٍ أَنْ يَلْغُوَ ويتكلَّمَ، أو أَنْ يُسَبِّحَ، لِأَنَّ الإنصاتَ لا يجب فيما هو خارجٌ عن المعنَى التي شُرِعت له الخطبة. وهذا أمرٌ مقررٌ في كُتبِ الفقه بِبَيانٍ وافٍ،

لا نحتاجُ إلى ذِكْرِه، لأنَّ المرادَ هو التعريف بِما يَـهمُّ.

فإذا عُلِمَ هذا وتـقرَّرَ في الأذهان وإستقرَّ في الأفهامِ، عُلِم أَنَّ تلك الخطبَ التي تُـلْزِمُ نظاراتُ الأوقاف أئمةَ المساجدِ بِإلْقائِـها يومَ الجمعة أمرٌ غيرُ جائزٍ شرعاً، ولا يُجيزُه أحدٌ مِنَ الفقهاء مِنْ أهلِ المذاهب الأربعةِ التي مِنها المذهبُ المالكيُّ، الذي عمل المغاربةُ علَى التَّديُّنِ به وعدم الخروج عنه في جزئيةٍ مِنْ أَحكامِه وآرائِه، حتَّى ولو كانت مخالفةً لِلسنَّةِ الصحيحةِ المتواترةِ. وقد علمتم مما ذكرنا أَنَّ صلاةَ الجمعة بتلك الخُطبِ باطلةٌ، ويَجِبُ علَى المصلِّين أَنْ يُعِيدوا صلاةَ الظُّهرِ أربعاً، لأنَّ ما قُصِرت الصلاةُ لأجلِه وهو الخطبةُ لم تـتوفر فيها الشروطُ التي قـرَّرها الفقهاءُ في كُـتبِهم.

فـنَرجو أنْ يَـنتبهَ المشرفون في وزارة الشؤون الإسلامية لِهذا الأمرِ الخطيرِ المُفسِدِ للصلاة مِنْ غيرِ أَنْ يُعِيرُوا له أدْنَى اِهتمامٍ. واللهُ تعالى يُلهمنا رُشدَنا جميعاً ويُوفِّـقنا لِصَلاح دِيـنِنا" اهـ.

وهكذا كان رحمه الله ورضي عنه، يَعملُ في تَبْيِينِ ما اِستهدفتْهُ شريعةُ هذا الدِّينِ، لِيَكونَ به المسلمون في أعلَى وأرقَى مستوىً مِنَ العِزِّ والقوةِ والتمكين، ما إستقاموا في كلِّ شؤونِـهم عليه، يأخذون في كلٍّ ما جاء في كتابِ الله، وسُنةِ رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ليكون لهم الإسلام حِصنَهم المنيعَ لِمواجهةِ أعدائِه في حروبِهم الساخنة والباردة التي لا تتوقف، ولن تـتوقف، مِصداقاً لِقولِه تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾.

خاصةً في عصرنا الذي ضمَّ فيه الأعداءُ إلى قِـتالهم العسكريِّ قتالاً فِكريًّا لم يُسبقْ نَظيرُه في التاريخ، بِإعتباره أفظع وأعمق أثراً مِنَ الحروب الصليبيةِ العسكريةِ الأُولى، وما شعاراتُ (العولمة، والحداثة، والديمقراطية، والعصرنة، وما شابهها) ماهي إلا جبهاتُ حربٍ فكريةٍ صليبيةٍ، تستهدف -وعلى كلِّ مستوى- اِقتلاعَ مبادئ الإسلام وتشريعاتِه مِنْ نفوس المسلمين، حتَّى لا يَستعيدوا دَوْرَ الإسلام الرائد في

معترك الحياة، ولِينساقُوا بذلك بِإرادتِهم -دون حربٍ عسكريةٍ- مع سياسة الكافرين، لِيَجِدوا أنفسَهم كما هو حالهم، يَندمجون معها، ويحتضنونَها في أنظمة حكمهم ومنهج حياتهم، ولا ينهج قادةُ الحكم فيهم بغير تعاليمِها، ولا يُقرِّرون في مؤتمراتهم العربية والإسلامية إلَّا اِنطلاقاً منها ورجوعاً إليها.

وعن خطورة هذه الحرب، يَتَميَّز الدورُ العظيمُ الذي قام به العلاَّمةُ المجاهدُ الإمام الشيخ عبدُ العزيز بنُ الصدِّيق رحمه الله في مُجابهتِها ومقاومتها علَى كلِّ مستوىً، مبيِّناً بشجاعتِه المعهودةِ ضرورةَ اِرتباطِ كلِّ حُكمٍ وسياسةٍ، وكلِّ اِقتصادٍ وتربيةٍ وتعليمٍ وثقافةٍ، بِتعاليم الإسلام وتشريعاتِه. وأَنَّ هذا هو ما يَعنيه الدِّينُ كما أنزله الله تعالى في كتابه، وكما تَولَّى بيانَه رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم قولاً وعملاً في تطبيقِه، اِستغرق كلَّ مجالٍ وشَمِلَ كلَّ ميدانٍ، باِعتبار الإسلام كما هو معلومٌ في الدِّين بالضرورة: عقيدة وشريعة، ونظاماً لِلحكم، ومنهاجاً للحياة.

ذلك أنَّ إعراضَ المسلمين عن كتاب الله وسنة رسولِه صلى الله عليه وآله وسلم أدَّى بالأمة الإسلامية إلى اِنقيادِها بأنظمةِ حُكمِ الكافرين، يَتبعونهم في سياستهم، وفي أساليب تربيتِهم، وتعليمِهم وثقافتِهم، لِتَصِلَ هذه التَّبعيةُ بطبيعتها إلى ما تعوَّدتْ عليه مجتمعاتُ الكفر، مِنْ تَميِيعٍ واِنحلالٍ، وفسادِ الأخلاقِ ونشْرِ الرذائلِ والمنكَراتِ، مستحلِّين الخمرَ والبِغاءَ، والفواحشَ بأنواعها وأفحشِها، حتَّى اِنتفَى كلُّ ما كان يَتميز به مجتمعُنا في المغربِ المسلمِ عن مجتمع الكافرين، الذين قال لنا الله تعالى عنهم: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

ومِنْ هنا كان الكفرُ عدوًّا للإسلام، وكان الكفارُ أعداءَ المسلمين ما وُجِدَ في الدنيا إسلامٌ وكُفرٌ إلى يومِ البعثِ؛ الأمر الذي يجعل حتماً أَنْ تَبقَى هذه الحقيقة القطعية -التي لن تتبدل ولن تتغير- حاضرةً لدَى المسلمين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، يتجاوبون معها ويعتمدونها ويتخذونها معياراً ومقياساً في كلِّ العلاقات بين

المسلمين والكافرين.

وفي هذا الميدان، مِنَ الجهاد في مقاومة مَكرِ الكافرين وعملائِهم، نراه رحمه الله مع تـميُّزِهِ بِحضوره الواسع فيه، على كلِّ مستوى، وفي كلِّ صعيدٍ، لا يَلِينُ ولا يَستَكِينُ أو يُداهِنُ في دعوتِه إلى هذا الدِّين، يأبَى إِلَّا أَنْ يُضيف إليه حضوراً آخر مماثلاً في عالَـمِ الصحافة، بِاعتبارِ مالَـها مِنْ دورٍ مُؤثِّرٍ علَى نطاقٍ واسعٍ في الجمهور، وذلك مِنْ خلال رئاستِه لِهيئةِ التحرير في جريدة "مَجْمع البحريْن"، الصادر عددُها الأول في فاتح يوليوز 1988، وكان مديرها الأستاذ الغَيور مصطفَى البقَّالي الطَّاهرِي، ثم أصبح الإمامُ الشيخُ سيدي عبدُ العزيز بن الصدِّيق مديراً لها اِبتداءاً مِنْ عددِها السابع، وبذلك فتح رحمه الله قناةً واسعةً أخرى في اِتِّصالِه بالجمهور، واِتِّصالِ الجمهور به، وواصل مِنْ خلالها توعيةَ المسلمين بِدينِهم، موضِّحاً أَنَّ شؤونَ السياسة من مختلف المعاملات هي في الإسلام لا تنفصل في شيءٍ عن العبادات، وإنما هي مِنْ مقتضاها والدليل في البرهانِ على مصداقيتِها، ومبيِّناً ما علَى الحكَّام والعلماء مِنْ عظيم المسؤولية التي أدَّت بِتدهور أوضاع الأمة الإسلامية بِشكلٍ فظيعٍ في كلِّ مجالٍ. مِمَّا أثار عليه غضَبَ "زبانيةِ" وزارة الداخلية، فسلَّطتْ على هذه الجريدة ما لا يخفَى مِنْ مضايَقاتٍ وشطَطٍ في السلطة وتعسُّفاتٍ، اِنتهت بتوقيفها في 22 مارس 1991 بأمرٍ مِنَ الوزيرِ الأول.

ثم أصدر رحمه الله بِمشاركة الأستاذ مصطفى البقَّالي الطاهري جريدةَ "الفجر"، وتقاسَما فيها مسؤوليةَ الإدارة والتحرير، وكان عددُها الأول في شعبان 1412، لكنَّها ما لبثَتْ -بعد صدور أعداد قلائل- أَنْ لاقت مِنَ الحكومة نفسَ المصير، وأوقفتْها. لأنها اِستمرت على النهج الإسلاميِّ في مقاومتها لِمَا تُمارسه الحكومةُ مِنْ مختلف أنواع الظلم الاجتماعيِّ والاستبدادِ السياسيِّ.

وما كان لِلظلمِ أَنْ يُقلِّص في شيءٍ مِنْ سعة حجمِ جهادِه، وإنما واصلَه كعادته، بِما عُرِفَ عنه مِنْ شجاعةٍ وثباتٍ، مهما كانت الظروفُ واشتدادُ القمع. فكان،

رحمه الله، في منزله يستقبل يومياً أُطر شبابِ مختلف الجماعات الإسلامية، العاملةِ سواءً علَى الصعيدِ الوطنيِّ أو العالَـميِّ، وأطراً في كثير من الأحزاب السياسية الوطنية، كيفما كان منهجها، يتبادل معهم الرأيَ والحوارَ عمَّا يَعترضُ طريقَهم مِنْ مشاكل، ويُـمدُّهم بتوجيهاته وإرشاداته لِـمواجهتِها والتغلُّبِ عليها.

كما كان منزلُـه مقصِداً لِـمديري ومندوبي الجرائد الـمحلِّية والوطنية، يتقاطرون عليه ويتسابقون إليه، رغبةً في اِستجوابِ الإمام الـمجاهدِ عن أهمِّ وأخطر قضايا الساعة التي تَـمرُّ بها الأمة الإسلامية، فيتنافسون في نشر أجوبتِـه الشجاعة، ومقالاتـه القيِّمة الـمتَّسمة بِعُمق التحليل والإدراك لخطورة أوضاع الأمَّة، ولِلخلفيات التي أدَّت إليها، فتَجدُ صدَاها بارزاً. ويُعاد نشرُها في صحفِ الشَّرق، خاصةً جريدة "القُدس" الصادرة في لندن. وما يكاد يُنشر مقالٌ له في صحيفةٍ إلَّا وتكون الجرائد الأخرى في سباقٍ عن النقل عنها لإعادة نشرهِ.

كذلك اِنتظم ولِسنواتٍ في كتابة ركنٍ أسبوعيٍّ على صفحات جريدة "الخضراء الجديدة"، الصادرة بطنجة، ساهمت وبقوةٍ في تنوير الرأيِ العامِّ وتعريفِهم بحقيقة الدِّين الإسلاميِّ، الذي هُجرت أحكامه وأخلاقُه السَّمحة، واقتُصر منه على مظاهر العبادات فقط كالحج والعمرة والصيام.. حيث أقبل على قراءتها جمٌّ غفير مِنَ القراء، مِنْ مختلف الطبقات، فكان رحمه الله تعالى يتخذ من ركنه الأسبوعي هذا منبراً يجيب فيه على أسئلة السائلين التي تقاطرت عليه من مختلف جهات المغرب، بل وحتى مِنْ خارجه، فأجاب منه على نوازل فقهية غريبةٍ، وأبدَى مِنْ خلاله حكم الشريعةِ في كلِّ ما رُفِعَ إليه رحمه الله تعالى، ولولا خوف التطويل لَسُقنا نماذج منها.

وكان يُوجِّه منها أيضاً اِنتقاداتٍ لاذعةً للمسؤولين داخل المدينة لنهجهم في تسيير أمور المدينة نهجاً مخالفاً، أو لأصحابِ القرار السياسي -داخل المغرب أو خارجه- عند حلول أمرٍ أو حدثٍ جللٍ، لينبههم إلى حكم الإسلام فيه، فلقيت

هذه المقالات صيتاً كبيراً حتى كان القُرّاء ينتظرونها وبلهفةٍ كلَّ يوم خميسٍ. وقد جُمعت بعضُ هذه المقالات بعد وفاته رحمه الله تعالى في كتاب: "الطغيان على العالم الإسلامي -الطغيان الداخلي والخارجي-" وقد طُبِع بطنجة. فقدَّم رحمه الله تعالى من خلال مقالاته صورة العالمِ المطَّلع المتمكِّن، الواعي بمجريات عصره، وما يتخبط فيه أبناء أمته ووطنه من مشاكل ومآسي نتيجة إهمال المسؤولين لحسن السياسة، وما تُحاك ضد الإسلام من خطط لأجل النيل من أبناء الإسلام.

وهذا قليلٌ مِنْ كثيرٍ، مما يجب أَنْ يُقالَ في حقِّ العلَّامةِ المجاهدِ، المُوَفَّقِ في النَّقدِ والتحقيق، الإمامِ الحافظِ الشيخ سيدي عبدِ العزيز بنِ الصِّديق رحمه الله، عسَى أَنْ يكونَ به التذكيرُ لأبنائنا وإخوتِنا، سواء في المغرب أو في وطنِنا الكبير مِنَ العالم الإسلامي. فإنَّ الذِّكرى تَنفع المؤمنين، وتُحْيِي ما يكاد يَندثرُ مِنْ وجوب وضرورة الالتزام والانقياد بكتاب الله تعالى وسنةِ رسولِه صلى الله عليه وآله وسلم، في مقاومة الكفر والكافرين، وعملائهم مِنَ المذبذبين المنافقين، تذكيراً بهذا الانقيادِ الربَّانيِّ والتطبيق النبويِّ، الذي اِنضبط عليه والْتزمَ به شيخُنا سيدي عبدُ العزيزِ بنُ الصدِّيق رحمه الله طول حياتِه، وبه بَقِيَ إلى آخر عمره -بفضل الله- ثابتاً، صامداً، شامخاً في مواقفِه، صلْباً في دينِه، دامغاً في حُجَّته، بَلَداً طيِّباً يخرج نباتُه بِإذنِ ربِّه، وشجرةً طيِّبةً أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماءِ تُؤْتِي أُكلَها كلَّ حينٍ بِإذنِ ربِّها، عميقَ الإيمان برسالة الإسلام، مُشْرِقَ الفِكرِ، واضحَ البيانِ، مستشعِراً ومستوعِباً إلى أقصَى حدٍّ عظيمَ المسؤولية والأمانة التي يَتَحمَّلها العلماءُ بِاِعتبارهم وَرَثَة الأنبياء. فهانَ عليه بذلك كلُّ ما لاقاه، واِستصغر في حقِّ الله بَذْلَ كلِّ مستطاعٍ في التقربِ إلى الله: ((مَنْ عَرفَ ما قَصَد، هانَ عليه مَا وَجَد)).

وكان رحمه الله، غزيرَ المادة في الإلمام بمعرفة أوضاع المسلمين وخلفياتِها، عارفاً بأحوالِ السياسة في العالم ودواعي تَقلُّباتِها، مُدركاً عُمقَ مَكْرِ مُخططاتِ اليهودِ والنَّصارى وكلِّ الكافرين مِنْ علاقاتهم مع حكَّام العرب والمسلمين.

كان رحمه الله داعيةً متميِّزاً للدين الإسلامي، قوياً، متألِّقاً، ونجماً مِنْ أعلامِ علماءِ السلفِ في علماء الخلَفِ، سَيَظلُّ ضوؤُه في جيلِه وفي الأجيال مِنْ بعدِه، تتجسَّدُ فيه الروحُ المسلمةُ القويةُ التي تَجد وطَنَها في كلِّ بلدٍ مسلمٍ يَأبَى العبوديةَ لِغير الله، وتَجِدُ التجاوبَ والتعاملَ معها والأُنسَ بها في كلِّ بقعةٍ يتواجدُ فيها المسلمونَ الأُباةُ الذين يَعيشون لِلإسلامِ في مختلف مناطقِ العالَمِ.

مُجدِّداً لهذه الأمةِ أَمْرَ دِينِها بِدينِها، في كلِّ جانبٍ: مِنَ الروح، والفكر، والعمل؛ لِيَكونَ الدِّينُ كلُّه لله، كما أراده الله تعالى، وكما تمَّ تطبيقُه مِنْ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومِنْ خلفائِه الراشدين رضي الله عنهم، وتُوبع تطبيقُه في حكم وسياسة الصالحين مِنْ حكام وولاة أمور المسلمين، الذين اِنقادوا بِكتاب الله وسنةِ رسولِه صلى الله عليه وآله وسلم، حتَّى لا تكونَ فِتنةٌ، ولا صَدٌّ عن سبيل الله، ولِتكونَ كلمةُ اللهِ هي العُليا، وكلمةُ الذين كفروا السُّفلَى. وما ذاك إلَّا اِعتباراً -كما هو معلومٌ في الدِّين بالضرورة- للمعنى الحقيقيِّ للإسلام، ولِميزتِه الكبرى بوصفِه ديناً ودولةً، يُقيم الدِّينَ بِتأسيس الدولة، أو يُؤسس الدولةَ بِإقامةِ الدِّين، في تمازجٍ وارتباطٍ والْتِحامٍ، لا مجال فيه إطلاقاً لأيِّ اِنفصامٍ، ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

إنَّ شيخَنا العلَّامة الإمام الفذَّ سيدي عبدَ العزيز بنَ الصدِّيق رحمه الله، بِما وهبَهُ الله تعالى مِنَ المؤهِّلاتِ العلمية العملية، والفضائل الخُلُقية، وبِما عُرِفَ به مِنْ إنتاجٍ علميٍّ كبيرٍ، تحقيقاً واِجتهاداً، وبِما تَميز به مِنْ مواقفَ إسلاميَّةٍ في منتهَى الشجاعة والثبات، مجاهداً بها على كلِّ واجهةٍ، حاضراً مِنْ خلالها في كلِّ صعيدٍ، يحارب الكفر والكافرين، والنفاق والمنافقين، لَيُعْتَبرُ بهذا وذاك مِمَّنْ ينطبق عليهم بِكلِّ موضوعيةٍ وبكلِّ مقياسٍ حديثُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي يقول فيه: «**إنَّ اللهَ يَبعثُ لِهذِهِ الأُمَّةِ علَى رأْسِ كلِّ مِائَةِ سنَةٍ مَنْ**

يُجدِّدُ لَهَا أَمْرَ دِينِها». (رواه أبو داود، والحاكم، والبيهقي وغيرُهم بإسنادٍ صحيحٍ).

رحمه الله وأكرَمَ مَثواه، وجزاه عنِ الإسلام والمسلمين أحسَنَ الجزاء، وضاعَفَ له الأجرَ والثوابَ، وجعله في عِلِّيِّينَ، مع الذين أنعَمَ عليهم مِنَ النَّبِيئينَ والصِّدِّيقِينَ والشهداءِ والصالحين، وجزاه اللهُ عنَّا، وعن كلِّ تلاميذِه خيرَ ما جزَى به العلماءَ الرَّبانِيِّين.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاء، رَبَّنا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسابُ﴾، ﴿رَبَّنا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَإِسْرافَنا فِي أَمْرِنا، وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى القَوْمِ الكافِرِين﴾.

والصلاة والسلام الأكمَلان الأتَمَّانِ على سيِّدنا محمدٍ إمامِ وخاتَمِ الأنبياءِ والمرسلين، وعلَى آله وأصحابه، ومَنِ اقْتدَى بسنَّتِه إلى يوم الدِّين، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

عبد اللطيف جسُّوس

طنجة، مساء يوم الخميس 11 جمادى الأولى 1427هـ

الموافق 8 يونيو 2006م.